البَابُ الثَّانى

دراسات فى النص

١ – مادة الرسالة وأسلوبها .

٢ – المعالم الكبرى للنص .

– مقدمة الغفران :

– القسم الأول : الرحلة بابن القارح إلى العالم الآخر .

– القسم الثانى : الرد على رسالة ابن القارح .

١ – مادة الرسالة وأسلوبها

لا نعنى بأسلوب الشاعر أو الكاتب طريقة العرض وصورة الأداء ، والوقوف عند الظواهر الخارجية والصياغة الشكلية ، متتبعين ما فى صياغة « أبى العلاء » اللفظية من سجع أو جناس ، ومن تضمين أو اقتباس ، والإشارة إلى ما وصفوه به من ولع بالإلغاز وإيثار للغريب .

وإنما الأسلوب جوهر عمل فنى كامل ، له مادته وصوره . وهذه الظواهر فى الصياغة اللفظية أصداء لعالم نفسى يموج بالأفكار والمعانى والهواجس ، وهذا هو ما لمحه « عبد القاهر الجرجانى » من بعيد ، حين جاهد – فى دلائل الإعجاز – ليقرر أن المجاز والتشبيه والاستعارة ليست مسائل لفظية ، وإنما هى أحوال للمعنى يخرجه بها القائل .

وموجز القول فيه أن اللفظ للمعنى فى النفس ، ومن ثم فى المادة والمعنى إيجادًا وترتيبًا ، ثم فى اللفظ أداء وتصويرًا .

مادة الغفران :

المعانى تُستمد من نبعين : التلقى الخارجى والتأمل الباطنى . ولا خلاف بين الدارسين على أنَّ حظ « أبى العلاء » منهما قد كان وافرًا خصبًا سخيًّا .

أما التلقى الخارجى ، فما أكثر ما تحدث المتحدثون عن ذكائه وثقافته ! ما أكثر ما رووا من أعاجيب عن حفظه واطلاعه ! لقد اتهم الرجل فى دينه ، واتهم فى شاعريته ، واتهم فى فلسفته ، وأما ثقافته فلم يُتهم فيها قط .. بل لقد بلغ من إعجاب الناس – قديمهم والحديث – بحفظه واطلاعه وذكائه أن حكوا فى ذلك نوادر يتردد العقل فى قبولها ، ويردها إلى ما يرد إليه كثيرًا من المناقب .

وقد عقد العلامة «أحمد تيمور» فى كتابه عن «المعرى» ، فصلاً « فى مبلغ علمه وذكائه » جمع فيه بعض هذه النوادر ، واستهله بقوله : « اتفق محبوه ومبغضوه على أنه كان وافر البضاعة من العلم ، غزير المادة فى الأدب ، إمامًا فيه ، حاذقًا بالنحو والصرف ، نسيج وحده فى الذكاء والفهم وقوة الحافظة ، أما اللغة وحفظ شواهدها وتقييد أوابدها فقد كان فيها أعجوبة من العجائب »(١) .

والمستشرقون رأوا فى ذلك ما يوجب العجب ، جاء فى « دائرة المعارف الإسلامية » : « ويحق لنا أن ندهش من حافظته العجيبة التى مكنته–برغم ذلك النقص الخلقى – من أن

(١) أحمد تيمور : أبو العلاء المعرى ، ص ٢٢ ط مصر ١٩٤٠م

يظهر فى مؤلفاته هذا التنوع، وتلك الدراية الواسعة بالعلوم ، التى قل أن نجد لها نظيرًا عند غيره».

والشهادة لأبى العلاء بالعلم والذكاء ليست موضع خلاف فيما نعلم ، سوى أن فردًا واحدًا هو « أبو العلاء » نفسه الذى استصغر من أمره ما أكبر الناس ، وبالغ فى ذلك إلى حد الغلو .

كتب إليه « ابن القارح » فى رسالته التى أملى « أبو العلاء » الغفران ردًّا عليها ، أن ذِكر أبى العلاء جرى فى مجلس ، فقال قائل من أهل المجلس : « الشيخ بالنحو أعلم من سيبويه ، وباللغة والعروض من الخليل . فقلتُ والمجلس يأذَن : بلغنى أنه – أدام الله تأييده – يُصَغِّرُ كبيره وَيُنَزِّرُ صغيره ، فيصير تصغيره تكبيرًا وتحقيره تكثيرًا .... وما ثَمَّ له حاجة دعت إلى هذا ، قد تَفَتَّحَ النَّوْرُ ، ووتَوَضَّحَ النُّورُ ، وأضاء الصبح لذى عينين »[(١)] .

فأملى أبو العلاء فى « الغفران » ردًّا على تقريظ « ابن القارح » لعلمه :

« واحلف ... ..

« إنى لمكذوب عليه كما كذبت العرب على الغول ، وإنها عمًّا يؤثَر لفى شُغول ، وكما تقوّلت الأمثال السائرة على الضب ، وله بالكَلَدة إرباب الصب ، وكما تكلمتْ على لسان الضبع وهى خرساء ، ما أطلق لسانَها الوضحُ ولا المساء . يُظن أننى من أهل العلم ، وما أنا له بالصاحب ولا الخلم ، وتلك لعمرى بلية ، تُفتقدُ معها الجلية ، والعلوم تفتقر إلى مراس ، ودارسٍ للكتبِ أخى دِرَاس » –٣٨٩ : ٣٩٠ .

وقال فى (رسالة الملائكة) : (وحُقَّ لمثلى ألاَّ يُسأل ، فإن سُئل تَعين عليه ألاَّ يجيب ، فإن أجاب ففرضٌ على السامع ألاَّ يسمع منه ، فإن خالف باستماعه ففريضة ألاَّ يكتب ما يقول ، فإن كتبه فواجب ألاَّ ينظر فيه . فإن نظر فيه فقد خبط فى عشواء)[(٢)] .

وأملى مثل ذلك فى رسائله مع « داعى الدعاة » ، وفى رسالته إلى « أبى نصر بن يوسف »[(٣)] .

لكنه تواضعٌ لا يُخفى ما وراءه من يقين « أبىالعلاء » بتفوقه ، وقد حرص ما عاش على أن يبهر الناس بعلمه ، ويعرض عليهم ثروته اللغوية النادرة ، وغير مستغرب من مثل ابن القارح ، أن يرى هذا التواضع كان سبيلاً من سبل الشهرة وأداة من أدوات الإعلان ، وفى هذا يقول فى رسالته : (بلغنى أنه – أدام الله تأييده – يُصغر كبيره ، وينزر صغيره ، فيصير تصغيره تكبيرًا وتحقيره تكثيرًا)[(٤)] .

* * *

(١) رسالة ابن القارح : ص ٢٦ – مع رسالة الغفران . ط ذخائر .

(٢) رسالة الملائكة : ص ٥ – ط المجمع العلمى بدمشق .

(٣) رسائل أبى العلاء . ص ٥٩ – ط أكسفورد .

(٤) رسالة ابن القارح . ص ٢٦ – مع رسالة الغفران . ط ذخائر .

وإذا كان الكلام عن علمه وذكائه ، وعن ثقافته واطلاعه ، يمكن أن يقال فى أكثر الآثار العلائية الممتازة ، فإن لرسالة الغفران علينا أن نؤثرها بعناية خاصة ، فنشير إلى ما تحمل من آثار هذه الشخصية المتميزة بغناها اللغوى النادر واطلاعها الواسع على الثقافة العربية ، فى العقائد والفكر والآداب .

وهى آثار ندع الحديث المفصل عنها إلى مكانه من « المعالم الكبرى للنص » ، حيث نشهد كيف صاغ أبو العلاء عالمه الآخر ، ببراعة وأصالة من مادة خصبة وافرة ، جمعها من علمه بالقرآن ، والحديث ، والأدب ، والأساطير ، كما يكشف لنا الفصل الخاص بالزندقة ، عن مبلغ إحاطته بالملل والنحل التى ماج بها العالم الإسلامى ، ووعيه لأخبار أصحابها وآثارهم . ثم يأتى فصل « اللغة والأدب ، فى الغفران» فيلفت إلى ما فى الرسالة من فقه أبى العلاء اللغوى وذخيرته من علوم العربية : نحوًا وصرفًا وعروضًا واشتقاقًا ، ورواية وأدبًا ونقدًا وتاريخًا .

* * *

وأما عن نصيب « أبى العلاء » من التأمل الباطنى ، فموجز القول فيه أن « أبا العلاء » قد مارس التأمل من عهد مبكر ، فمنذ أطبق جفنيه وكفَّ عن النظر إلى العالم الخارجي ، انطوى على نفسه وبدأ يمارس عمليةَ التأمل .

على أنه فى الشطر الأول من حياته ، شغل عنها بالدرس والتحصيل ، ثم لم يعف نفسه من الكفاح فى الدنيا ، ولم يُرحها من متاعب النضال فى سبيل أمجاد الحياة ، وخرج إلى قلب الميدان راجيًا ، مؤملاً ، وشغله هذا الخروج المناضل عن التأمل الطويل العميق ، وانصرف به عن عالمه الخاص ، إلى العالم الخارجى الهائج المائج ، الصاخب المضطرب ، حين ألقى به فى زحمة الناس . على أنه لم يكد ينسحب من الميدان ويئوب إلى منزله حزينًا يائسًا مهمومًا ، حتى انصرف إلى مطالعاته وتأملاته ، لا يصرفه عنها صارف من مشاغل الدنيا وشواغل العيش ، ومن هنا حملت آثاره فى هذا الشطر الثانى من شطرى حياته ، سمات عالمه النفسى بكل ما فيه من هموم وهواجس ، وكان حظها من التأمل أقوى وأعمق من تلك التى أملاها فى زمانه الأول . ولعل هذا هو ما لمحت إليه « دائرة المعارف الإسلامية » من بعيد حين قالت : « إن مؤلفات الطور الثانى من حياته هى التى ظهرت فيها موهبته الفريدة » .

و (رسالة الغفران) من الآثار العلائية التى استطعنا معرفة تاريخها ، وقد كُتبت بيقين فى هذا الشطر الثانى . بعد أن أمضى الأعوام الطوال عاكفًا على ذاته ، راصدًا خواطره وهواجسه ، سابحًا فى أحلامه ورؤاه ، وهى بذلك تحمل طابع التأمل ، وإن كان نكر العصر يلحق الشيخ فيقطع تأملاته .

وما نحتاج هنا إلى شاهدٍ لحظ « الغفران » من التأمل ، فحسبنا أن رحلته الذهنية الوجدانية إلى الآخرة ، انصراف تام عن عالمنا ، إلى عالم تمثّله ومثله ، فلم يكد يفتتح « الرسالة » حتى انصرف عمّا هو فيه من الرد على رسالة ابن القارح ، وترك خياله يشخص له عالمًا خاصًا ، من المواد التى اختارها من ثقافته الواسعة .

فإذا ذكرنا إلى جانب ما أشرنا إليه من وفرة حظ « أبى العلاء » من الاطلاع والتأمل ، وما نعرفه من ظروف (الرسالة) وصاحبها ، من حيث إخلاصه لفنه وحريته فى تفكيره ، قدرنا ما توافر لمادة العمل الفنى فى (الغفران) من عناصر الغنى والخصب ، مما لا يكون مثله إلا من أديب أنضجه الزمن ، وقرّت حياته على الوضع الذى عرفناه من حياة « أبىالعلاء » فى عنفوان مجده الأدبى ، وطلائع شيخوخته ، وصميم عزلته .

وسترى فى رسمه للجنة والنار ، كيف عاش فى عالمه الأدبى ملء حريته ، لا يعوزه فيه تزلف إلى ملك أو تقرب إلى حاكم ، وكيف اسَّاقطت عن نفسه حُجب المداراة ، فمضى يتحدث عنها فى صراحة مؤثرة ، ويكشف عنها فى إخلاص نادر ، ويصور رؤاه فى تفنن مثير .

هذه هى مادة « الغفران » ، فلنسجل بعد هذا ملاحظاتنا على معانيها وأخيلتها ، ولننظر فيما تحمل من سمات مميزة .

أما المعانى فالذى يعنينا هنا — بعد إذ فرغنا من الحديث عن وفرتها وغناها — هو النظر فى مدى حرص « أبى العلاء » على سلامة معانيه ووضوحها . وهنا تلقانا :

دعوى الغموض فى الغفران :

وهى دعوى راجت وشاعت هنا فى الشرق ، وهناك فى الغرب .

قال « البستانى » : « ولكن استغلاق عبارتها وفقدان الطلاوة الشعرية فيها ، ينحطان بها عن درجة أمثالها من ملاحم العجم »(١)

وردد مثل هذا الكلام جمهور المتأدبين عندنا ، وهم فى الغالب يرجعون إلى عبارة للأستاذ العميد « الدكتور طه حسين » — فى مقدمته لطبعة كيلانى للغفران — يقول فيها مدافعًا عن « رسالة الغفران » فى غموضها وعن « أبى العلاء » فى إغرابه : (إنه كان يتكلف الغريب ليصد عامة الناس وجهالهم عن قراءته والظهور على ما فيه ، وكأنه لا يكتب لعصره ، وكأنه كان يخشى على آثاره الأدبية أن يفهمها أهل زمانه فيفسدوها ويشوهوها ، ويحولوا بيننا وبين فهمها ، وكأنه إنما أقام الغريب طلاسم وأرصادًا شغل بها أهل عصره عن هذا الكنز حتى لايصلوا إليه) .

والشاعر « عباس إقبال » قد ذهب إلى مثل هذا حين قال مشيرًا إلى ما عانى « أبو العلاء » من معاصريه :

---

(١) مقدمة الإلياذة ، ص ١٧٥ .

(فتعب منهم وتألم من مجتمعهم واحتقرهم ، فانزوى فى محبسه يعيش عيشة نسك وانزواء ويعبر عن آرائه بألفاظ غامضة وأسلوب مبهم . كل ذلك بتعمدٍ منه لئلا يطلع على مذهبه وأفكاره من ليس له أهلا)[1].

والمستشرقون قد شكوا من هذا الغموض ، واعترف « نيكلسون » أنه حين قرأ (رسالة الغفران) بدا له قدر كبير منها ، ميئوسًا منه تقريبًا[2] وصرح « الفريد غليوم » . بما يتعرض له المستشرق من عناء وجهد « لبعده عن أسلوب هذا الأديب الغريب »[3] .

فما هذا الإغراب الذى أكثروا القول فيه ، وذكروا معه الطلاسم والأرصاد والألغاز ؟

لعل الأستاذ «الدكتور طه حسين» لم يقصد بالإغراب ذلك المعنى المحدود الذى فهمه منه هؤلاء ، وإنما قصد إلى مثل ما عناه «داعى الدعاة» حين توسل إلى الشيخ أن يعفيه «من قصد الأسجاع ولزوم ما لايلزم ، فإن مُلْتَمَسِيَ فيه المعانى لا الألفاظ »[4] . وعاد في الرسالة التالية يفسر هذا قائلاً : (وأما الأسجاع ومسألة التخلى عنها ، فما كانت إلا شُحًّا بالمعانى أن نضل بتتبعها).

أقول : لعل هذا هو ما قصد إليه « الأستاذ الدكتور طه » ، كما يوضحه قوله فى غير ذلك الموضع : « كان يلقى بينه وبين القارئ أستارًا صفيقة من غريب اللفظ ، وحجبًا كثيفة من ثقيل السجع ، ويقيم حوله أسوارًا منيعة من المباحث اللغوية والصور الدينية »[5].

ومع هذا ، فإن نغمة الإغراب تبدو شاذة إذا ذكرنا أمرين :

الأول : أن « أبا العلاء » شاعر وجد نفسه ، وقد جهر بكل ما يعتقد ، وهاجم من لم يرض عنهم من أصحاب المذاهب والملل والنحل ، ومن الملوك والحكام ، فلا حاجة به بعدُ إلى أن يقيم الطلاسم والأرصاد ليخفى نفسًا كشفها هو وعراها بيديه ، وأظهرها مجردة عن كل رياء ومداراة ، وأستاذنا « الدكتور طه » قد قرر منذ أكثر من ربع قرن ، أن أبا العلاء « هو أظهر الكتّاب المسلمين شخصية ، وأوضحهم عاطفة فى نثره ، ذلك لأنه لم يستطع أن يكون منافقًا »[6].

وأنتمى إلى مدرسة قد اطمأنت إلى هذا وفرغت من تقريره والاجتماع له ، ولها فى ذلك بحوث ودراسات ، يجدها من يلتمسها ، فلا حاجة بنا إلى العود إلى ذاك بعد أن صار عندنا أمرًا مقررًا[7] .والحياة الإنسانية

(١) المهرجان الألفى لأبى العلاء ، ص ٣٣٦ .
(٢) J. R. A. S. 1902'P. 7.
(٣) المهرجان الألفى ص ١١٧ .
(٤) انظر الرسالة الثالثة – معجم ياقوت ، ج ٣ أ ١٩٤ – دار المأمون .
(٥) تجديد ذكرى أبى العلاء ، ٢٣٢ – ٢٣٣ .
(٦) ص ٢٣٣ (تجديد ذكرى أبى العلاء) .
(٧) منها (رأى فى أبى العلاء) لأستاذنا أمين الخولى ، (والحياة الإنسانية عند أبى العلاء) للدارسة .

الثانى : أن « أبا العلاء » قد فسر كل ما غمض من ألفاظه ، وعنى بذلك حتى كان يضحى فى سبيله بالجمال الفنى ووحدة السياق ، ولو رجعت إلى ثبت مؤلفاته لوجدته يتبع الكتاب من كتبه بشرح له مفرد ، ويفسر غريبه ، ويبين غامِضَهُ ، ويكشف مغلقه .

وقد يكتفى فى ذلك بكتاب واحد ، كشرح « خطبة الفصيح » وتفسير « الهمزة والردف » و « خادم الرسائل » – وسماه « القفطى » خادمة الرسائل وفيه تفسير ما تضمنته رسائله من الغريب – وشرح « الرسالة الإغريضية ، » ومتار « القائف » ، وضوء « السقط » .

وقد يزيد فيضع كتابين أو أكثر كما فعل فى :

« الفصول والغايات » فسره بـ « إقليد الغايات » و « السادن » .

« اللزوميات » أتبعها أربعة كتب : زجر النَّابح ، وبحر الزجر ، والراحلة ، وراحة اللزوم .

وسنرى فى حديثنا عن ظاهرة الشروح المعترضة ، أنها شائعة فى أسلوبه ، فهو فى « الفصول والغايات » يتبع كل فصل بتفسير له قبل الرجع ، وهو فى « الرسائل » يشرح الغامض ويبين الغريب ، فى ثنايا الحديث ، ولو عبث بالنظم وأقلق السياق .

وتراه فى « كتاب الألغاز » – الذى نقل « البديعى » قطعة منه فى « أوج التحرى » – يلغز عن الشىء ثم يحل اللغز على هذا النحو :

أتى الأربعاء القومَ فى يوم جمعة وسَبْتُهمُ وافـــاهـــمُ بخميسِ
ومن لا يخنــه عمـــره تلق نفسه ضروبَ نعيم فـى الزمـــان وبوسِ

قال شارحًا : « الأربعاء هاهنا : جمع ربيع ، وهو النهر الصغير ، ألغز عن اليوم ، وسبتهم : إن شئت كان يوم السبت وافاهم فيه خميس ، وهو الجيش وإن شئت كان السبتُ هاهنا ضربًا من السير ، ويكون الخميس يومًا ، أو جيشًا ، أو ثوبًا » .

وقال :

« ولابسة فى قيظها ألفَ حُلَّة وأكثرَ ، لم تحفل بحسنِ لباس
ولا خشيت قرًّا ولا من ظهيرة هجيرًا ولا استحيت عيونَ الناس
وكم عندهـــا عـــارٍ يود لـــو انه بِطِمرينِ من شـــر المطـــرز كاسِ

هذه الكعبة ، والمعوز الثياب : الأخلاق »[1] .

كذلك تراه فى مقدمة « الغفران » يلغز عن حرقة القلب بالحماطة ، وعن القلب نفسه بالخضب ، والأسود ، لكنه لا يدع إلغازه يمر دون أن يحله ويفسره فى صبر وأناة ، قبل أن يستأنف الإملاء للرسالة . المعهد

وليس هذا بصنيع مَن يعمد إلى التعمية والتجهيل ، ويقيم الطلاسم والأرصاد .

(١) البديعى : أوج التحرى ، ص ٦ – ط المعهد الفرنسى بدمشق .

فمن أين جاءت دعوى الإغراب والغموض مع هذا الذى رأينا من إصرار « أبى العلاء » على تفسير غريبه وشرح غامضه وفك ألغازه ؟ وذاك الذى عرفناه من صراحته ؟

مَرَدُّ هذا عندنا إلى ثلاثة أمور :

الأول : أن المفهوم من الإلغاز والإغراب لم يُحرر فى فهم المتأدبين من المحدثين ، سمعوا أن للشيخ ديوانًا فى « الألغاز »[1] وقد قال « ياقوت » : إنه ألف « جامع الأوزان » على معنى اللغز ، وقرأوا ما قاله « ابن سنان الخفاجى » عَمَّا كان من ولع الشيخ باللغز[2] ؛ فظنوا به الغموض والقصد إلى التعمية والتجهيل ، ولكن الواقع أن « أبا العلاء » لم يلغز إغرابًا وتعمية ، وإنما كان يصطنع الغريب للتفاصح ، وإظهار المقدرة ، وقد كَلِفَ بالألغاز من حيث هى فن من فنون البديع ، وهذا هو المفهوم من حديث « ابن سنان الخفاجى » عن ألغاز شيخه ، فلم يصفه بالغموض ، وإنما قال : « وقد كان شيخنا أبو العلاء يستحسن هذا الفن ويستعمله فى شعره كثيرًا .. » .

فليس الإلغاز ها هنا إغرابًا وتعمية « وإنما هو مذهب مفرد ، وطريقة أخرى »[3] .

وقد تحدث « ابن حجة الحموى » فى « الخزانة » عن فن الألغاز بين فنون البديع ، ونقل لغزًا « لأبى العلاء » ، فيما نقل من شواهد هذا الفن وأمثلته[4] .

الأمر الثانى : أن الغرابة نسبية حتى فى الزمن الواحد والمكان الواحد ، فما يجده طالب كلية العلوم فى الجامعة مثلاً غريبًا مبهمًا ، قد يراه زميله فى كلية الآداب واضحًا مفهومًا . فالحكم اليوم بالغرابة على نص من القرن الخامس يجب أن يلقى منا كل حذر واحتياط ،فبيننا وبينه قرون تسعة ، جدَّت فيها أحداث على اللغة بمفرداتها وأساليبها ، وحدثت تطورات يعرفها عامة المتأدبين ، ولا أقول الخاصة منهم ، فالذى يراه قارئ « الغفران » اليوم — ممن لم يفرغ لها أو يتخصص فيها ، أو ممن يجهل روح أسلوبها كالمستشرقين — غامضًا أو مغلقًا ، لا يراه كذلك الذين درسوا « الغفران » ، أو الذين عاصروا أبا العلاء وعرفوا أسلوبه وأسلوب عصره .

ويقال مثل ذلك فى اختلاف مستوى الثقافة فى العصر الواحد ، فما من شك فى أن من معاصرى « أبى العلاء » من لم يفهمه ، بدليل ما نقله « الخفاجى » فى « سر الفصاحة » من أن كثيرًا من الأدباء لم يفهموا كلام الشيخ[5] ، مع حرص « أبى العلاء » على الشرح والتفسير ،

(١) البديعى : أوج التحرى ، ص ١٠٦ — ط المعهد الفرنسى بدمشق .
(٢) الخفاجى : سر الفصاحة : ٢١٥ ، ٢١٦ — ط الرحمانية سنة ١٣٥٠ .
(٣) الحموى : خزانة الأدب ، ص ٣٩٣ — ط الخيرية ١٣٠٤هـ .
(٤) ابن سنان الخفاجى : سر الفصاحة ٦٧.
(٥) المهرجان الألفى لأبى العلاء .

« تيسيرًا على المبتدئين في الأدب » ، كما جاء في « خادم الرسائل » ، وخشية « أن يقرأه ناشئ لم يبلغه ذاك » ، وخوفًا « من وقوع الرسالة في يد غلام مترعرع ،ليس إلى الفهم بمتسرع ، فتستعجم عليه اللفظة » كنص عبارته في رسالة الغفران .

الأمر الثالث : مما نرد إليه دعوى الغرابة والغموض ؛ أن نص « الغفران » لم يُقرأ حتى أمس القريب ، لسبب واضح بيِّن ، هو أنه لم يُحقق ، والذى كان منه فى مكتباتنا وأسواقنا ، إما مشوه محرف وإما ناقص مبتور ، وهذا النقص وذلك التشويه مسئولان – مع غياب رسالة ابن القارح عن قارئى الغفران – عن التواء بعض العبارت فى « الغفران » وغموض الكلام ، مما كان مصدرًا لكثير من هذه الأحكام التى حُكم بها على غرابة الرسالة ، وإغلاق عباراتها ، وتجهيل معالمها ، وولع صاحبها بالغريب واللغز ، مما أكثر فيه المحدثون – من شرقيين وغربيين – وأبعد منهم مبعد من أدباء سوريا ، فذكر حساب الجُمَّل ، راجيًا أن نجد فيه حلا لرموز أبى العلاء !

* * *

ويبقى لنا ، بعد مناقشة ما قيل عن غموض الغفران ، ملحظان يتصلان بصحة معانيها :

الأول : أنه كان حريصًا فيما يُنطق به الجاهليين والمتقدمين ، على أن يُجرى على ألسنتهم ما يجوز أن يصدر من أمثالهم . فإذا أراد أن يشركهم فى حوار لغوى لا عهد لهم بمثله ، احتاط لذلك ، كما فعل مع « ابن أحمر » حين أراد أن يناقش أقوال اللغويين فى تصريف زبرجد ؛ وفى هذه الأقوال مصطلحات متأخرة لم يسمع ابن أحمر بها قط ، ومن ثم قال « أبو العلاء » : فيلهم الله القادرُ « ابنَ أحمر » علم التصريف ليُرى الشيخ برهان القدرة ٢٤٥[1].

لكنا نراه فى مواقف أخرى ، يغفل مثل ذلك الاحتياط ، فيبدو الحديث مستغربًا مستبعدًا ،كذلك الذى سمعناه من « امرئ القيس » وهو يردد مثل هذه العبارات :

« وإذا فعلوا ذلك فأى فرق يقع بين النظم والنثر ؟ وإنما ذلك شىء فَعَلَهُ مَنْ لا غريزة له فى مَعْرِفَةِ وَزْنِ القريض ، فظنه المتأخرون أصلا فى المنظوم » ٣١٤ .

« والتخفيف أَحَبُّ إلىّ ، وإنما حملهم على التشديد كراهة الزّحاف وليس عندنا بمكروه » ٣١٥ .

« أما أنا فما قلت فى الجاهلية إلا بزحَاف « لك منهن صالح » ، وأما المعلمون فى الإسلام فغيَّروه على حسب ما يريدون » ٣١٨ .

« وإنه لَقَرِىّ لم أسلكه .. وأحسب هذا لبعض شعراء الإسلام .. » ٣١٩ .

« والرجز مِنْ أضعف الشعر ، وهذا الوزن من أضعف الرجز » ٣٢٠ .

(١) الأرقام المذكورة إثر النصوص هنا، تشير إلى موضعها فى «رسالة الغفران» تحقيق الدارسة ط ثامنة ذخائر.

« لا نَكِرَةَ عندنا فى الإقواء » ٣٢٠ .

وهذا ومثله ، مما لا يصدر عن شاعر جاهلى « كامرئ القيس » ، سبق عهدَ المصطلحات العروضية بزمان . وقد كان المعنى يسلم « لأبى العلاء » لو أنه احتاط بمثل ما احتاط به فى حديث « ابن أحمر » عن التصريف .

هل نقول : إن اندماج أبى العلاء فى عالمه الآخر ، هو الذى أنساه مثل ذاك الاحتياط ، وأن تقمصه لشخصية امرئ القيس هنا ، بلغ من القوة بحيث شغله عن الانتباه الواعى ، إلى أن يُفَرِّق بين ما يصدر عن رأيٍ له ، وبين ما يجوز أن يجرى به لسان امرئ القيس ؟

أو لعله أُجرى عباراته على المصطلح المألوف ، قصدًا إلى الإيضاح والبيان لما يعرض له من مسائل لغوية وعروضية ؟ كلا الأمرين جائز ومحتمل .

* * *

الملحظ الثانى : أن « أبا العلاء » حين يتصدى للحكم فى قضايا أدبية ، يبدو لنا متزن الرأى ، ناضج الفكرة ، سليم المنهج .

انظر حكمه على دالية طرفة : ٣٣٨ .

وميمية المرقش : ٣٥٧ .

والتَّسْمِيط المنسوب لامرئ القيس : ٣١٨ .

لكنه إذا انصرف إلى صنعته اللفظية ،وعبثه بالجمل والكلمات ، شغله ذاك عن العناية بصحة المعنى ، وسلامة الفكرة ، وصدرت عنه مبالغات لا يسيغها الذوق ولا يقبلها المنطق .

مثل تعقيبه على ميمية النابغة الجعدى : ٢٢١ .

وحديثه عن شعر البشر ، على لسان الجنى الذى يبدأ قائلا : « وهل يعرف البشر من النظيم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض ؟ وإنما لهم خمسة عشر جنسًا من الموزون قلّ ما يعدوها القائلون ، وإن لنا لآلافَ أوزانٍ ما سمع بها الإنس .. » : ٢٩١ .

ثم يمضى فى مبالغاته حتىٰ يبعد ..

وقوله فيما وُصِفَ به من العلم والدين : « وكيف يُدّعَى للعلج الوحشى – وإنما أَبَدَ فى الروض الحبشى – أن تغريده فى السحر أشعارٌ موزونة ، تأذنُ لنظيرها المحزونة ؟ وهل يُصور لعاقل لبيب أن الغراب الناعب صدح بتشبيب ، وأن العصافير الطائرة بأجنحة ، كعصافير المُنذِرِ الكائنة للتمنحة ؟ .. فبَعِدَ من زعم أن الحجر متكلم ، وأنه عند الضرب متألم » : ٣٩٠ .

ومثل هذه المبالغات فى « الغفران » كثير ، مما ترى فيهد عدم اكتراث « أبى العلاء » بصحة

المعنى فى سبيل إقامة سجعة راقته ، أو تسجيل خيال سنحت له . مما هو صدى للنكر الذى حاق بالحياة الأدبية فى عصره .

* * *

الخيال :

وأنتقل إلى الحديث عن الخيال فى « الغفران » ، وفينا من [١] ينكر أن يكون (لرسالة الغفران) أى حظ من الخيال .

فلعل الخيال عند هؤلاء لا يكون إلا فى اختراع صور لا وجود لها إلا فى هذيان الخيال وأوهام السراب بعيدًا عن ملهمات الرؤى ، ومطوى الهواجس والهموم ، فى العرض الجديد المتخيّل ، لصور قديمة معروفة ، والتأليف المبتكر ، لمواد موجودة معهودة .

و « أبو العلاء » – فى رحلته إلى العالم الآخر – يؤلف من الأخبار الشائعة صورة فريدة ، متميزة بسمات خاصة بها .

أن يكون العرب قد تحدثوا فى أساطيرهم وأشعارهم ، وعقائدهم ، عن الجنة والنار ، فهذا ما لا ريب فيه ، ولم يكن « أبو العلاء » نفسه بحيث ينكره ، فهو حريص على رد أخيلته إلى أصولها الأولى من الشعر القديم والقرآن الكريم .

يفعل ذلك فى « الغفران » وفى غير « الغفران » ، لكن لخيال « المعرى » بعد ذلك أسلوبه الفذ فى تأليف الصورة الجديدة من المواد القديمة ، وطريقته المبتدعة فى عرض هذه الأخبار والأقوال ، فى ذلك القالب الخيالى الذى يشخص المعانى ويجسم الصور . وسوف نعرض لظاهرة « التشخيص والتمثيل » بمزيد بيان .

على حين رأى « الأستاذ الشريقى » من آيات المعرى « اصطناع الأسلوب القصصى التعليمى الفكه محمولا على الخيال المبدع ، والسخرية اللاذعة ، والاستقصاء الأدبى الجامع ، وهو أسلوبه ، فى رسالة الغفران »[٢] .

وكتب « نيكلسون

"It is a delightful Creation of Fancy, a trifle Pedantic but witty audacious and Original"[٣]

* * *

---

(١) انظر « الغفران » – للمرحوم الأستاذ كامل كيلانى ، ص ٦٦٦ ط ٣ ، وأطلق الشاعر التونسى أبو القاسم الشابى الحكم بِعُقم (الخيال الشعرى عند العرب) أجمع ، لم يستثن !

(٢) المهرجان الألفى لأبى العلاء ، ص ٢٢٠ .

(٣) J.R.A.S. 1902, P. 78.

الفكاهة والسخرية :

بقيت كلمة نقولها عمّا يسود حديث أبي العلاء في الغفران ، من حس الفكاهة والسخرية .

وقد سماه المتقدمون استخفافًا – « الذهبي » – وسماه المحدثون تهكمًا وسخرية ، قال « آدم متز » : « ورسالة الغفران يتجلى فيها التهكم الخفي على أتمّه »[1] .

ولا أنكر أن حس السخرية في رسالة الغفران ، يكاد يكون من خصائصها المميزة ، غير أننا نرى من الخطأ الفادح ، توجيه هذه السخرية إلى العقيدة الدينية الإسلامية عن العالم الآخر ، كما فهم عدد من النقاد قدامى ومحدثين[2] . فأبو العلاء – فيما أوقن – لم يقصد إلى شيء من هذا قط ؛ وإنما كانت سخريته كلها بابن القارح ، قصدًا وعمدًا .

وإن تكن السخرية بابن القارح في عالمه الآخر ، تكاد تختفي وراء استغراق أبي العلاء في تصوير رؤياه لذلك العالم ، فلا نلمح منها إلا الدعابة اللطيفة والفكاهة الحلوة ، في ثنايا مشاهد الملذات المادية التي تفنن في حشدها لابن القارح ، لأنها التي ترضيه وتمتعه .

(انظر مثلا مشهد الحورية المعدة لابن القارح في الجنة ، ص ٢٨٨ ، ومشهد دارة جلجل ، ص ٣٧٢ ، ومشهد نشوته من الخمر ص ٣٧٨ ..)[*] .

وكذلك في الخصومات العنيفة الحادة التي شبّها أبو العلاء بين الشعراء ص ٢٧٧ ، ٢٥٤ ، أو بين اللغويين في مأدبة ابن القارح بالفردوس ص ٢٨٠ ، أو مع الرجّاز ص ٣٧٤ .

بل إن دعابة أبي العلاء هنا على لطفها وملاحتها ، لا تخفى ما يطوى في أعماقه من مرارة وتعب .

على حين تبدو السخرية بابن القارح لاذعة مثيرة في القسم الثاني من رسالة الغفران ، ولا صلة له بهذا العالم الآخر الذي شخصه في الفصل الأول ، وحُمِل على السخرية بجنة المسلمين .

وبحسبك أن تقرأ مثلا ، ما أملاه أبو العلاء تعليقًا على توبة ابن القارح (ص ٥١٧) وحِجَجه الخمس (ص ٥٣٤) ودنانيره المسروقات (ص ٥٥٩) .

حسبك أن تقرأ هذا ومثله ، لترى إلى أى مدى كان أبو العلاء لاذع السخرية بابن القارح ، بعد أن فرغ تمامًا من رحلته به إلى الفردوس والجحيم ، وأسدل الستار على مسرحه للعالم الآخر ، وعكف على إملاء رده على ما جاء في الرسالة التي تلقاها .

* * *

---

(١) الحضارة الإسلامية :١١٢/٢ من الترجمة العربية للأستاذ حمزة طاهر .

(٢) انظر إلى الفصل الخاص بالزندقة ، في هذا البحث .

(*) الأرقام تشير إلى صفحات رسالة الغفران ط ثامنة ذخائر .

نظم الغفران :

وحين ننظر فى ترتيب « أبى العلاء » لمعانيه ونظمه لمادة الغفران ،نجد الأمر هنا يشق ويعسر ، إذ تلقانا أقاويل شتى قيلت عن :

اضطراب سياق الغفران :

ويكاد مَن قرأت لهم من المستشرقين يجمعون على ذلك . ولهم عليها أحكام صارمة : لاحظ نيكلسون : « أن أفكاره شتيت غير منسق ، احتواها نظم معقد لا يخلو من تناقض »[١] . وما أكثر ما تحدث عن غموض (الغفران) واضطرابها فى المقدمة التى قدم بها النص لمجلة الجمعية الآسيوية الملكية .

وقضى « آدم ميتز » فى كتابه الحضارة الإسلامية[٢] بأنها « رديئة التأليف » ، ولعل المستشرق الهولندى « دى بور » كان يعنيها بقوله : « ويكاد أبو العلاء يكون خلوًا من كل مقدرة على ربط الأشياء بعضها ببعض ، لقد كانت له مقدرة على التحليل ، أما التركيب فليس له منه نصيب .. وتعاليم أبى العلاء عقيمة ، وعلمه كشجرة أصلها فى الهواء »[٣] .

ولقد يحمل مثل هذا الإجماع ، أو ما يشبه الإجماع ، من المستشرقين على إنكار أسلوب « أبى العلاء » ، على الظن بتحاملهم عليه ، لكنا نجد من تقديرهم له واهتمامهم برسالته ، ما يجعلنا نتردد فى حمل أحكامهم على أسلوبه على محمل التجنى والتحامل ، فمن بين المستشرقين من شادوا بذكر جرأته الأدبية وعبقريته وامتيازه "Rieske"، ومنهم من قدر شعره وتحدث عن فلسفته بعطف "VonHammer"[٤] . ومنهم من جعل له مكانًا بين الأخلاقيين "Von Kremer"، فما تعليل اتهامهم أسلوب رسالة الغفران بالاضطراب وأفكارها بالتشتت ، ونظمها بالتعقيد ؟

الواقع أن من معانى « الغفران » ، المرتب المطمئن ، ومنه – وبخاصة فى القسم الثانى – ما يعوزه فى الظاهر توثيق السرد وإحكام النسج ، واطمئنان السياق ، فأنت تخرج من موضوع إلى موضوع لا يبدو متصلا به ، وذلك شائع فى القسم الثانى بوجه عام ، لا تكاد تخطئه فى انتقال واحد من انتقالاته ، بعكس ما تراه فى القسم الأول ، حيث تمضى فى الرحلة آمنًا أو شبه آمن ، من تعثر السياق ، إلا ما يلقاك من استطراد قد يجور على النظم .

وكاتب القسمين واحد ، لاشك فى ذلك ، وظروفهما متماثلة أو متقاربة ، لكن هناك عنصرًا أجنبيًا ، هو المسئول عمَّا يبدو فى ترتيب أفكار القسم الثانى من تعثر واضطراب وخلل ، والمسئول كذلك عن ارتياب نقاده ، فى تعلقه فى القسم الثانى بذكر الزنادقة والملحدين .

---

(١) J.R.A.S. 1902. P. 89.

(٢) الحضارة الإسلامية ، ١١٢/٢ . من الترجمة العربية – د . أبو ريده .

(٣) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ، ص ٨٧ من الترجمة العربية .

(٤) R..A. Nicholson: A Litterary History of the Arabs. ed. London 1943.

ذلك العنصر الأجنبى هو « رسالة ابن القارح » .

وبيان ذلك أن هذا الأديب الحلبي ، تناول في رسالته إلى « أبي العلاء » موضوعات شتى ، وتنقل بين عوالم كثيرة ، وأشار إلى أشخاص وأماكن ، واستشهد بأبيات من الشعر وأمثال من النثر ، ولست الآن بصدد الحكم على أسلوب رسالته من حيث الترتيب وسلامة الانتقال ، بل أنبه على أن « أبا العلاء » فى القسم الثانى كان يجيب عن هذه الرسالة جزءًا جزءًا ، ويتتبعها فقرة بعد فقرة ، وهذ هى الرابطة التى كانت تربط بين أقواله فى القسم الثانى من الغفران ، حيث الردُّ على رسالة ابن القارح .

ويستطيع القارئ أن يقيم نص الغفران مطمئنًا ما بقيت أمامه « رسالة ابن القارح »[1] يتابعها مقابلة على « الغفران » ، فإذا غابت الأولى ، تعثر نص الغفران ، وتشتت القول ، واضطرب النظم ، وكان ما سماه المستشرقون « رداءة التأليف ، وتشتت الأفكار ، وفقد المقدرة على ربط الأشياء بعضها ببعض » .

* * *

ونحن نقرأ رسالة « الغفران » فى قسميها ، فلا نشكو أى مظهر من التشتت والتعثر ، بل نرد كل مسألة من المسائل المتناثرة فى القسم الثانى ، إلى أصل بعينه من « رسالة ابن القارح » وندرك لِمَ تحدث أبو العلاء عن هذا الشخص أو ذاك ؟ ولم جاء بهذا البيت من الشعر هنا ، أو ذاك المثل هناك ؟ وَلِمَ انتقل إلى الحديث عن تلك المسألة أو أشار إلى هذا الشاهد ؟ دون أن يربطه برابط مع ما قبله .

وأما المستشرقون – ومن تابعهم من الدارسين العرب – فشق عليهم فهمُ القسم الثانى من «رسالة الغفران » .

والسبب قريب واضح ، هو أنهم – جميعًا فيما أعلم ، والله أعلم – لم يقرءوا رسالة « ابن القارح » مفتاح فهم الغفران !

كثرة منهم كان مرجعهم الأول لرسالة الغفران ، هذه الأجزاء الناقصة التى نشرها منها، المستشرق «نيكلسون» ، فى « مجلة الجمعية الآسيوية » تباعًا بين عامى ١٩٠٠م، ١٩٠٣م، بهذا صرح «آدم ميتز» فى «الحضارة الإسلامية» و «آسين بلاسيوس» فى «الإسلام والكوميديا الإلهية».

و «نيكلسون» لم يكن يعرف مَن « ابن القارح » هذا ، بل ذهب إلى أنه قد يكون « أبا منصور الديلمي الذى يعرف بأبي الحسن على بن منصور–وهو شاعر كان أبوه فى خدمة سيف الدولة»[2] !

---

(١) تجد نصها المحقق ، مع رسالة الغفران فى طبعاتها من الثالثة فما بعدها – ذخائر .

(٢) J.R.A.S. 1902 P. 87-79. !

كذلك لم يقرأ « نيكلسون » رسالة « ابن القارح » ، ولا قرأها « آدم ميتز » ولا « ميجيل أسين بلاثيوس » مع أنه عرف شخصية الرجل ورجع إلى ترجمتــه فى ياقــوت ؛ ثم قال :
[(١)] "Ibn al-Qarih's epistol, to which the Risala is a reply, has not been preserved"

فليس غريبًا أن يتعثر النص بين أيديهم ، ويخفى عليهم فهم سياق معانيه ، فتغيب عنهم الروابط بين فقراته وعباراته . ولو أن عربيًا ، مدركًا لأسرار لغته راسخ العلم بها درايةً ، قرأ القسم الثانى من « الغفران » من غير أن يقرأ « رسالة ابن القارح » ، لتعذر عليه فهم مدلول عباراته وإشاراته وإقامة نصه ، فكيف بمستشرق يعوزه فهم روح العربية وفقه أسرارها فى التعبير وأساليبها فى الأداء ؟ !

هذا تعليل ما لقى المستشرقون من اضطراب نظم « الغفران » ، وما حكموا به عليها من فقدان الرابطة بين أجزائها ومعانيها . وتداولها عنهم من تابعهم من الدارسين العرب ، فى غيبة رسالة ابن القارح مفتاح فهم الغفران .

* * *

فإذا أبعدنا عن أسلوب الغفران ، تهمة تشتت الأفكار وتعقيد النظم ، وانعدام الربط المعنوى ، بقى ملحظان آخران على الترتيب ، قد يُردّ إليهما ما نراه من تمزق النظم فى الأسلوب ، — وهو ملحظ آخر غير ما قيل من التشتت والعجز عن الربط — .

أولهما : الاستطراد .فقد كان « أبو العلاء » يكثر الخروج عن الموضوع الذى يتحدث فيه ، مستطردًا إلى حديث آخر يدعو إليه أوهى داعٍ من النظم أو المعنى ، ولا عيب فى هذا لو أنه أخِذ باعتدال ، لكنا نلاحظ على الشيخ أنه أسرف فى ذلك إسرافًا واضحًا يفسد وحدة الموضوع ويعبث بالنظم .

وما ظنك باستطراد يستغرق أكثر من نصف الرسالة ؟ أعنى تلك الرحلة إلى العالم الآخر ، فقد كانت كلها استطرادًا ساق إليه تقدير « أبى العلاء » لما افتتح به « ابن القارح » رسالته من تمجيد الله ؟ !

قال ابن القارح فى مستهل رسالته إلى أبى العلاء : « استفتاحًا باسمه ،واستنجاحًا ببركته ، والحمد لله المبتدئ بالنعم ، المنفرد بالقدم ، الذى جلّ عن شبه المخلوقين وصفات المحدثين ،ولىّ الحسنات ، المبرأ من السيئات ، العادل فى أفعاله ، الصادق فى أقواله ، خالق الخلق ومبديه ، ومبقيه ما شاء ومنفيه »[(٢)] .

فرد « أبو العلاء » :

« وقد وصلت الرسالة التى بحرُها بالحِكَم مسجور ، ومَن قرأها لاشك مأجور .. وألفيتها مفتتحة بتمجيدٍ ، صدر عن بليغ مجيد ، وفى قدرة ربنا جلت عظمته أن يجعل كل حرف منها شبح نور ، لا يمتزج بمقال الزور .. ولعله — سبحانه — قد نصب لسطورها المنجية

(١) Islam and the Dvne Comedy. P. 55. ed London- 1926.K

(٢) رسالة ابن القارح ، ص ٢١ — مع رسالة الغفران ط ٤ ذخائر .

من اللهب ، معاريجَ من الفضة أو الذهب ، تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء ، وتكشف عن سجوف الظلماء » .

ومن هنا نقل صاحبه إلى الجنة ، ومازال به فى رحلته حتى أكمل طوافه بالعالم الآخر ، جنته وناره ، ليعود بعد تلك الرحلة الطويلة ، إلى الرد على السطر الخامس من رسالة ابن القارح ! .

« وأبو العلاء » حين يستطرد ، يخلص للموضوع الجديد الذى أقحمه على حديثه ، فلا يدعه إلا بعد أن يستوفيه مهما يطل القول ، حتى تكاد تنسى الموضوع الأول الذى كان يحدثك فيه من قبل ، إلى أن يذكرك به رجعُ « أبى العلاء » إليه ، وهو لا ينسى ما كان فيه قبل أن يمضى مستطردًا .

والأمر يهون لو أنه يستطرد فى المرة الواحدة إلى مسألة واحدة ، لكن استطراده غالبًا ، يُسلِمُ إلى آخر فآخر ، حتى ليتساءل القارئ فى ضيق : ألا ينتهى ؟ ولكن لا غرابة فى ذلك ، فالشخصية واحدة هنا وهناك ، وما دامت الكلمة فى موضع تنقله إلى موضوع فرعى ، فإن غيرها — من الألفاظ أو المسائل فى هذا الموضوع الفرعى — ينقله إلى استطراد سواه . وهكذا . فذكرُ عسل الجنة مثلا ، يذكره ببيتى « النمر بن تولب » ، وهما يذكرانه بحكاية « خلف الأحمر » مع أصحابه فى تغيير القافية من النون إلى الصاد ، وهذا يسلمه إلى أن يمر بالقافية على حروف الهجاء جميعًا ،مستطردًا فى ثنايا ذلك استطرادات جديدة ، يشرح بها ما يعرض له من ألفاظ ، أو يفسر ما يأتى به من شواهد ، أو يناقش ما يمر به من قضايا .

ولعل علماء النفس يفسرون هذا ، بأن يردوه إلى ظروف « أبى العلاء » ، فقد كان يملى ولا يكتب ، وطبيعة الإملاء — وبخاصة إذا كان من غير مكتوب — لا تعين على مثل التحديد والتقيد اللذين فى الكتابة . أو لعل هذه الاستطرادات الجزئية لم تكن سوى مظهر لعرض ثروته اللغوية ووسيلة إلى كشف ذخيرته منها . قلتُ : لكن العجيب من أمر أبى العلاء ، أن لم يفته قط ، ربط أى استطراد يرجع إلى ما كان فيه قبله ، ثم إنه فى عرض ذخيرته من علوم العربية والإسلام ، لم يكن يردد محفوظه منها سردًا ، بل تناول فى أماليه عليها بالغفران قضايا نقدية وتاريخية معلقة ومسائل مختلفًا فيها ، فأعاد عرضها استدراكًا منه لِفَوات ، أو تنبيهًا على وهم وخطأ وقصور .

* * *

وننتقل إلى الملحظ الآخر على نسق ترتيبه لمعانيه وآرائه فى « الغفران » ، وهو :

الشروح المعترضة :

وهذا يشبه أن يكون نوعًا من الاستطراد ، وكان من الممكن أن يُردَّ إليه ويُدمج فيه ، لولا أنه لازمه طول إملائه للرسالة ، حتى صار من حقه أن يُفرد بالنظر ، من حيث هو ظاهرة أسلوبية .

سبق فى الحديث عن تأثر « الغفران » بسوء الحياة الأدبية فى عصرها - كيف كان الوقوف عند المأخذ النقدى لشروح معترضة تجور على طمأنينة السياق وعلى الجمال الفنى فى مثل مشهد « أوس بن حجر » فى النار ، وكيف أفسده الشيخ بذكر « دَرِم » ،الذى هو - من بنى دب بن مرة بن ذهل بن شيبان - وكذلك فعل فى مشهد الحشر ، حيث كان يعترض بالشرح فى موقف كان جديرًا بأن يذهله عن كل شرح واستطراد .

قال على لسان ابن القارح يصف مجازه موقفَ الحشر : « لما نهضت أنتفض من الريم وحضرت حرصات القيامة - والحرصات مثل العرصات أبدلت الحاء من العين - ذكرت الآية : ﴿تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبرًا جميلاً﴾(١) . فطال علىَّ الأمد ، واشتد الظمأ والومد - والومد : شدة الحر وسكون الريح كما قال أخوكم النميرى :

كأن بيضَ نعام فى ملاحِفها جلاه طلّ وقيظ ليلُه وَمِدُ

وأنا رجل مهياف - أى سريع العطش - فافتكرت أمرًا لا قوام لمثلى به ،ولقينى الملك الحفيظ بما زُبر لى من فعل الخير ، فوجدت حسناتى قليلة كالنفأ فى العام الأرمل - والنفأ : الرياض ، والأرمل : قليل المطر - (ص ٢٤٨ - ٢٦٢) .

* * *

وهذا أوان ما وعدنا به ، من تحقيق الشبهة التى أثارها بعض المحدثين عن احتمال أن تكون هذه الشروح ليست من صلب المتن ، وأن « أبا العلاء » لم يُملها لتكتب فى رسالته إلى « ابن القارح » ، وإنما كان يشرح بها لتلاميذه الذين كانوا يجلسون إليه ويكتبون عنه ، ما يعرض له من مسائل لغوية ، أو يشرح لهم ما يظنه غامضًا على بعضهم ، فكتبها التلاميذ فى المتن ، ولم يكن مقصد « أبى العلاء » أن تكون فيه .

قال بهذا الاحتمال « أستاذنا مصطفى السقا » - رحمه الله - أثناء قراءتى عليه مخطوطات الغفران ، ولعل هذا هو ما دعا بعض النقلة إلى محاولة تخليص المتن من الشروح المعترضة فيه ، وإلحاقها حواشىَ بالهامش ، كالذى فى : « أوج التحرى عن حيثية أبى العلاء المعرى » ليوسف البديعى(٢) ، وهو كتاب جمع فيه نماذج شتى من الآثار العلائية ، جريًا على عادة عصره - القرن الحادى عشر - الذى عرف بأنه عصر الجماعين وواضعى المختصرات .

وفى هذا الكتاب ، قطعة طويلة من « الغفران » ، فى نحو ست عشرة صفحة من القطع الكبير ، تبدأ من صدر « الرسالة » إلى آخر قصة الحشر ، قد اقتطِعت منها الشروح المعترضة ،

(١) سورة المعارج الآية ٥ .

(٢) لم يرد هذا الكتاب فى (تعريف القدماء بآثار أبى العلاء) ، وقد نشره المعهد الفرنسى بدمشق عام ١٩٤٤م ، عن مخطوطة عثر عليها بالمكتبة الظاهرية .

وأضيف بعضُها بهامش هذه النسخة المطبوعة ، ولسنا ندرى أكانت هذه الشروح هوامش فى مخطوطة البديعي ، أم هى استخرجات من الناشر ، نقلها من « الغفران » وجعلها هوامش ، فيكون ذلك قولاً منه بأن هذه الشروح المعترضة ليست أصلاً من متن الغفران ، بل هى حواش أملاها .« أبو العلاء » على تلاميذه ولم يقصد أن يضعها فى رسالته إلى ابن القارح ؟

ولا أعتمد فى نقض هذا الاحتمال على الأصل العام وهو الثقة بالنص فى أصله المعتمد ، حتى يقوم ما ينفيه ، وأن تقرير إضافة الشروح ليس قائمًا على حجة أو دليل ، بل هو مجرد فرض .

كما لا أكتفى فى الرفض بما أقدر من إلف تلاميذ الشيخ لأسلوبه ، وقدرتهم على تمييز ما هو من المتن ، وما هو من الحواشي والتعليقات بما صح عندى من مراجعة الشيخ لما أملاه قبل أن يخرج من مجلسه .

وإنما أعتمد على استقراء أسلوب « أبى العلاء » فى آثاره بعامة ، وفى « الغفران » بوجه خاص :

١ – فقد جرى « أبو العلاء » على شرح ما يمليه ، إما مستقلاً كما فى كُتب الشروح المعروفة فى ثبت مؤلفاته ، من مثل منار القائف ، وخادم الرسائل ، وضوء السقط ، وراحة اللزوم[1] .

وإما فى ثنايا الحديث فصلاً ، كما فعل فى « الفصول والغايات » : يفسر كل فصل قبل رجع إلى ما كان فيه . وكما فعل فى « كتاب الألغاز »[2] ، يقول البيت أو الأبيات ملغزًا عن شىء ثم يفسره ويحل ألغازه على ما سبق بيانه .

٢ – وقد يقال إن أمر هذه الشروح المستقلة ، والتفسيرات التى فى « الفصول والغايات » ، و « كتاب الألغاز » ، ليس كهذا الذى نجده فى « الغفران » ، لأن الشيخ هناك يفسر ويشرح بعد أن يفرغ من الكتاب ، أو الفصل ، أو اللغز ، وأما هنا فى « الغفران » فتأتى الشروح معترضة فى ثنايا المتن . وهو قول ، على ضعفه ، لا نرده بأن الظاهرة الأسلوبية واحدة فى الحالين فحسب ، وإنما نلتمس كذلك من رسائل « أبى العلاء » الشبيهة « بالغفران » ، ثم ما فى « رسالة الغفران » نفسها ، ما يبعد الشبهة فى كون هذ الشروح أصلا فى المتن وليست حواشى إضافية مقحمة ، أو يشهد بأن الشيخ كان يقصد ، حين أملاها شارحًا معترضًا ، أن تسجل فى رسالته إلى « ابن القارح » .

(١) القائف كتاب ألفه أبو العلاء على معنى كليلة ودمنة ، والمنار شرح له . وخادم الرسائل شرح لغريب ما فى رسائله ، وضوء السقط شرح لسقط الزند ، وراحة اللزوم شرح لديوان اللزوميات .

(٢) ذكر ناشر كتاب (أوج التحرى) أن « البديعى » انفرد هنا بذكر (كتاب الألغاز) ، وقد رجحنا أن يكون هذا الكتاب ، هو (جامع الأوزان) الذى ذكره ياقوت ، والقفطى ، والذهبى ، وحاجى خليفة . ولنا فى تحقيق هذه المسألة بحث نشر بمجلة الكتاب عدد شهر يونية ١٩٤٨م .

ففى « رسالته إلى أبى الحسين أحمد بن عثمان النكتى البصرى » ، نراه يفسر ما يعرض له من مفردات أو أقوال فى ثنايا المتن ، بدليل أنه يصحبها بمثل قوله :

« وسيدى الشيخ ، قد علم ، أنه مشهور عند العرب » – ٦٦(١) .

« وقد رووا أخبارًا كثيرة ، لاشك أنه اطلع عليها » ٦٧ .

« وعلمه بذاك محيط » (ص ٧١) .

« أليست قد مرت به الحكاية » ؟ (ص ٧٥) .

« وقد مر به فى كتاب المجاز لأبى عبيدة قولُ الراجز » (٧٣) .

ولا تغيب هذه الظاهرة فى قصار رسائله ، إذ يختم رسالة لم تتجاوز ستة أسطر بقوله : « وعليه سلام لو كان يومًا لكان يوم عرفة ، أو شهرًا لكان ناتقًا – وهو رمضان » (١٢٨) .

والتمس مثل ذلك فى « الغفران » ،فسترى « أبا العلاء » كثيرًا ما يحرص – حين الشرح – على الاحتياط بمثل تلك العبارت التى ذكرنا .

يقول مثلاً : « فقد غُرس لمولاى الشيخ الجليل ..شجر فى الجنة لذيذ اجتناء ، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظل غاطٍ ، ليست فى الأعين كذات أنواط ، وذات أنواط – كما يَعْلَمُ – شجرة كانوا يعظمونها فى الجاهلية » – ص ١٤١ .

قوله « كما يعلم » هنا – والضمير لابن القارح – دليل على وجود الشرح فى أصل « الرسالة » الموجهة إليه .

ويقول حين استطرد إلى ذكر أبيات « لأبى الهندى » فى الخمر :« ولا ريب أنه – أى ابن القارح – يروى ديوانه ، وهو القائل ... » – ص ١٤٣ .

وينشد فى « الغفران » بيت « الأعشى » :

نبى يرى ما لا يرون وذكره　　　أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

ثم يعقب :« وهو : أى ابن القارح – أكمل الله زينة المحافل بحضوره – يعرف الأقوال فى هذا البيت ، وإنما أذكرها لأنه قد يجوز أن يقرأ هذا الهذيان ناشئ لم يبلغه ذاك : حكى « الفراء » وحده أغار فى معنى غار إذا أتى الغور ، وإذا صح هذا البيت للأعشى فلم يرد بالإغارة إلا ضد الإنجاد .ورُوِىَ عن الأصمعى روايتان :

إحداهما أن أغارَ فى معنى عَدَا عَدْوًا شديدًا ، وأنشد فى كتاب الأجناس :

فعَدِّ طِلابَها وتَسَلَّ عنهـــا　　　بناجيـةٍ إذا زُجـرت تُغِيرُ

---

(١) الأرقام المذيلة بها نقولنا هنا ، تشير إلى مواضع الفقرات ، فى (رسائل أبى العلاء) طبعة أكسفورد ، نشر مرجليوث .

والأخرى أنه كان يقدم ويؤخر فيقول :

* لَعَمْرِىَ غارَ فى البلاد وأنجدَا *

فيجيء به على الزحاف . وكان « سعيد بن مَسْعَدَة » ، يقول :

* غار لعمرى فى البلاد وأنجدا *

فيخرمه فى النصف الثانى ص ١٧٩ : ١٨٠[1] .

فهذا الشرح فى متن النص ، لم يمله « أبو العلاء » حاشية ، ولا كان يوجهه إلى تلاميذه وحدهم ، وإنما خاطب به « ابن القارح » محتاطًا عن مظنة جهله به بقوله : « وهو يعرف الأقوال فى هذا البيت » ، ومعتذرًا عن روايتها فى رسالته إليه بأنه « قد يجوز أن يقرأ هذا الهذيان ناشئ لم يبلغه » ما يعرف الشيخ من أقوال اللغويين فيه .

ومثله القسم الثانى من الغفران : « كم من شبل نافق أسدًا ..وضيغم نقم على فرهود ودَّ لو دفنه بالوهود – والفرهود : ولد الأسد بلغة أسد شنوءة – وهو : آنس الله الإقليم بقربه – أجلُّ من أن يُشْرَح له مثلُ ذلك ، وإنما أَفرَقُ من وقوع هذه الرسالة فى يد غلام مترعرع ، ليس إلى الفهم بمتسرع ، فتستعجم عليه اللفظة ، فيظل معها فى مثل القيد ، لا يقدر على العجل ولا الرويد – وكم خالبت الذئاب السُّلَقُ ، وفى الضمائر تكن الْفِلَقُ – أى الدَّوَاهى ، ومنه قول خَلَف :

* مَوْت الإمام فِلْقَةٌ من الفِلَقِ * ص٣٨٣

فهذا الشرح المعترض ، هو من المتن أصلا ، وقد قُصد به « ابن القارح » لاشك فى ذاك ، لأن الخطاب هنا له ،والاعتذار إليه ، والاحتياط معه ، إذ يقول له أبو العلاء : « وهو أجلُّ من أن يُشرَح له مثلُ ذلك ، وإنما أُفرق من وقوع هذه الرسالة فى يد غلام مترعرع .. » .

هى إذن ظاهرة من الظواهر الأسلوبية للغفران ، قلما تخطئها فى شروحه المعترضه ، وقد بلغ من ولع « أبى العلاء » بها ، أن ضحى فى سبيلها – كما فعل فى الاستطراد – بوحدة السياق ، ونسق الجمل ، وترتيب المعانى ، ليرضى رغبته فى استيفاء أماليه على ما يشرحه ..

* * *

صور التعبير والظواهر الأسلوبية :

فإذا جاوزنا مادة « الغفران » وترتيبها ، وفرغنا للنظر فى صور التعبير ، ألفينا أمامنا ظاهرتين من الظواهر الأسلوبية ، تشبهان أن تكونا جديدتين فى النثر العربى ، وإن كان الباحث لا يعييه أن يردهما إلى أصل بعيد .

---

(١) الأرقام هنا ، وفيما يلى ، تشير إلى مواضع الفقرات المستشهد بها ،من رسالة الغفران : ط ذخائر .

وتبدو هاتان الظاهرتان فى القسم الأول بوجه خاص . أولاهما :

الحديث على ألسنة الأحياء :

ذلك أن « أبا العلاء » اختار شخصية حقيقية معاصرة ، وأجرى على لسانها ما شاء من آراء وأقوال ، وأذاقها ما اشتهى من أشواق وأحلام .

كما اختار شخوص مسرحه ، من كبار الشعراء وأعلام العربية الذين عرفهم تاريخنا ، وكذلك الأمر فى الشخصيات الثانوية ، كالمغنين والمغنيات ، بل إن المشهد الذى عرضه على مسرح الغفران لروضة الحيَّات ، وأسد القاصرة وذئب الأسلمى ، كان الإخراج فيه قائمًا على تشخيص حيَّات ورد ذكرها فى الشعر العربى ، ووحوش تردد الحديث عنها فى كتب الحديث والسيرة .

وقد يُلتمس لهذه الظاهرة أصلٌ قديم بعيد ، عرفه العرب من قبل فى إنطاق الجماد والحيوان والجن على سبيل التمثيل والتخييل ، ولكنه لم يبد فى صورته الكاملة إلا حين نقل « ابن المقفع » إلى العربية « كليلة ودمنة » فى القرن الثانى ، وفيه يجرى « بيدبا الفيلسوف » حِكمه وآراءه الفلسفية ، على ألسنة الوحش والبهائم والطير .

وإلى هذا الأصل القديم ، يُرد صنيع الكتاب فى القرون التالية ، حين اختاروا شخصيات خيالية ينطقونها بما شاءوا ،ولم يجاوزوا فى أول الأمر مرحلة التقليد والمعارضة كما فعل « سهل بن هارون » [(١)] فى كتاب « النمر والثعلب » الذى ذكره « ابن شرف القيروانى »[(٢)] ولم أطلع عليه .

لكنهم لم يلبثوا أن تفننوا فيه وزادوا عليه ، فلم يكد القرن الرابع يهل حتى ظهر ذلك الأسلوب فى المشرق والمغرب ، يحمل آثار قرنين من التجويد والإنضاج : فرأينا « بديع الزمان » يختار من خياله شخصية « عيسى بن هشام » لمقاماته المعروفة ، و « ابن شرف القيروانى » يلقى أحكامه النقدية فى « رسالة الانتقاد » على لسان « أبى الريان الصلت بن السكن » و « أبا عامر بن شهيد القرطبى » يختار من عالم الجن « زهير بن نمير » لرحلته به فى « التوابع والزوابع » .

وألقى « أبو العلاء » دلوه مع هذه الدلاء ، فصنف « الصاهل والشاحج »[(٣)] على لسان فرس وبغل ، « والقائف » على معنى « كليلة ودمنة » ، لكنه فى الغفران يدع الحيوان ، والجن ، والشخصيات الخيالية أو القديمة ، ويختار « ابنَ القارح » — وهو أديب معاصر له —

---

(١) أبو عمر ، سهل بن هارون : فارسى الأصل ، انتقل إلى البصرة واتصل بالمأمون ، فولاه خزانة الحكمة ببغداد ، وكان حكيمًا شاعرًا شعوبى المذهب ، شديد التعصب على العرب .

(٢) رسالة الانتقاد : (رسائل البلغاء) ص ٢٤١ — ط القاهرة سنة ١٩١٣م .

(٣) حققت نصه عن أصلين من ذخائر تراثنا بالمغرب ، ونشرته دار المعارف بالقاهرة فى طبعتين فى سلسلة الذخائر ، ويأتى مبحث عنه فيما يلى من دراسات مقارنة بالغفران .

وينطقه بما لم ينطق به ، لا على سبيل الوضع والحكاية كما كان الشأن فى الحكايات المروية عن الأعراب فى الأمالى والدروس اللغوية « لابن دريد والأصمعى » ، ولا على سبيل الهجاء كما فعل « الجاحظ » فى « التربيع والتدوير » وإنما ليؤدى عنه آراءه التى طافت بفكره وهو يدرس شعر الأقدمين ويتتبع أقوال اللغويين ، كما اختار من بين الشعراء واللغويين أنفسهم من ينطق بلسانه ، ويناقش عنه ، ويجادل ويحاور ، ويحكم .

وتلك جديدة من « أبى العلاء » أو هو أسلوب جديد فى العرض أنضج فيه « أبو العلاء » طريقة الأولين وأظهرها فى نمط مبتكر هو :

التشخيص والتمثيل :

أراد إحضار مشاهد العالم الآخر واقعًا مشخصًا ، فكان مما يلائمه اختيار شخوص حقيقية تؤدى أدوارها على المسرح ، مبالغة منه فى إبرازها وعليها سمة الواقع . ونرجىء الحديث عن أسلوب الإخراج التمثيلى الذى ابتكره أبو العلاء فى إحضار عالمه الآخر ، إلى موضعه من الفصل الخاص بالغفران بين فنون النثر العربى .

وتقتصر هنا على نماذج من تشخيصه للمعانى والأفكار ، وتجسيمه للرؤى والهواجس والأحلام ، لا نعنى بهذا التشخيص والتجسيم ما نراه من بث الحياة فى الألفاظ ، والحروف ، وجعلها أشباح نور تستغفر « لابن القارح » وتعرج إلى السماء (ص ١٤٠)[1] ، فذلك ومثله يشبه ما تردد فى البيئة الإسلامية من مثل ذلك ، وما جاء به القرآن الكريم : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾* .

كذلك لا نعنى هنا تشخيص « أبى العلاء » للطير والثمر ، وإخراجه منها شخوصًا آدمية فردوسية ، كما فعل فى الحُور اللواتى انتفضن من الإوز (ص ٢١٢) ، والأخريات اللواتى خرجن من ثمر الجنة (ص ٢٨٨) ، وتلك التى أوشكت أن تخرج من الحية لو شاء « ابن القارح » (٣٧٠) ، فذلك – كما سنذكر بعد – صياغة علائية لأساطير عرفها العرب قبل « أبى العلاء » .

الذى نعنيه ، هو تشخيص أبى العلاء لعالمه الآخر ، على نحو تمثيلى أقرب ما يكون إلى الإخراج المسرحى ، حيث تتتابع المشاهد مجسمة ممثلة وتتعاقب الشخوص المسرحية لأداء دورها ، على ما سوف نجلوه فى فصل « الغفران فى النثر العربى » وأكتفى هنا بإيراد نماذج شارحة لطريقة أبى العلاء فى التشخيص والإخراج ، كذلك الذى نراه فى صورة « صخر » والنار تضطرم فى رأسه ، تمثيلاً لقول « الخنساء » فيه :

« كأنه علم فى رأسه نار » – ص ٣٠٨

---

(١) من الطبعة الرابعة لرسالة الغفران وما تلاها من طبعات الذخائر .

(*) سورة فاطر الآية ١٠ .

ومثل إحضاره أبا ذؤيب الهذلى فى الجنة ، وبين يديه ناقة عائذ مُطفِل ، يحتلبها ويمزج حليبها بشوبٍ من ماء الجنة ، وبعسل يجتنيه من خليةِ جوهر ، نراها فى الصورة حاضرة ماثلة ، فذلك تشخيص لقول « أبى ذؤيب » فى الدهر الأول :

وإن حديثًا منكِ لو تعلمينه جَنَى النحل فى ألبان عُوذٍ مَطافِلِ
مطافيلَ أبكارٍ حديثٍ نِتاجُها تُشابُ بماءٍ مثل ماء المفاصِلِ

(ص ١٩٩)

ومثل تشخيص « أبى العلاء » ليوم « دارة جلجل » ، وتصويره « ابن القارح » تتبعه جارية بين كثب العنبر وأنقاء المسك ، تمثيلاً لقول أمرئ القيس :

فقمتُ بها أمشى تَجُرُّ وراءنا على أثرينا ذيلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

(ص ٣٧٣)

ومثل تلك البيوت الثلاثة التى لم يُرَ فى الجنة نظيرها بهاء وحسنًا ، و« لبيد » الشاعر عندها يسأل « ابن القارح » إن كان يعرفها ؟ فيجيب : « لا والذى حجّت القبائل كعبته » ، فيقول لبيد : «

أما **الأول** فقولى :

« إن تقوى ربنا خير نفل »

وأما **الثانى** فقولى :

« أحمـــد الله فلا نِدَّ له »

وأما **الثالث** فقولى :

« مَنْ هداه سُبل الخيرِ اهتَدى »

صَيَّرَها ربى اللطيف الخبير أبياتًا فى الجنة ، أسكنها أخرى الأبد » (ص ٢٦٧)(١) .

ويعرض لابن القارح الشوق إلى نظر سحاب كالسحاب الذى وصفه أوس بن حجر ، أو عبيد بن الأبرص ، فى قوله :

« إنى أرقت ولم تأرق معى صاحِ لِمُسْتَكِفٍّ بُعَيْدَ النـــوم لَمَّاحِ

فينشئ الله – تعالت آلاؤه – سحابة كأحسن ما يكون من السحب .. » (٢٧٦).

ومن هذا التشخيص فى القسم الثانى من الغفران ، ذلك المأتم الذى أقامته قصائد « أبى تمام » على صاحبها ، وقد جاء بهن « أبو العلاء » نائحات نادبات متشحات بالسواد ، وبعث إليهن قصائد أخريات للتعزية والمعونة والمواساة ، حتى اجتمع فى مأتم القصائد ما لم يجتمع مثله فى جنازة « الإمام أحمد بن حنبل » (ص ٤٨٤ : ٤٨٩) .

(١) نقلنا هذا التشخيص فى الفصل التالى عن : جنة الغفران والجحيم .

هذا الأسلوب فى الأداء ، قد عمل فيه الخيال عمله حتى مثل أمامنا مجسمًا على نمط جديد فريد . وله نظائر فى فن « أبى العلاء » فى « الفصول والغايات » ، حيث رأيناه يستعير الألفاظ والصور من الشعر القديم ، ويشخصها بمثل هذا العرض التمثيلى المبتكر . فى الفصول التى صور بها مصارع الوحش (٩ : ١١) .

الصياغة والصناعة :

فإذا مضيت إلى الأسلوب من حيث صياغة الجمل وصناعة العبارات ،لم تجد جديدًا عند « أبى العلاء » ، ولم يشق عليك أن تردَّ كل ظاهرة فيه إلى أصل لها سابق ، ذلك لأن العصر الأدبى لأبى العلاء كان امتدادًا طبيعيًّا للعصر الذى سبقه ، فلم تكد « رسالة الغفران » تنفرد بنوع معين من فنون الصياغة اللفظية للجمل ، وإن تميزت بالمضى فى هذه الفنون إلى أقصى المدى المستطاع .

فلقد أسرف فى اصطناع الزخرف اللفظى ، وتكلف فى صناعة الجمل الموشاة بصنوف من البديع كالسجع ، والجناس ، والمطابقة ، والإلغاز ، والتورية ... وهى فنون سبقت عصره بكثير ، واتخذها من قبله من الشعراء والكتاب مذهبًا وصناعة ، وكانت هى الطريقة السائدة منذ غلب مذهب التكلف فى المشرق والمغرب .

قال « أبو عامر بن شهيد الأندلسى » : (وكما أن لكل مقام مقالاً ، فكذلك لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة ، وضرب من البلاغة لا يوافقها غيره ، ولا تهش لسواه .. فكل شعر لا يكون اليوم تجنيسًا أو ما يشبهه ، تمجّه الآذان ... »[1]) .

فأبو العلاء فى « الغفران » كان يجارى الفن الشائع فى عصره ، ويحرص على إظهار براعته فيه ، ماضيًا به ملء عنانه إلى أقصى مداه .

إنه يسرف فى تلاعبه بالألفاظ تلاعب المتمكن منها ، المتحكم فيها ، القادر عليها ؛ وأول ما يظهر هذا ، فى تلك المقدمة الطويلة (١٢٩ : ١٣٩) التى بدأ بها رسالته إلى ابن القارح ، متفننًا فى ذكر أسماء القلب تفنن المقتدر المدلّ ، وترى مثل هذا فى حديثه بعدُ عن حجج ابن القارح ، وعن توبته ،وعن دنانيره الثلاثة والثمانين التى سرقتها بنت أخته ... كما لا يكاد يدع وسيلة للتفنن بهذه الألفاظ إلا جاء بها .

وسوف نعرض فى الفصل الخاص بمقدمة الغفران ، شواهد تمثل صياغة أبى العلاء للجُمل والعبارات ، بكل خصائصها اللفظية من سجع وازدواج ، وجناس ، وتورية والغاز ، وشرح واستطراد .. وهى الخصائص التى تظل تلقانا من مقدمة الرسالة إلى آخر فقرة منها .

(١) فى (رسالة الزوابع والتوابع) الذخيرة لابن بسام : ص ٢٠٣ – ط جامعة القاهرة .

وما من شك في أن تمرن « أبي العلاء » على الصنعة ، مع ثروته اللغوية النادرة ، قد أعان في أكثر مواضع (الغفران) على تسوية الصنعة اللفظية دون إكراه واضح أو تكلف مسرف ، ولكن التوفيق يخونه أحيانًا ، فيبنى الجمل بناء قلقًا تحس فيه التعنت ، وتشعر أن الألفاظ مكرهة على البقاء في أماكنها لتسوية الصنعة وأداء حقها .

ذلك مثل قوله : « وقد وُفِّق أبو الفرج وولدُه ، وصار كاللُّجةِ ثمدُه ، لما درس عليه الكتب ، وحفظ عنه ما يكون الترتب » (ص ٤٠٥) .

« ورب نازل من أهل الأدب في خان ، ليس بالخائن ولا المستخان ، يخدمه صبى هو من الرق حر ، وفي خدمته السرقُ والضرّ ، إذا أرسله بالبتك – بنات الدرهم – ليأتيه بالبطيخة ، حين يكثر البطيخُ ويتيح ، سِعْرَه المشتعلَ متيح » (ص ٥٠٦) .

فقد جارت الصنعة على النظم ، وفصل بين المسند والمسند إليه ، ليقيم تلك السجعة النابية .

* * *

هل كان أدباء ذلك العصر لا يحسون هذا ؟ بلى قد كان منهم من يحسه وينكره ويضيق به ، ويعترف بأنه يعانيه على كره ومضض ، وقد كتب « داعى الدعاة » يطلب إلى « أبي العلاء » يسأله أن يعفيه من الأسجاع ولزوم ما لا يلزم ، فإن ملتمسه المعاني لا الألفاظ[1] .

وددت أن أعلم بم دافع « أبو العلاء » عن هذا ، لكن « ياقوت » اكتفى بقوله ، عقب ذكر رسالة داعى الدعاة :

« ثم اعتذر عن السجع بأخبار أوردها ، واحتجاجات ذكرها »[2] .

على أن لدينا من ذلك العصر ، من يشهد بضيق الكتّاب المبدعين بما كانوا يعانون من هذا التكلف ، كالذى في حوار « أبي عامر بن شهيد» مع « عتبة بن أرقم : صاحب الجاحظ ، حين لقيه في رحلته وادى الجن ، وسمع نثره فقال له :« إنك لخطيب ، وحائك للكلام مجيد ، لولا أنك مُغرًى بالسجع ، فكلامك نظم لا نثر » . فأجابه « ابن شهيد » : « ليس هذا –أعزك الله– منى جهلاً بأمر السجع ، ولكنى عَدِمتُ بيلدى فرسان الكلام ، ودُهِيتُ بغباوة أهل الزمان ، وبِالحرًا أن أحركهم بالازدواج .. » . قال « عتبة » : « أهذا على تلك المناظر ، وكِبر تلك المحابر ، وكمال تلك الطيالس؟ » قال: « أبو عامر » : نعم ، إنها لحاء الشجر وليس ثَم ثمر ولا عبق . فسأله : فكيف كلامهم بينهم ؟ قال « أبو عامر » : ليس لسيبويه فيه عمل ، ولا للفراهيدى إليه طريق ، ولا للبيان عليه سِمَة. إنما هى لكنه أعجمية يؤدون بها المعانى تأدية

(١) رسائل داعى الدعاة – انظر معجم ياقوت : ٣ ص ١٩٤ ، ط دار المأمون .

(٢) المصدر نفسه ، ٢٠٢ .

المجوس والنبط .فصاح « عتبة » : إنا لله ، ذهبت العرب وكلامها ! ارمهم يا هذا بسجع الكهان ، فعسى أن ينفعك عندهم ، ويُطِيرَ لك ذكرًا فيهم » (١) .

وقد فعل « ابن شهيد » .

وكذلك فعل « أبو العلاء » ، وفعل غيرهما من كتاب العصر .. رموا قومهم بسجع الكهان ليطير لهم ذكرًا فيهم ، وإن كان منهم الكاره لما تكلف . ولعل « المستشرق الهولندى دى بور » لو سمع هذا الدفاع لخفف من قسوته على « أبى العلاء » فى إنكار ذلك (القالب الذى صيغت فيه آراء أبى العلاء بما فيه من تكلف ، وما يغلب عليه من ابتذال)(٢).

* * *

ذلك لا يمنع أن نميز فى « الغفران » جُملا وفقراتٍ وفصولاً يلقيها « أبو العلاء » فى يسر واسترسال ، لا يلتزم فيها قيود الصنعة اللفظية ، ولا يكترث لتسجيع أو تجنيس ، وهى ملاحظة لَفَتَ إليها أستاذنا العميد « الدكتور طه حسين » حين قسم نثر « أبى العلاء » بوجه عام إلى قسمين :

« أحدهما ما يذهب فيه مذهب الإنشاء والتنميق ، وهذا لابد فيه من السجع والغريب ، والآخر ما يذهب فيه مذهب القصص التاريخى أو العلمى ، وهذا يقل فيه السجع والغريب»(٣) .

وهى ملاحظة تصدق على نثر الغفران جملة . وأما التفصيل فقد يمنع إطلاقه ، حيث يقول بوجه عام : « فأما ما كان من وصف الجنة ونعيمها ، أو النار وجحيمها ، فالسجع فيه لازم ، والغريب فيه موفور ، وأما ما وصف به الزنادقة ، فسهل مرسل ، يسيغه السمع ، ولا ينبو عنه الطبع » (٤) .

وقد أرى أن الأحاديث المرسلة تكثر فى القسم الأول من « الغفران » ، حيث الحوار مع الموعودين بالجنة . وتعليل هذا واضح نذكره عن قريب – على حين يغلب على القسم الثانى طابع الصنعة ، وتسوده روح التكلف . ولم يَخْلُ الزنادقة من النبو والغلو فى ترصيع الكلام بمختلف أنواع السجع والجناس ، والمطابقة والجمع والازدواج ...

وأقدم من القسم الأول ، مثلا أو مثلين ، شاهدًا لنثر أبى العلاء باليسر والجزالة دون تكلف أو إغراب :

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ١/ ٢٢٩ .

(٢) تاريخ الفلسفة فى الإسلام – الترجمة العربية – ص ٧٧ .

(٣) تجديد ذكرى أبى العلاء : ص ٣٣٤ – ط الثانية .

(٤) تجديد ذكرى أبى العلاء : ص ٢٣٤ – ط الثانية .

ذلك بعض حديثه فى المنافرة التى شبَّها بين « الأعشى والجعدى » ، حيث يقول « النابغة » لأبى بصير :

(... ولقد وفَّقت الهِزَّانية فى تخليتك ، عاشرتْ منك النابحَ ،عَشِيَ فطاف الأحوية على العظام المنتبذة ، وحرص على انتبات الأجداث المنفردة » ، فيغضب « أبو بصير » ويقول فيما يقول :

(.. ولكنك خُلِقتَ جبانًا هدانا ، لا تدلج فى الظلماء الداجية ، ولا تهجرّ فى الوديعة الصاخدة ، وذكرتَ لى طلاق الهِزانية ، ولعلها بانتْ عنى مُسِرَّة الكمد ، والطلاق ليس بمنكرٍ للسُّوَقِ ولا للملوك .

« فيقول الجعدى : اسكتْ يا ضُلَّ بنَ ضُلٍ .. واستقللتَ ببنى جعدة ، ولَيومٌ من أيامهم يرجح بمساعى قومِك . وزعمتَنى جبانًا وكذبتَ ، لأنا أشجع منك ومن أبيك ، وأصبر على إدلاج المظلمة ذات الأريز ، وأشد إيغالاً فى الهاجرة أُمِّ الصَّخَدَانِ » (ص ٢٢٧ : ٢٣١) .

لا سجع ولا تكلف ولا قلق ، بل العبارة الجَزلة ، والسياق المطمئن ، كذلك النظم على لسان « أبى هدرش » شيخ الجن :

« ولقد لقيتُ من بنى آدم شرًّا ، ولقوا منى كذلك : دخلتُ مرةً دارَ أناسٍ أريد أن أصرعَ فتاة لهم ، فتصورتُ فى صورة عضل – أى جرذ – فدعوا لى الضياوِن ، فلما أرهقتنى تحولتُ صِلاً أرقم ، ودخلتُ فى قطيل هناك ، فلما علموا ذلك كشفوه عنى ، فلما خفتُ القتلَ صرت ريحًا هفافة ، فلحقت بالروافد ، ونقضوا تلك الخشبَ والأجذال فلم يــروا شيئًا . فجعلوا يَتَفَكَّنون ويقولون : ليس هاهنا مكان يمكن أن يستتر فيه ، فبينا هم يتذاكرون ذلك ، عمدت لكعابهم فى الكِلة ، فلما رأتنى أصابها الصرع ، واجتمع أهلها من كل أوب ، وجمعـوا لهـا الرقــاة ، وجاءوا بالأطِبة وبذلوا المُنْفِسَات ، فما ترك راقٍ رُقيــة إلا عرضها علىّ وأنـا لا أجيب . وغبرت الأساةُ تسقيها الأشفية وأنا سَدِكٌ بها لا أزول . فلما أصابها الحمامُ ، طلبتُ لى سواها صاحبةً ، ثم كذلك ، حتى رزَق الله الإنابـة وأثاب الجزيل ، فلا أفتأ لـه من الحـامدين » – (٢٩٣ : ٢٩٤) .

مثل هذا فى « الغفران » مع ما سقنا إليه من عباراتها المسجوعة ، ونَظْمها المتكلف ، قد يحمل على اضطراب أسلوب « الشيخ » ، لكن القراءة المتأنية للغفران تنفيه .

فأبو العلاء فى الغفران ، كان يتنقل بين عوالم متباينة ، ويُجرى حوارًا على ألسنة شعراء وعلماء اختلفت أساليبهم وتباعدت عصورهم : فثم أحاديث طوال بين « ابن القارح » – وهو حينئذ فى القرن الخامس – وبين شعراء الجاهلية ، والإسلام . وثَمَّ محاورات أدبية بينه وبين لغويين من القرنين الثانى والثالث ، وثَم منافرة يثيرها بين الأعشى والجعدى ، وهما مخضرمان أدركا الإسلام ، وأخرى بين المازنى والأصمعى ، من أخريات القرن الثانى وأوائل الثالث .

وثَم معركة أدبية بين عدَد من الشعراء والرجّاز من عصر الاستشهاد اللغوى ، وبين « أبى على الفارسى » من القرن الرابع ، وثانية بين « ابن القارح » وبين رُجّازٍ من القرن الأول .

وأخريات من أحاديث الجنّ والحيات ، والوحش ، والطير ، والحور ...

فلو أن « أبا العلاء » تنقّل بين هذه العوالم المتباينة لشخوص متفاوتة ، فى تلك الأزمنة المتباعدةُ ، بصيغة واحدة وطابع ثابت وأسلوب موحد ، لكان ذلك خطأً فنيًّا لا يُعتذر عنه ، إذ لابد من أن يُنطِق كلا من هؤلاء ، بما يجوز أن ينطق به مثله . وقد كان وُضّاع الأحاديث ، ومزورو المرويات ، ومنتحلو الشعر ومقلدو الأعراب البداة ، يحرصون على تقليد أسلوب مَن يقلدونه ، أو ما ينسبون إليه ويتقولون عليه ، لتجوز نسبة الأقاويل المنتحلة أو المقلدة إليه .

و « أبو العلاء » هنا حريص على أن يخيل إليك – أو إلى نفسه – أن ما ترى وما تسمع فى رحلته إلى العالم الآخر ، حقيقة ماثلة ، ومن هنا اصطنع ما سميناه « فن التشخيص » ، واختار لدور البطل فى رحلته شخصية حقيقية معاصرة هى شخصية « ابن القارح » ، وجاء بأحاديثه متباينة تبعًا لتباين مَن يجريها على ألسنتهم .

فإن أنكر ناقد ما فى قصة « الغفران » من تباين الصيغ واختلاف الأساليب ، فليذكر أن هذا من « أبى العلاء » دليلُ براعة ، وسلامة الذوق الأدبى ، وإننا لندين لمثل هذا التصرف بتلك الأريحية الفنية التى نحس معها ، ونحن نشهد صور الغفـران ، أنها حقًّا من عالمه الآخر .

* * *

٢ - المعالم الكبرى للنص

- مقدمة الغفران :
- القسم الأول : الرحلة بابن القارح إلى العالم الآخر .
- القسم الثانى : الرد على رسالة ابن القارح .

مقدمة الغفران

أطيل الوقوف هنا عند مقدمة الغفران التى فاتنى فى دراستى الأولى للنص ، التنبه إلى ماتعطيه من الخصائص الأسلوبية للرسالة ، والالتفات فيها إلى مقدمةٍ مسرحية تمهد لظهور شخص ابن القارح فى رحلته إلى العالم الآخر .

* * *

والمقدمة هى مفتتح الرسالة وديباجتها ومدخلها ، وظاهر الأمر فيها أنها ، على طولها المسرف ، تحية إخوانية من أبى العلاء لابن القارح ، يعرب فيها عن مودة مشتاق للقاء صاحبٍ حميم ، أو قد تبدو إملاء من أمالى أبى العلاء اللغوية موضوعه القلب ، تفنن فيه فى عرض محفوظه من الألفاظ والشواهد من الشعر ، تفنن المتمكن منها القادر عليها ، وهو يصطنع فى طريقة عرضها فن الإلغاز البديعى ، لما اختار من ألفاظ الحماطة ، والحضب ، والأسود ..

فمضى يصف لابن القارح ، ما يجده فى قلبه من حماطة ، شوقًا إليه ، وما يضمره حِضْبُه من محبته ، وما يطويه أسودُه من إعظامه .

ملغزًا بالحماطة ، وهى شجر تألفه الحيَّات ، عن حرقة القلب .

وملغزًا عن حبة القلب ، بالحِضبْ الذى هو الضخم من ذكور الحيَات .

وملغزًا بالأسود ، عن سويداء القلب .

ومستطردًا فى ثنايا ذلك كله ، إلى ماتدعو إليه أدنى مناسبة من لفظ أو معنى أو شاهد ، من المشتركات اللغوية للحماطة والحضب والأسود ، وإنشاد الأشعار المفسرة لإلغازه ، وجمع الأعلام الذين جاء لفظ السواد فى أسمائهم أو كناهم أو ألقابهم ، مثل سودان العرب وأغربتهم : عنترة ، والسلَيك ، وخُفَافُ ، وسُحَيم ، ونُصيب ، والأساودة : ابن المنذر ، وابن مَعْديكرب ، وابن يعفر وابن زمعة ، وابن عبد يغوث ؛ والأسودين اللذين ذكرهما الحارث بن حلزة فى معلقته ؛ وأسودان الذى هو نبهان بن عمرو الطائى ؛ وأبى الأسود الدؤلى ، وسويد بن أبى كاهل ، وابن الصامت ، وابن صُميع ؛ وسودة بنت زمعة – أم المؤمنين رضى الله عنها – وسوادة بن عدى ..

* * *

وهذه المقدمة ، تهيئنا بادئ ذى بدء لإلف أسلوب أبى العلاء ، ولمح خصائصه المميزة فى الصياغة .

ففيها هذا الولع بالأمالى اللغوية والأدبية ، فيما أملى من فصلٍ عن القلب .

وفيها ظاهرة الاستطراد إلى الشروح المعترضة ، التى لازمت أبا العلاء طول إملائه للرسالة .

وفيها شواهد على أن هذه الشروح المعترضة ونظائرها ، من أصل المتن ، وليست شروحًا لتلاميذ أبى العلاء لم يقصد إلى إدراجها فى متن رسالته إلى ابن القارح ، فمن الشروح المعترضة فى سياق استطراده من ذِكر الحضب الذى هو ضرب من الحيات ، إلى الشرح المفسر للإلغاز فيه ، قوله خطابًا لابن القارح :

« وقد علم – أدام الله جمال البراعة بسلامته – أن الحضب ضرب من الحيات ، وأنه يقال لحبة القلب حضب » .

مما يؤكد أن الشرح الاستطرادى المعترض ، من أصل المتن .

ومن ظواهر الصياغة اللفظية فى المقدمة ، إسراف أبى العلاء فى اصطناع الزخرف البديعى ، فى هذه الجمل الموشاة بالسجع والجناس والطباق والتورية والإلغاز ، مجاراة لأسلوب عصره ، وإعلانًا عن قدرته عليه وبراعته فيه . بل إن المقدمة كلها ، فى صياغتها اللفظية ، تقدم محاولة بارعة فى فن الإلغاز البديعى ، يلغز عن حرقة الشوق بالحماطة ، ثم يحل اللغز بما يصرفها عن دلالتها على الشجر الذى تألفه الحيات ، ويلغز عن حبة القلب بالحضب الذى هو ذَكَر الحيات ، ثم يحل اللغز بنفى صفات الحيات عن حضبه .

وقد نعد من الظواهر الأسلوبية فى المقدمة – مما سوف يطرد إلى آخر الرسالة – تلك الجمل الدعائية المعترضة التى توجه سياق الحديث إلى ابن القارح وعنه . وأبو العلاء يتفنن فى هذه الجمل الدعائية اتقاء تكرار جملة منها ، وقد أسعفه على ذلك ثروة لغوية نادرة ، واستجابة الألفاظ له فى مرونة وطواعية . وهو بهذه الجمل الدعائية ، قد ميز بمهارة فنية ، أن الحديث موجّه إلى ابن القارح أو عنه ، متخلصًا بمثل ذلك من اختلاط عَوْدِ الضمائر فى سياق العبارات ، وفى المقدمة من الجُمَل الدعائية :

- كبت الله عدوه ، وأدام رواحه إلى الفضل وغدوه .
- ثبّت الله أركان العلم بحياته .
- أدام الله جمال البراعة بسلامته .

ثم تمضى الرسالة فلا تكاد فقرة منها تخلو من جملة دعائية ، توجِّه إلى أن الحديث عن ابن القارح أو إليه ؛ وهذا من مفاتيح فهم النص .

* * *

كذلك توجّهنا المقدمة ، إلى حرص أبى العلاء على شرح الغريب من ألفاظه ، وتفسير المبهم منها . وهذه أيضًا من الخصائص العلائية ، لا فى رسالة الغفران وحدها ، ولكن فى أكثر

ما لدينا من آثاره . وقد أشرنا فى نفى دعوى الغموض عن أسلوب الغفران . إلى ما فى المكتبة العلائية من شروح مفسرة لعدد من كتبه ، ومنها ما يستقل الشرح فيه بكتاب مفرد ، كمنار القائف وضوء السقط ، أو فى أكثر من كتاب ، كاللزوميات التى أملى عليها أبو العلاء أربعة كتب شارحة : زجر النابح ، وبحر الزجر ، والراحلة ، وراحة اللزوم .

وقد تأتى الشروح مع المتن ، تعقيبًا على كل فصل منه ، شعرًا أو نثرًا ، كصنيعه فى كتاب الألغاز ، والفصول والغايات .

أو فى ثنايا المتن ، كما فى رسالة الغفران .

واستقراء هذه الظاهرة فى آثار أبى العلاء ، هو الذى وجّه إلى دفع دعوى الغموض فى الرسالة ، ونقض ما قيل عن [عَمْدِهِ إلى الإلغاز ، ليضع طلاسم وأرصادًا تحجب عنا خَفِيَّ سرِّه وتخفى باطن أمره] !

* * *

والمقدمة تأخذ فى ظاهرها ، صورةَ إملاءٍ لغوى أدبى ، وشكلَ استهلالٍ بالتحية لرسالة إخوانية .

لكن وراء هذا الظاهر القريب ، دلالاتٍ خَفِيَتْ علينا وغابت عنّا من قبل .

وإذا لم أطِل الوقوف عند قوله فى مستهل المقدمة : « اللهم يسِّرْ وأعِنْ » بما تشير إليه من حالة نفسية لأبى العلاء فى هذا الطور من حياته ، حيث سيطر عليه شعوره بمشقة عبء الدنيا ، وإحساسه بالحاجة إلى التيسير والمعونة يلتمسهما من الله عزّ وجلّ .

ولم نقف كذلك عند قوله فى المقدمة : « إن فى مسكنى حماطة .. وإن فى طمرى لحضبًا .. وإن فى منزلى لأسود .. » حيث يكنى بالمسكن والمنزل عن جسده ، شعورًا منه بأن الدنيا حوله ضاقت به فى محنة عزلته وعماه ، فما له من مسكن أو منزل سوى هذا الجسد الهزيل المتعب ، والطمر الخلِق البالى .

أقول : إذا لم نقف طويلاً عند هذا ومثله ، فيجب أن نطيل الوقوف عند اختياره الغريب لألفاظ الحماطة والحِضب والأسود ، وكل سواد ، فى تحية أبى العلاء لابن القارح والتعبير عمّا يطوى له من مودة .

وإذا كان أبو العلاء قد بادر بحلّ الإلغاز فيها بما يصرفها عن دلالتها الأصلية المعجمية على شجر الحماط الذى تألفه الحيات ، وعلى خبيث الثعابين ، والذكر الضخم منها ، فمن الواضح أنه ركز اهتمامًا خاصًّا على هذه الدلالة الثعبانية ، وأغرق تحيته فى السواد .

ولا يمكن أن تأتى مثل هذه المقدمة عبثًا ..

ولا من الهين أن نتصور أديبًا يرد على رسالة إخوانية تلقاها من أديب حلبى ، فيلقاه بتحية

موَشحة بالسواد ، مشحونة بأنفاس الحيات بمختلف ضروبها وأنواعها ، وحماطتها وسُمِّها وتلويها وتقبضها ، وظهورها واختفائها !

كلا .. ليس هذا بمألوفٍ في التعبير عن المودة والاستهلال بالتحية ، ولا عهد لنا بمثله فى تراث الأدب العربى من الرسائل الإخوانية .. القصار أو الطوال التى تجرى مجرى الكتب المصنفة .

وسرّ المقدمة لا ينجلى إلا إذا ربطناها بعصر أبى العلاء ومحنته به ، وفهمناها فى ضوء شخصية ابن القارح ، كما تبدو من رسالته ، فينحل اللغز الكبير ، لغز إيراد مثل هذه المقدمة الثعبانية السوداء فى مستهل رسالة الغفران .

لقد تمثل أبو العلاء – وهو يصغى إلى رسالة ابن القارح بما تنضح به من شر وخبث ونفاق – الثعابين والحيات بتلونها وتلويها ونعومتها السامة ، فجاءت تحيته الرمزية ، استهلالاً تلقائيًّا لرسالته إلى الرجل الذى قال عنه عندما ذُكِرَ له : « أعرفه خبرًا .. هذا الذى هجا أبا القاسم ابن المغربى » .

* * *

وفى القسم الثانى من الغفران ، يستهل أبو العلاء رده على ماجاء فى رسالة ابن القارح ، بفصل مثير عن النفاق ، تعليقًا على قول ابن القارح فى مستهل رسالته ، يدعو لأبى العلاء : « جعلنى الله فداءه ! » .

القسم الأول

الرحلة بابن القارح إلى العالم الآخر

(جنة الغفران) :

موضوع الحياة الآخرة ، صادق الدلالة على النفس البشرية فى عواطفها وأهوائها ، وطموحها وأشواقها ، وهمومها وهواجسها ، وأحلامها ورؤاها . لكنه ليس بحيث يدرس على هامش دراستنا للغفران ، وهو من الدقة والخصب والسعة بحيث يحتاج إلى الدرس المتخصص ، يفرغ له الدارس ليرى كيف تمثلت الإنسانية عالمها الآخر تفسيرًا لما جاءها به الرسل عليهم السلام ، وكيف مثلته فى مختلف عصورها وشتى أطوارها .

الذى احتاج إليه هنا إشارة خاصة إلى الحياة الآخرة التى يُظَن أن صاحب « الغفران » قد ذكرها أو استحضرها وهو يتمثل عَالَمَه البعيد ، مؤثرين الصورة الإسلامية بوافر من عنايتنا لما نرى من تأثره القريب بها فى تمثل حياته الآخرة .

* * *

فى « الغفران » ملامح واضحة من الجنة الإسلامية لا نتردد فى القول بأنها لم تكد تغيب عن « أبى العلاء » .

وأنبه هنا على لبْسٍ قد يوهم أننى أعنى – حين أقول بتأثُّر « أبى العلاء » بالصورة الإسلامية – أن آخرته نسخة من تلك أو تقليد لها ، إنما الذى أعنيه أنها كانت ماثلة أمامه ، يذكرها وهو ينقل بعض ما يختار من ملامحها ، كما يذكرها وهو ينحى ملامح أخرى ويختار غيرها من عالمه ودنياه ، وأحلامه ورؤاه . فالتأثر بالشىء ليس معناه التقليد الخالص ، ولا هو يقتضى التوافق التام أو التشابه القريب ، بل هو تمثل وتذكر ، تلتقى فيه الصورتان أحيانًا وتبتعدان أحيانًا أخرى ، تبعًا للعالم النفسى الذى كان يعيش فيه « أبو العلاء » فى ذلك الحين ، حيث نراه يصوغ مادته صياغة فريدة ، تجعل العالم الآخر فى الغفران علائيًا خالصًا .

جنة الغفران

مادتها :

حين ننظر فى جنة الغفران ، نستطيع أن نميز بوضوح ملامح من الجنة فى القرآن الكريم . وهى الصورة المثالية للجنة فى عقيدة المسلم ووجدان العربى . ومن القدماء من التفت إلى هذا المعنى وقرر فيه أصلا عامًّا « كأبى الريحان البيرونى » فى كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » .

وما جاء فى القرآن الكريم عن الحياة الآخرة ، يوشك أن يكون من المعروف للمسلمين كافة من دينهم ، فى آيات الله البينات يتلونها ، وتتلى عليهم ، صباح مساء . وغير متصور أن يتمثل مسلم الحياة الآخرة ولا يكون فكره ووجدانه عامرًا بهذه الآيات .

* * *

من الجنة القرآنية أخذ أبو العلاء أكثر المادة التى صاغ منها جنته ، بحيث يخيل للقارئ المتعجل أن « أبا العلاء » قد نقل الصورة القرآنية ، ولم يزد على ان أضاف عنصرًا هنا أو زاد لونًا هناك ، فقد تشابهت الصورتان فى الملاذ والنعم المُعَدَّة لأهل الجنة ، عرضها القرآن الكريم ببيانه المعجز ، وجاء بها « أبو العلاء » بعد أن بالغ فى إبرازها مبالغة تصل إلى الغلو فى أكثر الأحيان ، مضيفًا إليها من عنده كل ما تمثله خياله ، أو رنت إليه رؤاه .

ويطول بنا الحديث لو مضينا نتتبع المواضع التى أُخِذتْ منها مادة الجنة العلائية من الصورة القرآنية ، فبحسبنا المثل والمثلان ، وأما الحصر فله غير هذا المكان .

قال فى (الغفران) فى الجنة المعَدَّة لابن القارح جزاء افتتاحه رسالته إلى أبى العلاء بتمجيد الله :

« وتجرى فى أصولِ ذلك الشجر ، أنهارٌ تُختلج من ماء الحيوان ، والكوثرُ يمدُّها فى كل أوانٍ ، من شرِبَ منها النغبة فلا موت ، قد أُمِنَ هنالك الفَوْت ، وسُعُدٌ من اللبن متخرّقات ، لاَ تُغيِّر بأن تطول الأوقات ، وجعافرُ من الرحيق المختوم ، عزَّ المقتدر على كل محتوم ..

« ويعارض تلك المدامةَ أنهارٌ من عسل مُصفًّى ، ما كَسبته النحلُ الغاديةُ إلى الأنوار ، ولا هو فى مُومٍ مُتوارٍ ، ولكن قال له العزيزُ القادر : « كن » فكان ، وبكرمِه أُعطى

الإمكان . وإنها لذلك عَسلاً ، لم يكن بالنار مبسلا ، لو جعله الشاربُ المحرورُ غذاءه طولَ الأبد ، ما قُدر له عارضُ مُومٍ ، ولا لبس ثوبَ المحموم . وذلك كلُّه بدليلِ قوله تعالى :

﴿مَثَلُ الجنةِ التى وُعِدَ المتقونَ فيها أنهارٌ مِنْ ماء غير آسِنٍ ، وأنهارٌ من لبن لم يتغيرْ طعمُه ، وأنهارٌ من خمر لَذَّةٍ للشاربين ، وأنهارٌ من عسل مُصَفًّى ولهم فيها من كل الثمرات﴾[1] .. ص ١٤١ : ١٥٣[2] .

* * *

« وكأنى به – أدام الله الجمالَ ببقائه – إذا استحق تلك الرتبة بيقين التوبة ، وقد اصطفى له نَدامى من أدباء الفردوس : كأخى ثُمالةَ ، وأخى دَوْسٍ ، ويونسَ بن حبيب الضّبّى ، وابن مَسعدة المجاشعى ، فهم كما جاء فى الكتاب العزيز :

﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ إخوانًا على سُرُر متقابلين . لايمسُّهم فيها نَصَبٌ وما هم منها مخرجين﴾[3] :

فصدرُ أحمدَ بن يحيى قد غُسل من الحقد على محمد بن يزيد ، فصارا يتصافيان ويتوافيان ، كأنهما ندمانا « جُذيمة » مالك وعقيل ، جَمَعَهُمَا مبيت ومَقيل . وأبو بشرٍ عمرو بنُ سيبويهِ ، قد رُحِضتْ سويداءُ قلبه من الضغن على علىّ بن حمزةَ الكِسائى وأصحابِه ، لما فعلوا به فى مجلس البرامكة . وأبو عبيدة صافى الطويّة لعبدِ الملك بن قُرَيْب ، قد ارتفعت خلتُهما عن الرِّيب ، فهما كأربدَ ولبيدٍ أخَوان ، أو ابنى نُويرةَ فيما سبق من الأوان ، أو صخرٍ ومعاوية ولدى عمرو ، وقد أخمدا من الإحَنِ كلَّ جمر .

﴿ والملائكةُ يدخلون عليهم من كلِّ بابٍ . سلامٌ عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار﴾[4] .. ص١٦٨ : ١٧١ .

« ويمر مَلَك من الملائكة فيقول – ابن القارح – : يا عبدَ الله ، أخبرْنى عن الحورِ العين ، أليس فى الكتاب الكريم : ﴿ إنا أنشأناهنّ إنشاء فجعلناهُنَّ أبكارًا . عُرُبًا أترابًا . لأصحابِ اليمين﴾[5] .

---

(١) من آية ١٥ سورة محمد .
(٢) الأرقام هنا وفيما يلى ، تشير إلى صفحات الغفران ، من نص رسالة الغفران : ذخائر .
(٣) سورة الحجر ، آيتا ٤٧ ، ٤٨ .
(٤) سورة الرعد ، آيتا ٢٣ ، ٢٤ .
(٥) سورة الواقعة ، الآيات من ٣٥ – ٣٨ .

فإذا مضى به المَلَك دليل الرحلة إلى شجر الحور ، وأخذ ثمرةً منها فخرجتْ له جاريةٌ حَوَراء عَيْناء .. سجد إعظامًا لله القدير وقال : هذا كما جاء فى الحديث : أعددتُ لعبادى المؤمنين ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذن سمعت ، بَلْهَ ما أطلعتُهم عليه » . ص ٢٨٨ .

* * *

والصور الإسلامية بوجه عام :

ومع القرآن الكريم ، ما امتلأت به كتبُ التفسير ، وما تناقله الرواة ، من وصف للجنة التى وُعِدَ بها المؤمنون ، ولقد تلوتُ عليكَ من قريب ، حديث « الغفران » عن تلك الثمار التى تصل إلى فم الموعود وهو مستلقٍ على الظهر ، وهو ترديد لأقوال مفسرين فى تأويل قوله تعالى : ﴿لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿فى جنةٍ عالية . قطوفُها دانية﴾[2] .

وفى قصة الحشر وصعوبة الموقف (ص ٢٤٨) ، وعبور الصراط (٢٥٩) ، والشفاعة (٢٥٧) تسمع صدى الأقوال المرددة فى المجتمعات الإسلامية عن الحياة الآخرة فى مثل قول « أبى العلاء » على لسان ابن القارح :

« فجعلتُ أتخلل العالَم ، فإذا أنا برجل عليه نور يتلألأ وحواليه رجال تأتلق منهم أنوار ، فقلتُ : مَن هذا لرجل ؟ فقيل : هذا حمزة بنُ عبد المطلب صريع وحْشىٍّ ، وهؤلاء الذين حوله مَن استشهد من المسلمين فى أُحُد » (ص ٢٥٢) .

وقوله : « .. وهَممتُ بالحوضِ فكدت لا أصل إليه ، ثم نغبت منه نغباتٍ لا ظمأ بعدها ، وإذا الكفرةُ يَحملون أنفسهم على الوِرد ، فتذودهم الزبانيةُ بِعصىٍّ تضطرم نارًا ، فيرجع أحدُهم وقد احترق وجههُ أو يدُه وهو يدعو بويلٍ وثبور . فطفتُ على العترةِ المنتجبين ، فقلت : إنى كنت فى الدار الذاهبة ، إذا كتبت كتابًا وفرغت منه قلت فى آخره : وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى عِترته الأخيار الطيبين ؛ وهذه حرمةٌ لى ووسيلة . فقالوا : ما نصنع بك ؟ فقلت : إن مولاتَنا فاطمة عليها السلامُ قد دخلت الجنةَ مذ دهرٍ ، وإنها تخرج فى كل حين مقدارهُ أربع وعشرون ساعة من ساعات الدنيا الفانية ، فتسلم على أبيها وهو قائم لشهادة القضاء ، ثم تعود إلى مُستقَرِّها من الجنان ، فإذا هى خرجت كالعادة ، فاسألوا في أمرى بأجمعكم فلعلها تسألُ أباها فىّ . فلما حان خروجُها ونادى الهاتف : أنْ « غُضُّوا أبصاركم يا أهلَ الموقف ، حتى

(١) سورة ق : آية ٣٥ .
(٢) سورة الحاقة : آيتا ٢٢، ٢٣ .

تعبر فاطمةُ بنتُ محمد ﷺ » اجتمع من آل أبي طالب خلق كثير ، من ذكورٍ وإناث ، ممن لم يشرب خمرًا ، ولا عرف قط منكرًا ..

« .. وكان فيهم عليٌّ بن الحسين ، وابناه محمدٌ وزيد ، وغيرُهم من الأبرار الصالحين ، ومع فاطمةُ عليها السلامُ امرأةٌ أخرى تجرى مجراها فى الشرفِ والجلالة ، فقيل : من هذه ؟ فقيل : خديجةُ ابنةُ خويلد بنِ أسدِ بن عبد العُزَّى ، ومعهما شبابٌ على أفراسٍ من نور » .. ص ٢٥٧ : ٢٥٩ .

ومعذرة عن الإطالة بنقل فقرات أخرى من « الغفران » ، أراها تعكس ظلالَ المجتمع الإسلامى الأول ، مثل قول : أبى العلاء » على لسانِ أسدٍ كان يفترس ما شاء من قطعان البقر فى الجنة(١) :

« أتدرى من أنا أيها البزيع – والبزيع بغلام الظريف الذكى – ؟ أنا أسدُ القاصرة التى كانت فى طريق مصر ، فلما سافر « عتبة بن أبى لهب » يريد تلك الجهة ،وقال النبى ﷺ : « اللهم سلِّط عليه كلبًا من كلابك » ، أُلهمتُ أن أتجوَّع له أيامًا ، وجئتُ وهو نائم بين الرفقة ، فتخللت الجماعةَ إليه ، وأُدخِلتُ الجَنةَ بما فعلتُ .

« ويمرُّ بذئب يقتنص ظباء ، فيفنى السربةَ بعد السربة ، وكلما فرغ من ظبى أو ظبية ، عادت بالقدرة إلى الحال المعهودة ، فيعلم أن خَطْبه كخطب الأسد . فيقول : ما خبرك يا عبدالله ؟ فيقول : أنا الذئب الذى كلَّم « الأسلمىَّ » على عهد النبى ﷺ ، كنت أقيم عشرَ ليال أو أكثر ، لا أقدر على العِكرِشة ولا القُواع ، وكنتُ إذا هممت بِعجِيٍّ المعيز ، آسَدَ الراعى علىَّ الكلابَ ، فرجعتُ إلى الصَاحبة مُخرَّقَ الإهابِ فتقول : لقد خَطِئْتَ فى أفكارِكَ ، ما خيرَ لك فى ابتكارِك . وربما رُمِيتُ بالسِّرْوَةِ فنشبتْ فى الأقراب ، فأبيتُ ليلتى لما بى ، حتى تنتزعَها السلقةُ وأنا بآخرِ النسيس ، فلحقنى بركةُ محمد ﷺ » ص ٣٠٤ : ٣٠٦ .

والشعرُ الجاهلى :

يلى القرآنَ الكريمَ والمرويات الإسلامية ، فى مصادر « أبى العلاء » لمادة الغفران . ويندر أن يخلو مشهد من مشاهد الجنة ، من إنشاد الشعر الجاهلى ، وتشخيص صُوره فيما قرأت من هذا الشعر . والأمر هنا لا يقتصر على الشعر الذى أورده فى (الغفران) شاهدًا على مسائل لغوية أو نحوية ، أو فى سياق الحديث عن القضايا الأدبية ، بل يعنينا كذلك أن نلفت

(١) فى (رسالة الغفران) طبعات الذخائر ، شرح الغريب من هذه الألفاظ والتعريف بالأعلام وتخريج الشواهد .

إلى الشعر الذى تمثل به أبو العلاء ابنَ القارح وهو يستمتع بنعيم الجنة : وهو مع ندامى الفردوس ، كما قال « الأعشى البكرى » :

نازعتهُم قضبَ الريحان مرتفقا وقَهْـوَةً مـزةً راووقُهـا خَضِلُ
لا يستفيقون منهـا وهى راهنة إلا بـ «هاتِ» ، وإن عَلُّوا وإن نَهَلُوا
يسعى بها ذو زجاجات له نُطفٌ مقلص أسفلَ السربال معتملُ
ومستجيب لصوتِ الصَّنجِ يسمعه إذا تُرَجَّعُ فيـه القينـةُ الفضُلُ

ص (١٧٢)

« وتهشّ نفوسُهم لِلَّعِبِ ، فيقذفون تلك الآنيةَ فى أنهارِ الرحيق ، ويصفقها المأذىُّ المعترض أىَّ تصفيق . وتقترع تلك الآنية فيسمع لها أصواتٌ تُبعث بمثلها الأموات ؛ فيقول الشيخ – حَسَّنَ اللهُ الأيامَ بطول عمره – : آه لمصرع الأعشى ميمون ، وكم أُعملَ من مَطية أمون ! ولقد وددتُ أنه ما صدَّته قريش لما توجه إلى النبى ﷺ . وإنما ذكرتُه الساعةَ لما تقارعت هذه الآنيةُ بقوله فى الحائية :

وشَمولٍ تحسِب العينُ – إذا صُفِّقتْ – جُنْدُعِهَا نَوْرَ الذُّبَحْ
مثل ريح المِسْكِ ذاكٍ رِيحُها صبَّها الساقى إذا قيل : تَوَح
من زقاق التَّجْر فى بَاطِيَّةٍ جَوْنَـة حَـارِيَّةٍ ذاتِ رَوَحْ
ذاتِ غـوْر مـا تُبَـالى يومَها غرف الإبريقُ منهـا والقـدح

(الأبيات) ص ١٧٣

ومن السمات الواضحة (للغفران) ، أن « أبا العلاء » يحشد فى جنته تلك الملذاتِ التى تغنى بها الشعرُ القديم ، ويأتى بها مشَخَّصةً ممثلة ، فيما يستمتع به ابن القارح وهو يترنم برُؤى قدامى الشعراء ، أو ينشد أشواقهم ومواجدهم ومواجعهم .

فهو فى النزهة يرفع صوته متمثلاً بشعر « البكرى » :

ليت شعرى متى تخبُّ بنا النا قـةُ نحـو العُذَيبِ فالصَّيُّبونِ ؟

ص ١٧٦

وهو فى الصيد ، يذكر قصيدتى « عدى بن زيد » :

ولَقد أغدو بطِرْفٍ زانه وجهُ منزوفٍ وخدٌّ كالمِسَنْ

ص ١٩١

ومَجُودٍ قد اسْجَهَرَّ تناوير كَلَون العهون فى الأعلاق

ص ١٩٣

ويقدم من شعراء جنته « أبا ذؤيب الهذلى » يحتلب ناقةً فى إناء من ذهب ، ذاكرًا قوله فى الدهر الأول :

وإن حديثًا منكِ لو تعلمينه جَنَى النحل فى ألبان عُوذٍ مطافل
مطافيلَ أبكارٍ ، حديثٍ نتاجهـــا تُشاب بمــــاءٍ ، مثل ماء المفاصلِ

ص ١٩٩

« ويعرض له – أدام الله الجمالَ ببقائه – الشوقُ إلى نظر سحابٍ كالسحاب الذى وصفه « عبيد » فى قوله :

إنى أرِقتُ ولم تأرق معى صاحِ لِمُسْتَكِفٍّ بُعَيْدَ النــومِ لَمَّاحِ

.. ..

فينشئُ الله – تعالت آلاؤه – سحابةً كأحسن ما يكون من السُّحُب .

ص ٢٧٥

« .. ويخلو – لا أخلاه الله من الإحسان – بحوريتين له من الحور العين ،فإذا بهره ما يراه من الجمال قال : أعْزِزْ علىَّ بهلاك الكندى ! إنى لأذكر بكما قوله :

كدأبِكَ من « أم الحويرث » قبلها وجارتِها « أم الرباب » بمأسَلِ
إذا قامتــا تَضَوَّعَ المســكُ منهمــا نسيم الصَّبَــا جــاءت برَيَّا القَرَنْفُلِ

... ...

« ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رُضابَها ويقول : إن امرأ القيس لَمِسْكِينٌ مِسكين ! تحترق عظامه فى السعير وأنا أتمثل بقوله :

كأن المدام وصوب الغمــامِ وريحَ الخُزامَى ونشرَ القُطُرْ
يُعَلُّ بــــــه بَرْدُ أنيابهــا إذا غــرَّد الطـــائرُ المستحِرْ

ص ٢٨٤ : ٢٨٦

وقد بلغ من تشخيص « أبى العلاء » صورَ اللذة فى الشعر الجهلى أن جعل إحدى الحوريات تعى دورها على المسرح ، حين يقول لها صاحبها « ابن القارح » :

« .. فاتبعينى بين كثبِ العنبر وأنقاءِ المسك . فيتخلل بها أهاضيبَ الفردوس ورمال الجنان ، فتقول : أيها العبد المرحوم ، أظنك تحتذى بى فعالَ الكندى فى قوله :

فقمتُ بهـــا أمشى تجر وراءنا على إثرنــا أذيـــالَ مِرْط مُرحَّل
فلما أجزنـــا ســاحةَ الحَىِّ وانتحى بنا بطنُ خبتٍ ذى قِفاف عقنقل
هصرتُ بِفَوْدَىْ رأسهـــا فتمـــايلت علىَّ هضيمَ الكَشْحِ ريَّـا المخلخـــل

فيقول : العجبُ لقدرة لله ! لقد أصبتِ ما خطر فى السويداء ، فمن أين لك علمٌ بالكندى ؟ » ص ٣٧٢ : ٣٧٣ .

على مثل هذا النحو ، ترى فى جنة (الغفران) ،صورًا من الشعر الجاهلى جاء بها « أبو العلاء » ماثلة مُشخصة[1] .

* * *

والأساطير :

وإذا كانت (الغفران) تدين بالكثير من مادتها إلى الصور الإسلامية لنعيم الآخرة ، وصور الشعر الجاهلى فى الملذات المادية ، ففيها كذلك ملامحُ من الأساطير التى حفظتها الذاكرة العربية من تراثها القديم ، منها مثلاً : ما ذكره عن شجر الحور استجابة لطلب ابن القارح ، حيث يقوده إليه ملك من الملائكة ويقول : « خذ ثمرة من هذا الثمر فاكسرها ، فإن هذا الشجر يُعرف بشجر الحور ، فيأخذ سفرجلةً أو رمانة أو تفاحة ، أو ما شاء الله من الثمار ، فيكسرها ، فتخرج منها جاريةٌ حوراءُ عيناء ، تبرقَ لحسنها حوريات الجنان ، فتقول : من أنت يا عبدالله ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان ، فتقول : إنى أُمَنَّى بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة » ص ٢٨٨ .

وقوله : « ويذكر – أذكره الله بالصالحات – الأبيات التى تنسب إلى الخليل بن أحمد ، وأنها تصلح لأن يُرقصَ عليها ، فينشئُ الله القادرُ بلطفِ حكمتِه شجرةً من عَفْزٍ – والعَفْزُ : الجوز – فتونع لوقتها ، ثم تنفض عددًا لا يحصيه إلا الله سبحانه ، وتنشق كل واحدة منه عن أربع جَوارٍ يَرُقن الرَّائين ، ممن قُرب والنائين ، يرقصن على الأبيات .. » ص ٢٧٩ .

وتستطيع فى سهولة ويُسر أن ترد هذا المشهد ، إلى الأسطورة الشعبية عن شجر الحور الذى زعموا أنه ينبت فى جزيرة الوقواق ، « تلك الشجرة التى تحمل ثمرًا من نساء ، يمتن إذا فُصِلن عن فروعها » . ورد ذكر جزر الوقواق فى (مروج الذهب للمسعودى) ، وفى (حديث السندباد القديم – للأستاذ الدكتور حسين فوزى)[2] تفصيل لهذه الأسطورة وصداها فى تراثنا ، كما نجد مثل هذه الأحاديث الأسطورية عن الوقواق ، والحورية التى خرجت من السمكة ، فى كتاب (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، لزكريا القزوينى)[3] . وفى قصص (ألف ليلة وليلة) قدر من مثل هذه الأسطوريات غير قليل .

(١) انظر شواهد أخرى ، فيما يلى من مباحث (أبى العلاء فى جنته) .

(٢) طبع فى القاهرة – عام ١٩٤٣م .

(٣) انظر صفحتى ١٢٦ ، ١٠٥ ط التقدم .

أبو العلاء فى جنته

ذكرت أن « أبا العلاء » أخذ المادة التى صاغ منها جنته ، من القرآن الكريم والصورة الإسلامية للجنة ، ومن الشعر الجاهلى . والأساطير التى عرفها العرب ، وقد نبّهتُ – بادئ ذى بدء – إلى لَبْسٍ ربما يخيل للرائى المتعجل أن « أبا العلاء » جمع مادته من هذه المصادر ، ثم عكف على تنسيقها وإبراز بعض عناصرها أو إضافة لون إليها ، فالواقع أنه – وإن التمس مادته من المصادر التى أشرنا إليها – قد صاغ هذه المادة صياغة فريدة ، لها طابعها المميز ، وأفرغها فى القالب الذى اختاره أو اختارته له ظروفه الخاصة بكل ما يفردها ويميزها عن سواها . فلم يكن ينقل ما ينقل من الصور القديمة إلا متأثرًا بعالمه النفسى الخالص ، ولا يرسم ما اختار من أجزائها إلا بعد أن تعبر دنياه ، وتمر بكل ما تضطرب به من أشواق وهموم ، وما تنفعل به من عواطف وهواجس ، وما تحسه من آلام وآمال .

ولن تجد فى جنته موضعًا لم تحف به ظلال من ذلك العالم النفسى ، ولم تميزه عناصر وألوان من تلك الدنيا الخاصة ،ومن ثم كانت صورة فريدة ، ميزها طابع أصيل أفسح للغفران مكانه فى تراث الإنسانية للحياة الآخرة .

* * *

ولو أن جنة (الغفران) كانت نسخة جامعة لصور الجنة فى الأفق العربى ، لما كان لها فى تراثنا الأدبى هذا المكان المرموق ، وإنما هى جنة علائية خالصة متميزة ، يستطيع المتأمل أن يرى فيها شخص صانعها . ولو عُرضت صورتها على خبير بالنفس الإنسانية وأُخفى عنه اسمُ راسمها ، لحكم فى غير تردد بأنها :

جنة إنسان حبيس مقيد ، محروم ، ضرير ، أديب شاعر ، راوية .

وذلك هو أبو العلاء كما عرفته ... ...

وأمضى فى تفصيل هذا الذى أجملته .

١ – جنة السجين المقيّد :

وأول ما يلفت النظر فى جنة (الغفران) ، براءتُها من الفراغ والسكون ، وخلوها من التعطل والجمود ، فهى حافلة بالحركة والحياة ، غنية بالعواطف الإنسانية ، زاخرة بالانفعالات النفسية العنيفة الحادة .

فأبو العلاء يعقد فى جنته مجالس المنادمة ، وقد اصطفى لابن القارح فلانًا وفلانًا من أدباء الفردوس . « ومَنْ أحبَّ من ظِراف الندماء » ص ١٦٨ : ١٧٥[1] .

وهو يأدب المآدب الحافلة ، والحفلات الفاخرة ، ويدعو للضيافة (٢٦٨ : ٢٨٠) ويخطر له شىء كان يسمى النزهة فى الدار الفانية ، فيركب نجيبًا من نجب الجنة (١٧٥) . ويخرج للصيد (١٩٧) ، ويزور للتهنئة (١٩٥) .

ويملأ أرجاء الجنة غناء : فهذه إحدى الحور تترنم بقصيدة « النابغة » :

أمِن آلِ « مية » رائحٌ أو مغتدِ   عجلانَ ذا زاد وغير مزود

ص ٢١٣

وأخريات يُلحِّنَّ قولَ « المخبَّل السعدى » :

ذَكَرَ الربابَ وذكرُها سُقمُ   وصبا ، وليس لمن صبا عزمُ
وإذا ألَمّ خيالُهـا طـرِفت   عينى فمـاءُ شئونها سَجْم

« والجرادتان » ، ترجعان قول القائلِ :

ودّ عْ لميسَ وداعَ الوامق اللاحى

ص ٢٧٥

وقينة تُسمع الندامى قولَ « جِرانَ العَوْد النميرى » :

حَملْنَ جِرانَ العـود حتى وضعـنه   بعلياءَ فى أرجائهـا الجنُّ تعزفُ
وأحرزن منـا كلَّ حُجزةِ مئزرٍ   لَهنَّ ، وطـاح النوفَلىُّ المزخرفُ
وقلن : تمتـع ليلةَ النـأى هذه   فإنك مرجـومٌ غـدًا ، أو مُسيَّف

ص ٢٧٧

وجوارى الفردوس يرقصن على أبيات منسوبة إلى الخليل (٢٧٩) .

وفى جنته ، يقول ابن القارح للنابغة الجعدى : « يا أبا ليلى ، إن الله جلت قدرته قد منّ علينا بهؤلاء الحور العين اللواتى حوّلهن عن خلق الإوز ، فاختر لك واحدة منهن ، فلتذهب معك إلى منزلك تلاحنك أرَقَّ اللِحان ، وتسمعك ضروبَ الألحان .فيقول لبيد بن ربيعة : إن أخذ أبو ليلى قينة ، وأخذ غيرهُ مثلَها ، أليس ينتشر خبرُها فى الجنة فلا يؤمَنُ أن يُسَمَّى فاعلو ذلك أزواجَ الإوز ؟ فتضرب الجماعةُ عن اقتسام أولئك القيان » ٢٣٤ .

وقد تشتد الحركة فى الجنة فتصير ضجيجًا ، ويعلو الصوت فيصير صياحًا وجعجعة ، هنالك تسمعُ رُغاءَ الْعَكرِ ويُعارَ المعِز ، ووَثُؤاجَ الضأن ، وصياحَ الدِّيَكَةِ (٢٧١) . كما تسمع

(١) الأرقام تشير إلى مواضع الفقرات فى « رسالة الغفران » ط ثالثة ذخائر .

الأرحاء المنشأة على الكوثر ، تُجعجع لطحن بُرٍّ من بُر الجنة (٢٦٨) ، وتدور فيها البهائم من جِمالٍ وأينق وصنوف البغال والبقر وبنات صَعْدَةَ ، أى حمر الوحش (٢٧٠) .

بلْ قد تعنفُ الحركة حتى تصيرَ شجارًا وعربدةً ، ويثب « نابغة بنى جعدة » على « الأعشى » فيضربه بكوز من ذهب ، فيقول « ابن القارح » : « لا عربدةَ فى الجِنان ، إنما يُعرفُ ذلك فى الدنيا الفانية بين السَّفْلَةِ والهَجَاج » (٢٣١) .

ولن نجد شبيهًا لهذه الحركة فى جنة القرآن الكريم التى يسودها السكون والسلام ، وهو قد لزم بيته تسعة وأربعين عامًا رهين مَحبِسَيه ، لم يخرج منه إلا مرةً واحدة يتيمة ، حين سفر لقومه عند « صالح بن مرداس » ، فلا عجب أن يتخيل جنته عامرة بالحركة .

على أن هذه الحركة المادية الحسيّة ، لا تكاد تقاس إلى الحركة النفسية العنيفة التى تموج بها جنة « الغفران » ، وتضطرب بها نفوس الموعودين بها ، وينفعلون انفعالات حادة ، تبعدنا عن ذلك السلام الذى يسود جنة القرآن .

ذلك أن « أبا العلاء » لم يشأ أن يبرئَ أهل جنته من التعجب (٢١٢ ، ٢٣١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٦ ، ٣٦٤ ، ...) .

ومن الحنين : هذا يحن إلى الصيد (١٨٦) وذلك يشتاق الاحتلاب (١٩٩) .

ومن التشوف والانتظار والعتاب : « فإذا ضرب فى غيطان الجنةِ ، لَقيتْهُ الجارية التى خرجت من تلك الثمرة – من شجر الحور – فتقول : إنى لأنتظرك منذ حين ، فما الذى شجنك عن المزار؟ ما طالت الإقامة معك ، فأَمِلّ بالمحاورة مسمعك . قد كان يحق لى أن أوثَر لديك على حسَبِ ما تنفرد به العروس ، يَخُصُّهَا الرجلُ بشىء دون الأزواج .. » ٣٧٢ .

ومن الإشفاق : « عدى بن زيد » يدعو « ابنَ القارح » إلى الصيد فيقول مشفقًا : « إنما أنا صاحبُ قَلم وسلَم ، ولم أكنْ صَاحِبَ خيل ، ولا مِمَّنْ يسحبُ طويلَ الذيلِ ، وما يُؤمِننى إذا ركبتُ طرفًا زَعِلا ، رتع فى رياض الجنة فَاض من الأشَرِ مُسْتَسْعِلاً ، وأنا كما قال القائل :

لم يركبوا الخيل إلا بعد ما كبروا فهــم ثِقالٌ على أكتافهــا عُنُفُ

أن يلحقنى ما لحق « جَلَمًا » صاحبَ « المتجردة » لما حُمِل على اليحموم ... ويجوز أن يقذفنى السابحُ على صخورِ زُمُرُّدٍ ، فيكسرَ لى عضدًا أو ساقًا ، فأصير ضُحكةً فى أهل الجنان » ١٩٦ .

ومن الحذر : كالذى رأيتَ من إضراب الندامى عن اقتسام القيان اللواتى كن إوزًا ، خشية أن يُسَمَّوا « أزواجَ الإوز » ٢٣٤ .

ومثل الذى تسمعه حين تخاصم النابغة الجعدى والأعشى : « فيريد – بلَّغه الله إرادته –

أن يصلح بين الندماء فيقول : يجب أن يُحذر من مَلَكٍ يَعبرُ فيرى هذا المجلس ، فيرفع حديثه إلى الجبار الأعظم ، فلا يجرُّ ذلك إلا إلى ما تكرهان ، واستغنى ربُّنا أن تُرفَع الأخبارُ إليه ، ولكن جرى ذلك مجرى الحفظة فى الدار العاجلة ، أما علمتما أن آدم خرج من الجنة بذنب حقير ، فغيرُ آمنٍ مَنْ وَلَدَ أن يُقدَر له مثلُ ذلك » ٢٣٣ .

ومن الإغراء : تقول إحدى حيات الجنة لابن القارح : « ألا تقيم عندنا برهة من الدهر ؟ فإنى إذا شئت انتقضتُ من إهابى فصرتُ مثلَ أحسن غوانى الجنة ! لو ترشفْتَ رُضابى لعلمتَ أنه أفضلُ من الدرياقة التى ذكرها « ابن مقبل » فى قوله :

سقتنى بصهبـاءَ دِرياقة   متى ما تُليِّنْ عظامى تَلِنْ

ولو تنفستُ فى وجهك ، لأعلمتُك أن صاحبةَ « عنترة » تَفِلةٌ صدوف — الصَدوف : الكريهة رائحة الفم — وإنما تعنى قوله :

وكأن فـــارة تـــاجرٍ بتسيمةٍ   سبقتْ عوارضَها إليكَ من الفم

ولو أدنيتَ وسادك إلى وسادى ،لفضلتنى على التى يقول فيها القائل :

باتت رقودًا وسار الركب مُدَّلِجًا   ومـا الأوانسُ فى فكـرٍ لسارينا

... ...

« ولو أقمتَ عندنا إلى أن تخبر وُدَّنا وإنصافَنا ، لَندمتَ إن كنتَ فى الدار العاجلة قتلتَ حيه أو عثمانًا » ٣٧٠ .

ولا يكره « أبو العلاء » أن يذيقَ أهلَ الجنة الفزعَ ، والذعرَ ، فابن القارح يسمع إغراء الحية « فيذعَر منها — جعل الله أَمْنه متصلاً — ... ويذهب مهرولاً فى الجنة » ٣٧٠ .

كما يذيقهم الغيظَ ، والغضبَ : ترى « النابغةَ الجعدىَّ يغيظ « الأعشى » وترى « الأعشى » يرد عليه مستثارًا ، وينهض نابغة بنى جعدة مغضبًا ، وتسمع « المازنى » يعرض بالأصمعى فيثور وينهض كالمغضب ٢٨٤ .

كما لا يمنعه وجودهم فى الجنة من مواجهتهم بالخيبة ، مرةً بعد مرة : يخرج بابن القارح للصيد ، « فإذا نظر إلى صوار ترتع فى دقارى الفردوس — والدقارى : الرياض — ... صوّب مولاى الشيخ المِطرَد — وهو الرمح القصير — لأخنسَ ذيَّال ، قد رتع هناك طويلَ أيامٍ وليالى ، فإذا لم يبق بين السنان وبينه إلا قيدُ ظُفرٍ قال : أمسِكْ ، رحمكَ الله ، فإنى لستُ من وحش الجنة التى أنشأها الله سبحانه ولم تكن فى الدار الزائلة ، ولكنى كنتُ فى محلة الغرور أرود فى بعض القِفار ، فمَرَّ بى ركبٌ مؤمنون قد أكرى زادُهم ، فصرعونى واستعانوا بى على السفر ، فعوضنى الله — جلَّت كلمتُه — بأن أسكننى فى الخلود . فيكِفُّ عنه مولاى الشيخ الجليل . ويعمَد لِعلْج وحشىّ ، ما التلفُ عنده

بمخشىّ ، فإذا صار الخرصُ منه بقدرِ أنملة ، قال : أَمْسِكْ يا عبد الله ، فإن الله أنعم علىّ ورفع عنى البؤس ، وذلك أنى صادنى صائدٌ بمخلب ، وكان إهابى له كالسلَب ، فباعه فى بعض الأمصار ، وَصَرَاهُ للسَّانية – أى السقاة – صارٍ ، فَاتَّخِذَ منه غَرْبٌ ، شُفِىَ بمائه الكربُ ، وتطهر بنزيعه الصالحون ، فشملتنى بركةٌ من أولئك ، فدخلتُ الجنةَ أرزق فيها بغير حساب » ١٩٧ .

ولم يُخْلِ جنته من الخصام . كالذى يأتى من مشاهد مسرح الغفران بين « النابغة الجعدى والأعشى » وبين « المازنى والأصمعى » .

ومن التنابز واللمز والتعيير : فالأعشى يقول للجعدى : « قد طال عمرك يا أبا ليلى ، وأحسبك أصابك الفَنَدُ ، فبقيت على فَنَدِكَ إلى اليوم » . والجعدى يجيب : « أتكلمنى بمثلِ هذا الكلام يا خليع بنى ضُبَيْعة ، وقدْ مِتَّ كافرًا وأقررتَ على نفسك بالفاحشة ؟ !

وتشتد الخصومة بينهما فتشبه أن تكون منافرة يقول فيها الجعدى :

« أغرّك أن عدَّك بعضُ الجهال رابعَ الشعراء الأربعة ؟ وكذب مُفضِّلُك ، وإنى لأطولُ منك نفَسًا ، وأكثر تصرفًا ، ولقد بلغتُ بعددِ البيوت ما لم يبلغه أحدٌ من العرب قبلى ، وأنت لاه بعفارتك تفترى على كرائِم قومك ، وإن صدقتَ فخزيًا لك ولِقارِكَ . فيغضب أبو بصير ويقول : أتقول هذا وإن بيتًا مما بنيتُ لَيَعْدَلُ بمائة من بنائك ؟ وإن أسهبتَ فى منطقك فإن المسهِب كحاطب الليل ، وإنى لفى الجرثومة من ربيعة الفرس ، وإنك لمن بنى جعدة ، وهل جعدة إلا رائدةُ ظليم نفور ؟ أتعيرنى مدحَ الملوك ، ولو قدرتَ يا جاهلُ على ذلك لهجرتَ إليه أهلَك وولدك ، ولكنك خُلقت جبانًا هدانًا ، لا تُدلجُ فى الظلماء الداجية ، ولا تُهَجِّر فى الوديقة الصاخدة » ٢٣٠ .

كما تشتد الخصومة بين « المازنى والأصمعى » ، فيتبادلان من التعريض والتعيير ما لم تكن تنتظر أن تسمع مثله فى الجنة (٢٨٣) .

ويمر « حسَّانُ بن ثابت » بمجلس الندماء ، فيقول قائلٌ منهم : « كيف جنُك يا أبا عبد الرحمن ؟ » ٢٣٤ .

ويبلغ الانفعالُ ببعض أهل الجنة أقصاه ، فيخرجهم عن طورهم ، وتراهم يتضاربون (٢٣١) ويتلاحون ويتشاتمون ، ويشمتون (٢٣٢) .

فمَن عَجِب كيف يبلغ الانفعال بأهل الجنة العلائية أقصى المدى ، وقد عرفنا أبا العلاء ساكنًا فى محبسه ! فلنذكر أنه حُلم المقيد الحبيس .

* * *

٢ - جنة المحروم :

يشق علينا أن نتبع ما فى جنة « الغفران » من صنوف الملذات ، فما الأمرُ فى هذا أمر إحصاء ، لأنه ملء هذه الجنة .

ولا تنتظر أن يُحَرِّمَ « أبو العلاء » الخَمرَ واللحوم والنساء فى جنته كما فعل فى دنياه ، بل انظره يتفنن فى ملء هذه الجنة بما شاء له حرمانه من كل ذاك . وإنها لخمر لم يحلم بمثلها كل وُصَّافِ الخمر (١٤٩ ، ٣٧٧) .

ولحوم شهية من « الطير الراتعة فى رياض الجنة » ، ومن الضأن والمعز والبقر والإبل ، وأبجـاج العكارم وجـوازل الطواويس ، والسمين من دجاج الرحمة وفراريج الخلد (٢١٠ - ٢٧١) .

وينقل من حديث المأدبة التى أدبها ابن القارح فى الجنة :

« ويعبر بين الأكراس - أى الجماعات - طاووس من طواويس الجنة يروق مَن رآه حسنًا ، فيشتهيه أبو عبيدةَ مَصُوصًا ، فيتكون كذلك فى صحفة من الذهب ، فإذا قضى منه وطرًا انضمت عظامُه بعضُها إلى بعض ، ثم تصير طاووسًا كما بدا .

« وتمر إوزةٌ مثلِ البختية ، فيتمناها بعض القوم شِواءً ، فتتمثل على خِوَانٍ من الزمرد ، فإذا قُضيت منها الحاجةُ عادت بإذن الله إلى هيئة ذوات الجناح ! ويختارها بعض الحاضرين كَرْدَنَاجًا ، وبعضهم معمولة بِسُمَّاق ، وبعضهم معمولةً بِلبنٍ وخلّ ، وغير ذلك ، وهى تكون على ما يريدون .. » ٢٨٠ : ٢٨٣ .

والملحظ هنا أن « أبا العلاء » إذ يخالف مذهبه فى تحريم ذبح الحيوان ، لم ينس أن يحتاط بمثل قوله حين ارتفع صياح الطير والغنم لرؤية المدية قبل أن تذبح للمأدبة :(وذلك كله بحمدِ الله لا ألم فيه ، وإنما هو جِدٌ مثلَ اللعب) ٢٧٠ .

وقوله على لسان « أسد القاصرة » :« وكذلك أنا أفترس ما شاء الله ، فلا تأذى الفريسة بظفرٍ ولا ناب ، ولكن تجد من اللذة كما أجد ، بلطفِ ربِّها العزيز » ٣٠٥ .

وأما النساء فى جنة « أبى العلاء » فلهن مكانٌ وأى مكانٌ !! « أين منهن ما وصف شعراء الغزل من قديم الزمان » ؟ ! إن الواحدة منهن لتفضل جميلات الدنيا ، « فضل الدُّرَّةِ المختزنة على الحصاة الملقاة ، والخيرات الملتمسة على الأعراض المُتَّقاة » ٢٢١ .

على أن الأمر فى (جنة الغفران) ليس مجرد حشدٍ لأصناف المتع المشتهاة ، بل إن فيها شهوات مصورة طافت بخيالِ المحروم وهو يتمثل ولع ابن القارح بالمتع الحسية ، فجاء بها ماثلة مشخصة . وقد نقلنا بعض مشاهد من ذلك فى حديثنا عن ظاهرة التشخيص فى أسلوبه . كذلك المشهد الذى نرى فيه « ابن القارح » مع صاحبته من الحور العين وهو يقول لها :

« فاتبعيني بين كثب العنبر وأنقاء المسك ، فيتخلل بها أهاضيب الفردوس ورمال الجنان ، فتقول : أيها العبد المرحوم ، أظنك تحتذى بى فعال « الكندى » فى قوله :

فقمتُ بها أمشى تجر وراءنا على إثرنا أذيالَ مرطٍ مرَحَّلِ

... ...

« ويعرض له حديثُ امرئ القيس فى دارة جلجل ، فينشئُ الله – جلّت عظمته – جورًا عِينًا يتماقلن فى نهر من أنهار الجنة ، وفيهن من تفضلهن كصاحبة امرئ القيس ، فيترامين بالثرمد ، وإنما هو كأجل طيب الجنة ، ويعقر لهن الراحلة ، فيأكل ويأكلن من بضيعها ، ما ليس تقع الصفة عليه من إمتاع ولذاذة » ص ٣٧٣ .

ومثل ذلك المشهد الذى يذكر فيه « الأبيات التى تنسب إلى الخليل بن أحمد – والخليل يومئذ فى الجماعة – وأنها تصلح لأن يُرْقَصَ عليها ، فينشئُ الله القادر بلطف حكمته شجرةً من عفز – والعفز : الجوز – فتونع لوقتها ، ثم تنفض عددًا لا يحصيه إلا الله سبحانه ، وتنشق كل واحدة منه عن أربع جَوارٍ يَرُقْنَ الرائين ، ممن قرب والنائين ، يرقصن على الأبيات المنسوبة إلى « الخليل » وأولها :

إن الخليط تصَدَّعْ فَطِرْ بِدائكَ أو قَعْ

... ...

فتهتز أرجاء الجنة » (٢٧٩) .

« ويذكر – أذكره الله بالصالحات – ما كان يلحق أخا الندام ، من فتورٍ فى الجسد من المدام ، فيختار أن يَعْرِض له ذلك من غير أن ينزف له لب ، ولا يتغير عليه خب ، فإذا هو يخال فى العظام الناعمة دبيبَ نملٍ ، أسرى فى المقمرة على رمل ، فيترنم بِقَوْل إياس بن الأرَتّ :

أعاذلَ لو شَرِبْتِ الخمر حتى يظــل لكـلّ أنملة دبيبُ
إذًا لَعـذرتنى وعلمــتِ أنـى لمـا أتلفتُ من مـالى مصيبُ

ص ٣٧٧ ، ٣٧٩

إلى مثل ذلك المدى البعيد ، استغرق المقيد الحبيس المحروم ، فى تشخيص الملذات المادية . وإذا كان فى كل ما ساقه من شهوات مصورة ، إنما يصور ما يُقَدِّرُ أنه يرضى ابن القارح ويلائم مزاجه وهواه ، فقد بقى أن ندرك ما لهذا التفنن فى تشخيص اللذات المادية والشهوات الحسية ، من دلالة على نفسية المحروم ، وأثر القيود الباهظة التى فرضها على نفسه منذ عاد محزونًا من رحلته إلى بغداد .

ولنذكر معه أن أبا العلاء يؤثر أن تكون جنته جنة بشر .

ومن هنا حفلت جنة الغفران بأشواقِ البشرية وشهواتها ، وأهلها كما عرفهم فى الدنيا ، بكل

ما فى بشريتهم من ضعف وقصور وأهواء ، وما أكثر ما تراه يمعن فى تقرير هذه البشرية فيصف بعض أهل الجنة بعدم الفهم ، والنسيان ، والغفلة ، والعقوق ، والتماس الممنوع .

ولا يحول الوجود فى جنته دون أن تسمع من أهلها من يقول فى مجالس جنة الغفران :

« ما أراكَ تفهم ما أقول » .

« أفنسيتَ يا أبا عبد الرحمن وأنت أذْكَرُ العرب ؟ » .

« لقد غفلتَ أيها المؤمن وأضعتَ ! » .

« أبيتم – يا بنى آدم – إلا عقوقًا وأُذِيَّة ! » .

« ألم تُنهوا عن الشمات يا بنى آدم ؟ ولكنكم بحمدِ الله ما زُجِرتُم عن شىء إلا ركبتموه » .

... ...

* * *

وقد يلفت النظرَ هنا أن « أبا العلاء » يُحب أن تكون فى جنته ملامح من دنيانا المألوفة . ومن ذلك ما تراه فيها من لافتات القصور ، ووجود أحياء سَكنية بالجنة على النحو الذى أَلِفوه فى هذه الدنيا ، ذلك مثل قوله :

« وينظر الشيخ فى رياض الجنة فيرى قصرين مُنيفين ، فيقول فى نفسه : لأبلغن هذين القصرين ، فأسأل لمن هما ؟ فإذا قَرُبَ منهما رأى على أحدهما مكتوبًا : هذا القصر لزهير بن أبى سلمى المزنى . وعلى الآخر : هذا القصر لعَبيد بن الأبرص الأسدى .. » (١٨٢) .

« ويعرض لهم لبيد بن ربيعة ، فيدعوهم إلى منزله بالقيسية ، ويقسم عليهم ليذهبن معه .. » ٢٥٢ .

ومن ذلك أيضًا ، ما تراه عند « أبى العلاء » من ميل واضح إلى أن يتمتع أهل جنته بما أَلفوه أو اشتاقوه فى دنياهم : « فعدىّ بن زيد » يسأله ابن القارح عن شعره فيجيب : « دعنى من هذه الأباطيل ، ولكنى كنت فى الدار الفانية صاحبَ قنص .. فهل لك أن نركب فرسين من خيلِ الجنة فنبعثهما على صيرانها ، وخِيطانِ نعامها ، وأسرابِ ظِبائها ، وعاناتِ حُمُرِها ، فإن للقنيص لذة ؟ » (١٩١ ، ١٩٥) .

و « أبو ذؤيب » ، لا يمنعه وجود أنهار لبن فى الجنة ، من أن يشتهى أن يحتلب ناقة ، فيكون له ما اشتهى وأراد « ويقوم فيحتلب على العادة » .

وحين يحب الشيخ أن يصنع مأدبة فى الجنة ، « يخطر له أن تكون كمآدب الدار العاجلة » ١٩٩ .

ويأبى الشيخ أن يجىء الطعام لضيوفه جاهزًا ، ويختار أن تُنشأ أرحاء على الكوثر لطحن البُرّ « فإذا اجتمع من الطحن ما يُظن أنه كاف للمأدبة ، تفرق خدمُه من الولدان المخلدين ،

فجاءوا بالبقر والغنم والطيور لِتُعْتَبَطَ ، ثم قال : أحضروا منَ فى الجنة من الطهاة الساكنين بحلب على ممر الأزمان » ٢٧١ .

ويخطر له ذكر شراب الفُقّاع الذى كان يُعمل فى الدار الخادعة ، « فيُجْرِى الله بُقدرته أنهارًا من فُقَّاع ، الجرعةُ منها لو عُدلت بلذاتِ الفانية منذ خلق الله السماواتِ والأرضَ إلى يـوم تُطـوَى الأُمَمُ الآخرةُ ، لكانت أفضلَ وأشفّ ، فيقول فى نفسه : قد علمت أن الله قدير ، والذى أريد ، نحوُ ما كنت أراه مع الطوافين فى الدار الذاهبة . فلا تكمل هذه المقالة حتى يجمع الله كل فُقّاعىٍّ فى الجنة من أهل العراق والشام وغيرهما من البلاد ، بين أيديهم الولدان المخلدون يحملون السلالَ إلى أهل ذلك المجلس .. » (٢٨٠) .

وللدراسة النفسية مجالها هنا ، تقف عند لفظ (العادة) الذى يكرره « أبو العلاء » فيما يشتهى أهل جنته من متَعَ دنياهم ومألوف لذاتهم .

ولا يحتاج أحدهم إلى أن يعبِّر عمَّا يشتهى ويطلب ما يشتاق ، بل يكفى – كما ترى فى صفحات ٢٧٠ ، ٢٧٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ من الغفران – أن تخطر له الخاطرة ، أو يهجس فيه الشوق ، حتى يجد ما يريد ماثلاً بين يديه « فَعَزَ إلهُنا القديم الذى لا يعجزه تصوير الأمانى ، وتكوين الهواجس من الظنون » (٢٧٦) .

هى جنة بشر ، مقيد ، قضى على نفسه بالحرمان من كل لذات الدنيا المادية ، فلما تمثل ابنَ القارح فى الجنة – وهو ممن عكفوا فى دنياهم على المتع الحسية – أغرقه فيما يمتعه . وأسعفته على تشخيص اللذات ، عزلته القاسية ، وحرمانه الباهظ .

* * *

٣ – جنة الضرير :

على أن الجنة ، لن تكون جنة لأبى العلاء ، إذا لم يرتد بصيرًا ! كلّ النعم لن تكون عنده شيئًا إذا كتب عليه أن يُحرم نعمةَ البصر فى الآخرة ، كما حُرِمَها فى الدنيا .

و « أبو العلاء » لا يجرؤ على أن يتمثل جنةً بها عمى ، وإنا لنراه يعلل نفسه بهذه الرحلة التى يطوف فيها بجنته بعينين مبصرتين أقوى ما يكون الإبصار .

ولن تسمع فى جنته شكوى من عاهة أو داء : كل من امْتُحِنَ فى الدنيا بشىء من ذلك ، رُفع عنه فى الآخرة ، بل إن أبا العلاء لا يكفيه أن تُرفعَ المحنة ، ويعود المبتَلى كغيره من الناس ، لا يكفيه أن يرتد الأعمى بصيرًا ، والأعشى أحور ، والهرِمُ شابًا ، والسوداء بيضاء ، وإنما يُعوِّض الممتَحن فى الأولى تعويضًا لا يقترح مثلَه سوى المبتلى المحروم : فأحَدُّ أهل الجنة بصرًا ، هم الذين حُرموا نعمة الإبصار فى الدنيا ؛ وأجملهم عيونًا ، عُورانُ قيس ؛ وأطيبُ نسائها

نشرًا ، امرأة طُلقت لرائحةٍ كرهها زوجها من فيها ؛ وأنصعهن بياضًا ، جارية سوداء كانت تخدم فى دار العلم ببغداد !

وصراحته هنا موجعة مثيرة : يأتى بالأعشى فإذا هو « شاب غُرانق ، قد صار عَشاه حَوَرًا معروفًا ، وانحناءُ ظهره قوامًا موصوفًا » ١٧٧ .

وينصرف ابن القارح « إلى حُمَيْدِ بن ثور فيقول : إيهِ يا حميد ! لقد أحسنت فى قولك :

أرَى بَصَرِى قد رابنى بعد صحةٍ   وحسْبُكَ داءً أن تصحّ وَتَسْلَمَا

... ...

فكيف بصرك اليوم ؟ فيقول : إنى لأكون فى مغارب الجنة . فألمح الصديق من أصدقائى وهو بمشارقها ، وبينى وبينه مسيرةُ ألوفِ أعوام للشمسِ التى عرفتَ سرعةَ سيرها فى العاجلة ، فتعالى الله القادر على كل بديع » ٢٦٣ .

« وبينا هو يطوف فى رياض الجنة ، لقيه خمسةُ نفرٍ على خمسِ أينُق فيقول : ما رأيت أحسنَ من عيونكم فى أهل الجنان ، فمن أنتم خَلَدَ عليكم النعيم ؟ فيقولون : نحنُ عُوران قيس : تميم بن مقبل العَجْلانِىُّ ، وعمرو بن أحمر الباهلى ، والشَّماخ معقل بن ضِرار ، وراعى الإبل عُبَيْدُ بن الحُصَيْنِ النميرى ، وحميدُ بن ثور الهلالى » ٢٣٧ .

« ويخلو – لا أخلاه الله من الإحسان – بحوريتين له من الحور العين ، فإذا بهره ما يراه من الجمال ، قال : أعززْ علىّ بهلاك الكندى ! إنى لأذكر بكما قوله :

كدأبك من « أم الحويرث » قبلها   وجارتها « أم الرباب » بمأسل

إذا قامتا تضوع المسـك منهما   نسيمَ الصبا جاءت بريّا القرنفل

« فَتَسْتَغْرِبُ إحداهما ضحكًا ، فيقول : مِمَّ تضحكين ؟ فتقول : فرحًا بِتفضلِ الله الذى وهب نعيمًا وكان بالمغفرة زعيمًا ! أتدرى من أنا يا علىُّ بنَ منصور ؟ فيقول : أنت من حور الجنان اللواتى خلقكن الله جزاء للمتقين ، وقال فيكن : ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾(١) فتقول : أنا كذلك بإنعام الله العظيم ، على أنى كنتُ فى الدار العاجلة أعرف بحمدونة ، وأسكن فى باب العراق بحلب ، وأبى صاحبُ رَحًى ، وتزوجنى رجل يبيع السقَط ، فطلقنى لرائحةٍ كرهها من فىَّ ، وكنت من أقبح نساء حلب ، فلما عرفتُ ذلك زهدت فى الدنيا الغرارة ، وتوفرت على العبادة ، وأكلت من مِغْزَلى ومِرْدَنى ، فصيرنى ذلك إلى ما ترى ... .

« وتقول الأخرى : أتدرى من أنا يا على بن منصور ؟ ! أنا توفيق السوداء التى كانت

(١) سورة الرحمن الآية ٥٨ .

تخدم فى دار العلم ببغداد ، على زمان « أبى منصور محمد بن على الخازن » ، وكنت أخرج الكتب إلى النسَّاخِ . فيقول : لا إله إلا الله ، لقد كنت سوداء فصرت أنصع من الكافور .. فتقول : أتعجب من هذا والشاعرُ يقول لبعضِ المخلوقين ؟

لو أن من نــوره مثقالَ خَردلةٍ   فى السـودِ كلِّهمُ لا بيضَّتِ السودُ »

ص ٢٨٤ : ٢٨٧

ويلقى زهير بن أبى سلمى « فيجده شابًّا كالزهرة الجنية .. كأنه ما لبس جلبابَ هَرمٍ ، ولا تأفف من البرم ، وكأنه لم يقل فى الميمية :

سئمت تكاليــفَ الحياة ومُن يَعِش   ثمانين حَوْلاً ، لا أبا لكَ ، يَسأمِ »

ص ١٨٢

« فبينا هم كذلك – أى المدعوون إلى مائدة ابن القارح من أهل جنة الغفران – إذ مَرَّ شاب فى يده محجنُ ياقوتٍ .. ، فيسلم عليهم فيقولون : من أنت ؟ فيقول : أنا لبيد بن ربيعة بن مالك بنِ جعفر بن كلاب . فيقولون : أكرمتَ أكرمت ، لو قلتَ : « لبيد » وسكتَّ ، لشُهِرتَ باسمِك وإن صمَتَّ ، فما بالك فى مغفرة ربك ؟ فيقول : أنا بحمد الله فى عيشٍ قصر أن يصفه الواصفون ، ولدىَّ نواصف وناصفون ، لا هرم ولا برم . فيقول الشيخ : تبارك الملك القدوس ، ومن لاتدرك يقينه الحدوسُ ، كأنك لم تقل فى الدار الفانية :

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها   وسؤالِ هذا الناسِ : كيف لبيد ؟

ولم تفه بقولك :

فمتى أهلِكْ فــلا أحفلـه   بَجَلِى الآن من العيش بجلْ !
من حيــاةٍ قد مِللنــا طولَها   وجديــرٌ طــولُ عيشٍ أن يُمَلْ

ألا إنها لجنة ضريرٍ !

* * *

٤ – جنة الأديب الشاعر اللغوى الراوية :

وإذا صحبتَ « أبا العلاء » فى تلك الرحلة الطويلة بالجنة ، فلن تلقى هناك من غير الأدباء والشعراء واللغويين ، سوى رجل واحد هو آدم عليه السلام . وإنما جيء بأبينا « آدم » هنا ليحكم فى قضيتين من القضايا الأدبية التي شغلت النقاد زمانًا ، ولا تزال تشغلهم حتى اليوم ، وأعنى بهما قضيتى الانتحال ، ولغة أهل الجنة ، على ما نعرض له بعدُ فى الحديث عن المسائل الأدبية فى (الغفران) .

واختار « أبو العلاء » للمنادمة فى الفردوس : ثعلبًا ، وابنَ دريد ، ويونس بنَ حبيب الضبى ، وابنَ مسعدة المجاشعى ، والمبرد ، وسيبويه ، والكسائى ، وأبا عبيدة ، والخليل بن أحمد .

واجتمع بالشعراء : الأعشى ، وزهير ، وعبيد ، وعدىٌّ بن زيد ، والنابغتين ، وحسان ، ولبيد ، وجران العود .

كما لقى أبا عمرو بن العلاء ، والشيبانى ، وأبا عثمان المازنى . وقابل عورانَ قيسٍ : وحاورهم ، ومر بأبى ذؤيب ، والحطيئة ، والخنساء .

وفى مأدبة ابن القارح بالجنة « يجمع – له أبو العلاء – فيها من أمكن من شعراء الخضرمة والإسلام ، والذين أصَّلوا كلام العرب وجعلوه محفوظًا فى الكتب ، وغيرهم ممن يتأنس بقليل الأدب » .

« فإذا أتت الأطعمة افترق غلمانه الذين كأنهم اللؤلؤ المكنون ، لإحضارِ المدعوِّين ، فلا يتركون فى الجنة شاعرًا إسلاميًّا ولا مخضرمًا ، ولا عالمًا بشىء من أصناف العلوم ، ولا متأدبًا ، إلا أحضروه » ٢٦٨ : ٢٧٢ .

* * *

وإذا كان « أبو العلاء » قد جعل فى جنته ركنًا للحيات ، وآخر للعفاريت ، فلا تعجب أن يكون هؤلاء وهؤلاء ، أدباء شعراء ، أو ممن خلَّد الأدبُ فى الشعر .

لقد مضى يلتمس عند العفاريت ما لعله يوجد لديهم من أشعار المردة ، وليسألهم عن أشعار الجن التى جمع منها المعروف بالمرزبانى قطعة صالحة (٢٩١) ، فإذا « الخيتعور أحد بنى الشيصبان » ينشده من شعره قصيدتين عدة أبياتهما نحو تسعين بيتا ، وهما من طريف روائع أبى العلاء براعة ولطف حِسٍّ (٢٩٣) . بل إن « الخيتعور » ليس شاعرًا فحسب ، إنما هو أيضًا يقرأ ويملى : « وأنا الذى أنذرتُ الجن بالكتاب المنزل .. أدلجتُ فى رفقةٍ من الخابل نريد اليمن ، فمررنا بيثرب فى زمان المعو – أى الرطب – فسمعنا قرآنا عجبًا ، ﴿يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا﴾[1]، وعدت إلى قومى فذكرت لهم ذلك ، فتسرعت منهم طوائف إلى الإيمان، وحثهم على ما فعلوه أنهم رُجموا عن استراق السمعِ بكواكبَ محرقات .. » .

وفى روضة الحيات .. نلتقى بحية شاعرة راوية ، يسألها الشيخ : ما تفعل حيةٌ فى الجنة ؟ فتقول إنها « ذات الصفا » التى قال فيها « النابغة » قصيدته :

وإنى لألقى من ذوى الضغن منهُم   وما أصبحتْ تشكو من البَثِّ ساهِرَه
كَما لقيتْ ذاتُ الصفـــا من خليلها   وكانت تَدِيهِ المـــالَ غِبًّا وظاهره

وتروى القصيدة كاملة (٣٦٤) غفران .

ثم تعرض له حيّة أخرى ، فقيهة قارئة ، تقول إنها كانت تسكن دارَ « الحسن البصرى » فتلقتْ منه الكتاب–قراءته للقرآن– فلما مات انتقلت إلى جدارٍ فى دار « أبى عمرو بن العلاء»،

(١) سورة الجن الآية ٢ .

ثم انتقلت إلى الكوفة فأقامت فى جوارِ « حمزة بنِ حبيب » . وقد سمعت هؤلاء جميعًا ، ونقلت عنهم القراءات . وهى إلى جانب ذلك عالمة بأسرار العربية ، فقيهةً بالنحو (٣٦٧) .

ولم ينس « أبو العلاء » الأديبُ وهو يقسم جنته ، أن يجعل مكانَ الرُّجَّز منها متواضعًا فى الأطراف . يناسبُ درجتهم فى الشعر ، فإن الرَّجَز عنده لمن سفسافِ القريض (٣٧٤) .

هكذا تراها جنَة أدباء وشعراء ، يُنزِلهم « أبو العلاء » منها منازلهم التى اختارها .

* * *

ولنذكر أن فى الجنة من غير الشعراء وأهل الأدب :

القيان اللواتى لم ينس أن تكون منهن « أم عمرو » التى يقول فيها الشاعر :

تَصُدُّ الكأسَ عنا « أمُّ عمرٍ» وكان الكأسُ مجراهــا اليمينا
ومــا شــرُّ الثــلاثةِ أمَّ عمرو بصاحبِــك الذى لا تصبَحينــا

ص (٢٧٨)

وفيها الحورُ ، والنساء .. ومن أهل الطرب والغناء : الغَريضُ ، ومَعْبَدٌ ، وابنُ مِسْجَجٍ ، وابن سُرَيْج ، وإبراهيم وإسحق الموصليان ، وبَصْبَص ، ودنانير ، وعِنان ، والجرادتان .

لكنّ هؤلاء جىء بهم لإحياء مجلس غناء فى المأدبة الكبرى التى دعا إليها « ابنُ القارح » كلَّ شاعر فى الجنة ومتأدب وعالم بأصناف العلوم — (٢٧٢ : ٢٧٣) .

وشأن هؤلاء المغنين والمغنيات ، والحورِ والقيان ، شأنُ الغلمان (٢٦٩) ، والطهاة والسقاة ، والولدان المخلدين الذين جىء بهم لخدمة أهل جنة الغفران من الشعراء والأدباء واللغويين . (٢٧١ : ٣٠٩) .

* * *

وقد عقد « أبو العلاء » فى جنته مجالسَ أدبية حافلة ، آثار فيها طائفة من المسائل اللغوية والقضايا الأدبية ، وحقق بعض مسائل هامة من تاريخ الأدب ، واستنشد الشعراء ما أحبَّ من روائع قصائدهم ، وسأل اللغويين عمَّا أراد ، مما يأتى فى مكانه .

ولم يشأ « أبو العلاء » أن تحول رهبةُ الحشر دون عقد أحد هذه المجالس ، كالذى ذكره ابن القارح قال : « وكنت لقيت فى المحشر شيخًا لنا كان يدرس النحوَ فى الدار العاجلة يعرف بأبى علىٍ الفارسى ، وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون : تأولتَ علينا وظلمتنا . فلما رآنى أشار إلىّ بيده فجئته ، فإذا عنده طبقةٌ منهم « يزيد بن الحكم الكلابى » وهو يقول : ويحك أنشدت عنى هذا البيت برفع الماء ؟ ، يعنى قوله :

فليت كَفَافًا كان شـَرُّك كلـه وخيرُك عنى ما ارتوى الماءَ مرتوى

ولم أَقُلْ إلا الماءَ .. » (٢٥٤) .

وعلى هذا النحو يتقدم الشعراء والرجاز ، محاسبين منكرين ، يلومونه على تأوُّله ، فيتدخل « ابنُ القارح » لنجدته :

« فقلتُ : يا قوم ، إن هذه أمورٌ هينة فلا تُعْنِتُوا هذا الشيخ ، فإنه يَمُتُّ بكتابِه في القرآن المعروفِ بـ (كتاب الحجة) ، وإنه ما سفَك لكم دمًا ، ولا احْتَجَنَ عنكم مالاً . فتفرقوا عنه » (٢٥٥) .

إلى هذا المدى من النشاط والحركة والطرافة ، تبلغ المجالس الأدبية التي عقدها « أبو العلاء » في عالمه الآخر ، وإن منها ما يضعه بين المخرجين المشهود لهم بالبراعة والقدرة ، وبحسبي أن أُشير إلى حديث الضيوف في مأدبة الجنة (٢٧٩) وإلى مجلسه الأدبي مع أبي هدرش في جنة العفاريت (٢٩٠ : ٢٩٣) ، وقصة الحية الفقيهة (٣٦٧) ، وعراكه الأدبي مع الرجَّز (٣٧٥) ، وغيرها مما حفلت به (رسالة الغفران) شاهدًا للحيوية التي بثَّها الأديب في عالمه الآخر ، والفردوس الذى تمثله الأديب .

* * *

وعلى كثرة ما حشد « أبو العلاء » في جنته من صنوف الملاذ الحسية والمتع المادية ، تراه قد جعل للأديب واللغة المكانة الرفيعة في عالمه الآخر :

فحديثُ الندامى شعر ولغة .

وحديث الطعام في مأدبة الجنة لغة وأدب ورواية ..

والجوارى يرقصن على توقيع شعر « الخليل » :

إن الخــليط تصــدعْ   فَــطِرَ بـدائك أو تَــعْ

ص ٢٧٩

والقيان يترنمن بفائية « جِران العود » .

حملْنَ « جِرانَ العود » حتى وَضَعْنَهُ   بعليــاء في أرجائهـا الجنُّ تعزفُ

وبحائية « أوس » :

هبَّت تلــومُ وليست ساعة اللاحى   هلا انتظرتِ بهذا اللومِ إصباحى ؟ !

٢٧٥

وداليةِ « النابغة » :

أمن آل « مَيَّةَ » رَائِــحٌ أو مغتدِ   عجــلانَ ذا زادٍ وغـيرَ مــزوَّدِ

٢١٣

وميمية « المخبل السعدى » :

ذَكَرَ « الربــابَ » وذكرُهـا سُقْمُ   وصَبَا ، وليس لمــنْ صبَا عــزْمٌ

٢٢٤

بل يتخاصم المتخاصمون ويتنافر المتنافرون بالشعر والأدب .

* * *

و « أبو العلاء » الأديب الشاعر ، هو الذى جعل الشعر فى جنته وسيلة إلى الغفران : فحُرمة « الأعشى » قصيدته الدالية :

ألا أيهذا الســائلى : أيــن يَمَّمَتْ   فإنَّ لهــا فى أهلِ يثربَ موعدا

١٧٨

و « الحطيئةُ العبسى » وصل إلى الشفاعة بالصدق فى قوله :

أبتْ شفتاى اليـــومَ إلا تكلمًا   بهجــرٍ ، فــلا أدرى لمن أنا قائله

٣٠٧

و « عبيد بن الأبرص » يُطْلَقُ من القيود والأصفادِ ، وينقَل من الهاويةِ إلى الجنة بقوله :

من يسأل النـاسَ يحرمـوه   وسَـائِلُ اللّهِ لا يخيبُ

١٨٦

* * *

وفى الحشر ، نرى « ابن القارح » يتوسلُ إلى خزنةِ الجنة ، بقصائد ينظمها فيهم ويَسِمُها بأسمائهم : (٢٤٩ ، ٢٥١) .

و « لبيد بن ربيعة » يدعو صحبه فى الجنة ، إلى منزله بالقيسية ، — أحد أحياء الفردوس — ويقسم عليهم ليذهبُن معه « فيمشون قليلاً ، فإذا هم بأبيات ثلاثة ليس فى الجنة نظيرُها بهاءً وحسنًا ، فيقول لبيد : أتعرف أيها الأديبُ الحلبى هذه الأبيات ؟ فيقول : لا والذى حجَّت القبائل كعبته ، فيقول :

أما الأولُ فقولى :

إن تقوى ربِّنا خيرُ نَفَلْ   وبإذنِ الله رَيْثِى وعَجَلْ

وأما الثانى فهو قولى :

أحمــدُ الله فــلا نِدَّ لــه   بيديه الخيرُ ، ما شاء فَعَلْ

وأما الثالثُ فقولى :

مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الخير اهتدى   ناعمَ البالِ ، ومن شاءَ أضَلْ

صيرها ربىّ اللطيف الخبير أبياتًا فى الجنة ، أسكنها أُخرَى الأبد ، وأنعم نعيمَ المخلد » (٣١٥) .

* * *

و« أبو العلاء » ، يرى لذته الكبرى فى الأدب واللغة ، وهو حريص عليها ، يلقِّن ابن القارح

أن يدعو الله ألا يحرمه منها ، إذ يقول له « عدى بن زيد » : لقد رُزِقتَ ما يجب أن يشغلك عن القريض . فيجيب ابن القارح : « إنى سألتُ ربى – عز سلطانهُ – أن لا يحرمنى فى الجنة تلذذى بأدبى الذى كنت أتلذذ به فى عاجلتى ، فأجابنى إلى ذلك : ﴿وله الحمدُ فى السموات والأرض وعَشيًّا وحين تظُهرون﴾ [1] .

ويسأل « الشماخَ عن قصيدتين له فيقول « الشماخُ » : لقد شغلنى عنهما النعيمُ الدائم فما أذكر منهما بيتًا واحدًا . فيقول لفرط حبِّه الأدبَ وإيثاره تشييدَ الفضل : لقد غفلتَ أيها المؤمنُ وأضعتَ ! » .

ويعجب شعراء الجنة من كثرة حفظ ابن القارح حتى يقول قائلهم : « وإنَّ حِفظَك لمبقىٌّ عليكَ ، كأنك لم تشهد أهوالَ الحشر ! » .

هكذا لم يطق « أبو العلاء » أن يُحرم هذه المتعةَ الكبرى ، وهكذا شاء الأديب اللغوى أن تكون جنته .

وسوف تراه فى زيارته القصيرة للنار ، لا يريد أن يُحرم متعته الأدبية ، فكانت له هناك مشاهدُ ومواقف أدبية ولغوية ونقدية ، نفصلها فى الحديث عن « جحيم الغفران » .

* * *

(١) سورة الروم الآية ١٨ .

جحيم الغفران

نذكر هنا ما ذكرناه فى الجنة من تأثر « أبى العلاء » فى تصويره للعالم الآخر ، بالصورة الإسلامية ، والشعر القديم ، والأساطير ، يبدو تأثره بالقرآن واضحًا فى الألفاظ والصور : فلقد سمى دار العذاب فى عالمه الآخر ، بأسماء أربعة وردت جميعًا فى القرآن : النار ، والجحيم ، وجهنم ، وسقر .

كما نقل إلى جحيمه من الألفاظ القرآنية :

الزبانية ، والأغلال ، والسلاسل ، ومقامع الحديد ، والسعير .

وهو يستحضر مشاهد بعينها من « القرآن » فى رحلته بابن القارح إلى الجحيم فيقول :

« ويبدو له أن يَطَّلِعَ إلى أهل النار فينظر إلى ما هم فيه ، ليعظم شكره على النعم ، بدليل قوله تعالى : ﴿قال قائل منهم إنى كان لى قرين . يقول أئنكَ لمن المصدقين . أئذا متنا وكنّا ترابًا وعظامًا أئنا لمدينون . قال هل أنتم مُطّلعون . فاطَّلع فرآه فى سواء الجحيم﴾[1] » (٢٨٩) .

وفى الحوار الذى أجراه بين ابن القارح وإبليس : يقول اللعين للشيخ :

« وإن لى إليك حاجةً ، فإن قضيتَها شكرتْكَ يدُ المنون . فيقول : إنى لا أقدر لك على نفع ، فإن الآية سبقت فى أهل النار ، أعنى قوله تعالى : ﴿ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنةِ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكُم الله ، قالوا إن الله حرَّمهما على الكافرين﴾[2] .

على هذا النحو ، يتمثلُ « أبو العلاء » بآيات القرآن الكريم ، فى وصف الجحيم ، وهو إذ يحاور إبليس ، ويخاطب أهل النار ويجادلهم ، ويُذكِّر « الأخطل » بخطيئاته ، لا يبعد عمًّا فى القرآن ، حيث يتراءى أهلُ الجنة وأهلُ النار ويتخاطبون ، فذلك قوله تعالى :

﴿يوم يقول المنافقون والمنافقاتُ للذين آمنوا انظرونا نقتبسْ من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا فضرب بينهم بسور له بابٌ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبله العذاب ، يُنادُونَهُمْ ألم نكنْ معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسَكم وتربَّصتُم وارتبتم وغرَّتكُمُ الأمانىُّ حتى جاء أمرُ الله وغرَّكم بالله الغرور ، فاليوم لا يؤخذُ منكم فِديةٌ ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصيرُ﴾[3] .

* * *

(١) سورة الصافات : الآيات ٥١ : ٥٥ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٥٠ .

(٣) سورة الحديد : الآيات ١٣ : ١٥ .

كذلك يستعير « أبو العلاء » هنا – كما فعل فى الجنة – صورًا من الشعر القديم ، ويمثلها فى جحيمه مشخصة .

يمضى « فإذا هو بامرأة فى أقصى الجنة ، قريبة من المطلع إلى النار ، فيقول : من أنتِ ؟ فتقول : أنا الخنساء السلَمية ، أحببت أن أنظر إلى صخر فرأيته كالجبل الشامخ والنار تضطرم فى رأسه . فقال لى : « لقد صَحَّ مَزْعَمُكِ فىَّ » ، يعنى قولى :

وإن « صخرًا » لتأتمُّ الهداةُ به كأنه عَلَمٌ فـى رأسِهِ نـارُ

(٣٠٨)

« وينظرون فإذا عنترة العبسى مُتَلَدِدٌ فى السعير ، فيقول : ما لك يا أخا عبس ؟ كأنك لم تنطق بقولك :

ولقد شربتُ من المدامة بعدما ركد الهواجرُ ، بالمشوف المُعْلَمِ
بزجـاجةٍ صفـراء ذاتِ أسِرَّة قُرِنت بأزهـرَ فى الشمال مُفَدَّم»

(٣٢٢)

وسأل عن الشنفَرى الأزدى « فألفاه قليلَ التشكي والتألم لما هو فيه ، فيقول : إنى لا أراك قَلِقًا مثل قَلَقِ أصحابك ، فيقول : أجل ، إنى قلتُ بيتًا فى الدار الخادعةِ ، فأنا أتأدبُ به حيرىَّ الدهر ، وذلك قولى :

غوى فغوتْ ، ثم ارعوى بعدُ وارعوتْ ولَلصَّبْرُ إن لـم ينفـع الشكوُ أجملُ

(٣٥٨)

على أنه إذا كانت مادة الجحيم فى (الغفران) مستمدة كما رأينا من القرآن الكريم ، والشعر القديم ، فإن ابا العلاء صاغها على طريقته ، فجاءت معبرة عن عالمه النفسى بكل ما يضطرب فيه من هواجس وهموم ومخاوف ، جاءت تحمل طابعه الخاص : طابع بشر ، محروم ، ضرير ، أديب لغوى ناقد . .

* * *

وأول ما يلفتك فيها ، غلبة الطابع الإنسانى عليها :

فأبو العلاء يقتصد فى تصوير العذاب ، إلى حد لا نعرف له مثيلاً فيما بين أيدينا من صور الجحيم : لقد رأيناه يستحضر آيات النعيم فى القرآن ، ويستعير صور اللذة من شعر الأقدمين ، ثم يجرى خياله فيها ملء عنانه ، ويمضى فى رحلته بالفردوس إلى « أبعد ما يناله الوهم ، وأقصى ما يدركه الخيال » .

فإذا ما مضى بابن القارح فى الرحلة إلى الجحيم ، رأيناه يوجز فى وصف مشاهد العذاب ،

ويكتفى منها بقدر قليل لا يمثل ذلك الهول الأكبر الذى وُصِفَتْ به الجحيم فى غير (الغفران) .

ومشاهد العذاب فى جحيم الغفران معدودة محدودة ، لا يكاد أطولُ مشهد منها يتجاوز الأسطر المعدودات ، إذا استثنينا مشهد عذاب الحشر ، الذى اختار له « أبو العلاء » الشوسَ الجبابرة من الملوك ، والنسوة ذوات التيجان ، والشبابَ من أولاد الأكاسرة ، وهذا - كما قلنا فى حديثنا عن سوء الحياة السياسية فى عصره - صدى لسخط « أبى العلاء » على فسادها ، وقبح رأيه فى الحكام ، وقد ختم المشهد القاسي بقوله : « فهتف داعٍ من قبل العرش : ﴿وَاتقوا يومًا تُرجَعون فيه إلى الله ثم تُوَفَّى كلُّ نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون﴾(١) . فكنتم فى لذات الساخرة واغلين ، وعن أعمال الآخرة متشاغلين ، فالآن ظهَر النبأ ، لا ظلمَ اليوم ، إن الله قد حكم بين العباد » (٢٤٨) غفران .

ومن أقصى مشاهد العذاب فى جحيمه ، قوله : « فيطَّلع - ابن القارح - فيرى إبليسَ لعنه الله وهو يضطرب فى الأغلال والسلاسل ، ومقاطعُ الحديدِ تأخذه من أيدى الزبانية .

« فلا يسكت من كلامه إلاّ ورجل فى أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم ، فيفتحهما الزبانية بكلاليبَ من نار ، وإذا هو بشار بن برد » .

وثم مشهد آخر امتُحِنَ به شاعر من أحب الشعراء إلى أبى العلاء ، وهو « أوس بن حجر » لكنه جاء بهذا العذاب ، فى صيحةِ شكوى اليمة مُرّة ، حيث يجيب « أوس » عن سؤال « ابن القارح » فى أبيات رويت لأوسٍ وللنابغة : « قد بلغنى أن نابغةَ بنى ذبيان فى الجنة ، فاسأله عمَّا بدا لك ، فلعله يخبرك ، فإنه أجدر بأن يعى هذه الأشياء ، فأما أنا فقد ذَهَلتُ ، نارٌ توقَد ، وبنانٌ يُعقَد ، إذا غلَب علىَّ الظمأ رُفع لى شىءٌ كالنهر ، فإذا اغترفتُ منه لأشربَ وجدتُه سعيرًا مضطرمًا .. » (٣٤١) .

هذه هى أقسى مشاهد العذاب التى عرضها « أبو العلاء » فى جحيمه ، واختار لأولها الجبابرة ومن إليهم ، وللثانى إبليس ، وأما الثالث فكان صرخة شكوى .

وفيما عداها ، نرى « أبا العلاء » يوجز فى وصف العذاب ، ويُلجم خيالَه عن المضى فى تصويره وتشخيصه . فهو أحيانًا يقدم لنا الشعراء فى جهنم بعبارات تصف عذابهم وصفًا سريعًا موجزًا :

فالشاعر « علقمة بن عَبَدة » عابسٌ يُستَضْحَكُ (٣٢٨) .

وعنترة العبسى متلدد فى السعير (٣٢٢) ، وطرفة يشتهى الهدوء والسكون (٣٣٩) ، وأبو كبير الهذلى يقول : وإنما كلامُ أهلِ سقَر ويلٌ وعويل (٣٤٤) ، والأخطلُ التغلبى

(١) آية ٢٨١ سورة البقرة .

يتضوَّر ، وإن بقى له من خلّو البال ما جعله يحنُّ لأيام « يزيد » ، ويروى لابن القارح ذكرياته معه (٣٤٥) . وقد يقدم لنا عددًا من شعراء الجحيم دون أن يشير بكلمة واحدة إلى عذابهم ، كما فَعَلَ مع : امرئ القيس ، والحارث البشكرى ، ومهلهل – عدى بن ربيعة – ويقدم « الشنفرى الأزدى » مُحتملاً للعذاب فى الجحيم ، « قليل التشكى والتألم مما هو فيه » .

* * *

أين هذه الصورة لجحيم الغفران فى إيجازها ، وهونها ، من الصور الأخرى للجحيم فى الأديان والأساطير والفنون ؟

أين هى من جحيم البرهميين المملوءة بأخبث أنواع العقارب والحيات وجوارح الطير ؟

أو من جحيم الأساطير اليونانية ، وجحيم « دانتى » بأهوالها وظلماتها المتراكمة ؟

أو من جحيم أهل الكتاب ، « تلك المهواة المرعبة التى نارُها لاتطفأ ، ودودها لا يموت » ؟

بل أين هى من صورة الجحيم فى القرآن الكريم ؟

﴿إن المجرمين فى ضلال وسُعُر . يومَ يُسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مَسَّ سقر﴾ (القمر : ٤٧ – ٤٨) .

﴿فالذين كفروا قُطِّعت لهم ثيابٌ من نار يُصَب من فوق رءوسهم الحميم . يُصهَر به ما فى بطونهم والجلود . ولهم مقامعُ من حديد﴾ (الحج : ١٩ – ٢١) .

﴿إذ الأغلالُ فى أعناقهم والسلاسلُ يسحبون .فى الحميم ثم فى النار يُسجرون﴾ (غافر : ٧١ – ٧٢) .

وأما وقود هذه النار الكبرى ، فهو هؤلاء الذين حقّت عليهم اللعنة ، وباءوا بغضب من الله .

﴿فكانوا لجهنم حَطَبًا﴾ (الجن : ١٥) .

﴿وقودُها الناسُ والحجارة ، عليها ملائكةٌ غِلاظٌ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ (التحريم : ٦) .

﴿إنكم وما تعبدون مِن دون الله حصبُ جهنمَ أنتم لها واردون﴾ (الأنبياء : ٩٨) .

هم للنار وقود دائم متجدد ، لا يريحهم الهلاكُ ، ولا ينتهى عذابُهم بالاحتراق والفناء :

﴿إن الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم نارًا كلما نضِجتْ جلودُهم بدَّلناهم جلودًا غيرَها ليذوقوا العذاب﴾ (النساء : ٥٦) .

ولأهل النار مِهادٌ ، وطعامٌ ، وشراب ، ولباس .

ولكنه مهاد وبئس المهاد : وثيابٌ قُطِّعت من نار .

﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوهَ بئس الشرابُ وساءت مُرتَفقا﴾ (الكهف : ٢٩) .

﴿هل أتاك حديثُ الغاشية . وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى نارًا حامية . تُسقى من عينٍ آنية . ليس لهم طعامٌ إلاّ من ضريع﴾ (الغاشية : ١- ٦) .

﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجرٍ من زقّوم . فمالئون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شُرْبَ الهيم﴾ (الواقعة : ٥١ – ٥٥) .

﴿إنها شجرةٌ تخرج فى أصلِ الجحيم . طلعُها كأنه رءوسُ الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوْبًا من حميم﴾ (الصافات : ٦٤ – ٦٧) .

﴿إن شجرةَ الزقوم . طعام الأثيم . كالمهل يغلى فى البطون . كغَلْى الحميم . خذوه فاعتِلوه إلى سواءِ الجحيم . ثم صبُّوا فوق رأسِه من عذابِ الحميم . ذُقْ إنكَ أنت العزيز الكريم﴾ (الدخان : ٤٣ – ٤٨) .

وفى جهنم ظلٌّ ، لكنه ﴿مِن يَحموم . لا بارد ولا كريم﴾ (الواقعة : ٤٣ – ٤٤) .

﴿انطَلِقُوا إلى ظِلٍّ ذى ثلاث شُعَب . لا ظليل ولا يُغْنى مِنَ اللهب . إنها ترمى بشرر كالقصر. كأنه جمالات صُفْر . ويلٌ يومئذٍ للمكذبين﴾ (المرسلات : ٢٩ – ٣٤) .

وليس لهذا العذاب عنهم دافع ، ولا لهم عن الجحيم مفر : ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق﴾ (الحج : ٢٢) .

والقرآن الكريم يُجرد من جهنم شخصيةً واعية ، مُريدة ، نهمة ، تطلب الخاطئين :

﴿إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقًا وهى تفور . تكاد تَميَّزُ من الغيظ كلما أُلقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير﴾ (الملك : ٧ – ٨) .

﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأتِ وتقول هل من مزيد﴾ (ق : ٣٠) .

... ...

هذا بعض ما وصف به القرآن الكريم الجحيم وعذابها ، فأين منها وصف العذاب فى جحيم الغفران ؟ على أنه مهما يكن من ترفق أبى العلاء فى وصف جحيم الغفران ، فإن الجحيم تبقى جحيما .

* * *

والمتحدثُ عن الطابع البشرى فى جحيم (الغفران) ، لا يفوته أن يلحظ صنيع « أبى العلاء » ، فى الإبقاء على بشرية المعذبين من أصحاب النار ، يأبى أن يجردهم منها ، أو يجعل العذابَ يُخرجهم عن مألوف عاداتهم ، ويستلّ منهم أهواءهم :

هذا الشنفرى الأزدى « قرينٌ مع تأبط شرًّا كما كان فى الدار الغرارة » – (٣٥٨) . وذاك

« الأخطل » يحن لأيام « يزيد » – بن معاوية ، ويروى من كفرياته ، ما يقول معه ابنُ القارح : « عليكَ البَهْلَةُ ! قد ذهلت الشعراءُ من أهل الجنة والنار عن المدح والنسيب ، وما شُدِهْتَ عن كفرِك ولا إساءتك » (٣٤٩) .

و « أبو العلاء » ، يرق لمن أحب مِن شعراء جحيمه ، وإن تمثل شخصية ابن القارح فى تعريضه بأهل النار ، والشماتة فيهم ، ولعنهم ، وشتمهم .

يسمع حديث الأخطل ثم يلعنه ،ويتعرض لإبليس شاتمًا لاعنًا شامتًا .

ثم إذا سمع إبليسُ لعنةَ « ابن القارح » للأخطل ، أغرى به الزبانيةَ قائلاً فى خبث شيطانى :

« ما رأيتُ أعْجَزَ منكم إخوانَ مالك ! فيقولون : كيف زعمتَ ذلك يا أبا مُرَّة ؟ فيقول : ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه ؟ قد شغلكم وشغل غيرَكم عمَّا هو فيه ، فلو أن فيكم صاحبَ نحيزةٍ قوية ، لوثب وثبةً حتى يلحق به فيجذبه إلى سَقَر . فيقولون : لم تصنع شيئًا يا أبا زوبعة ، ليس لنا على أهل الجنة سبيل ! » (٣٤٩) غفران .

ومن أهل النار ، مَن يزجرون « ابن القارح » ، وهو السعيد المغفور له ، ويقولون له فى تأنيب وإنكار :

« فعليكَ شغلك أيها السليم » .

« إنك لقريُر العين لا تشعر بما نحن فيه ، فاشغَل نفسك بتمجيد الله » .

« فاذهبْ لطيتك ، واحذرْ أن تُشغَل عن مطيتك » .

« ألم تُنهوا عن الشماتِ يا بنى آدم ؟ ولكنكم بحمد الله ما زُجِرتم عن شيء إلا ركبتموه » .

وإذا كان نعيم الجنة فى الغفران لم يهدر بشريةَ أهلها ، فكذلك ترى « أبا العلاء » لا يهدر بشرية أصحاب النار ، ولا يخلى جحيمه – كما رأيت – من الحقد ، والشتم ، والشماتة ، والتحريض ، والندم ، والشكوى ، والنسيان .

هذه جحيم بشر ، وإنها أيضًا :

جحيم الضرير :

يأبى هنا – كما فعل فى الجنة – إلا أن يُرد الأعمى بصيرًا ولو أرته عيناه أهوالَ العذاب ، فأول شاعر تلقاه فى رحلة الجحيم « بشار بن برد » ، جاء به « أبو العلاء » فى أول العرض ، مبصرًا « قد أُعطى عينين بعد الكَمَهِ ، لينظر إلى ما نزل به من النكال » ٣١٠ .

وهى صورة على قسوتها ، لا تُخفى شخصية راسمها ، وما أحسب أبا العلاء هنا قد غاب عنه قوله تعالى فى سورة طه : ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشةً ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال ربِّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرًا﴾ .

لكن البشرية غلبته ، فشق عليه أن يتصوَّر عالمه الآخر بغير إبصار ، ولو كان ذلك فى أطباق الجحيم .

* * *

جحيم الأديب الشاعر اللغوى ، الراوية الناقد :

من أمتع المواقف فى جحيم الغفران وأدلها على شخصية « أبى العلاء » ، تلك المشاهد الأدبية الحافلة التى قدمها فى جحيمه . لا تلقى فيها من غير الشعراء سوى إبليس ، وشخصيته التى شخَّصَهُ بها « أبو العلاء » هنا ، شخصية شرير أديب ، قارئ ، راوية ، يتلو آيات من القرآن الكريم ، ويروى شعرَ بشار !

على أنه لا يكاد يذكر « بشارًا » حتى يبدأ موكبُ الشعراء ،فلا تعود ترى على المسرح غيرهم ، اللهم إلا ما يقتضيه الموقف من شخصيات أخرى كالزبانية .

ثم إن « أبا العلاء » يُبقى لكثير منهم على أدبه وحفظه ، ويدع لهم فى الجحيم ، من الذاكرة والجلد والوعى ، ما يستطيعون معه أن يناقشوا ويحاوروا ويجادلوا ، ويدفعوا عن شعرهم عبثَ النقَلة وأخطاءَ الرواة .

وفى جحيم (الغفران) ، من الحوار الأدبى الممتع كثير ، وقد يطول أحيانًا حتى يستغرق صفحاتٍ ذات عدد . كهذا الذى كان مع « امرئ القيس » (٣٢٢ :٣٢٧) ، كما طال الحوار الأدبى مع مهلهل ، وعنترة العبسى ، والأخطل ...

وترى بين شعراء الجحيم مَن يُلقى الرأى ناقدًا : فعنترةُ يسمع شعرًا لأبى تمام فيقول : « أما الأصلُ فعربى ، وأما الفرعُ فنطق به غبى ، وليس هذا المذهبُ على ما تعرف قبائل العرب » .

و « تأبط شرًّا » ، يُسأل عَمَّا رُوى عنه من نكاح الغيلان ، فيقول : « لقد كنا فى الجاهلية نتقول ونتخرص ، فما جاءك عنا مما يُنكره المعقولُ فإنه من الأكاذيب ، والزمن كُله على سجية واحدة ، فالذى شاهدَه معدُّ بنُ عدنان ، كالذى شاهده نُضاضةُ ولد آدم » .

و « مهلهل » ، يصغى إلى أقوال النحويين فى بيته :

أرعــدوا ساعةَ الهياج وأبرقـ ـنا كما تُوعِدُ الفحولُ الفحولا

فيَسأل عما أنكروا منه ؟ فيقول له ابن القارح : « زعم الأصمعى أنه لا يقال : أرعد وأبرق ، فى الوعيد ولا فى السحاب . فيقولُ مهلهل : إن ذلك لخَطأٌ من القول ، وإن هذا البيتَ لم يقلْه إلا رجلٌ من جِذْم الفصاحة : إمَّا أنا وإما سواى ، فخذْ به وأعرِضْ عن قولِ السفهاء » (٣٥٦) .

وقد يزهد بعضُ شعراء الجحيم في الحديث عن الشعر واللغة ، لكنه لا يلبث أن يغضَب لشعره فينبرى مدافعًا عنه ، كما فعل« عمرو بن كلثوم » حين سُئل عن السناد في قوله :

كأن متونَهن متونُ غُدْرٍ   تُصفقها الرياحُ إذا جرينا

فيقول : « إنك لقريرُ العين لا تشعر بما نحن فيه ، فاشغل نفسك بتمجيد الله واترك ما ذهبَ فإنه لا يعود . وأما ذِكرُك سِنادى فإن الإخوةَ ليكونون ثلاثةً أو أربعةً ، ويكون فيهم الأعرجُ وَالأبخَق فلا يعابون بذلك ، فكيف إذا بلغوا المائةَ في العدد ؟ » (٣٣٠) .

كذلك قد يسكت بعضُهم عن الجواب ، كما فعل الحارث اليشكرى وبشار ، وصخر الغى ، والمرقش الأصغر ، لكن « أبا العلاء » لا يصرفه عن بغيته منهم صمتُهم وسكوتهم ، بل يمضى فى سؤالهم عمَّا يشغله من شعرهم وأخبارهم ، وإن بدا له من حالِ المسئول أنه مشغولٌ عنه بما هو فيه . حتى إذا أتم حديثَه كما شاء ، انتقل إلى سواه غيرَ منتظر جوابًا .

تراه مثلاً يسأل « علقمة » عن بعض شعره ، فإذا قال له علقمة : « إنك لتستضحك عابسًا ... فعليك شغلك أيها السليم » لم يمض عنه ، وإنما استمر فى سؤاله ومناقشته على هذا النحو :

« ولو صادفتُ منكَ راحةً لسألتك عن قولك :

كأس عزيز من الأعناب عتَّقها   لبعضِ أربابهـــا حانيةٌ حُومُ

فقد اختلف الناس فى قولك : حوم ، فقيل : أراد حُمًّا أى سُودا ، فأبدل من إحدى الميمين واوا . وقيل أراد حَوْمًا أى كثيرًا ، فضمَّ الحاءَ للضرورة ؛ وقيل : حُومٌ يُحام بها على الشَّرْب أى يُطاف . وكذلك قولك :

يُهدى بها أكلفُ الخدَّين مُختَبَرٌ   من الجمـال كثيرُ اللحمِ عَيْثُومُ

فَرُوِىَ (يهدى) بالدال غير المعجمة ، و (يهذى) بذالٍ معجمة . وقيل : (مختبر) من اختبار الحوائل من اللواقح ، وقيل .. ، ... » - (٣٢٧ : ٣٢٩) .

ثم يدعه غير منتظر جوابه إلى « عمرو بن كلثوم » .

وتراه فى موقف آخر ، يسأل « أوسَ بن حجر » عن الأبيات التى تروى له وللنابغة ، فإذا صاح به « أوس » أن يسأل النابغة ، فإنه - فى الجنة - أجدر بأن يعى مثل هذه الأشياء ، لم ينصرف « ابن القارح » . بل استمر يقول : « إنما أردتُ أن آخذ عنك هذه الألفاظ ، فأتحفَ بها أهلَ الجنة ، فأقول : قال لى أوسٌ ، وأخبرنى أبو شريح ، وكان فى عزمى أن أسألك عمَّا حكاه سيبويه فى قولك ... » (٣٤١) .

يطيل « أبو العلاء » فى هذه الأحاديث ، لا يصرفه عنها انصرافُ شعراء النار عنه ، ولا يلهيه هولُ عذاب يشهده ، أو قسوةُ مشهد يراه .

* * *

وجحيم الغفران تبدو أحفلَ من جنتها بهذه الأحاديث الأدبية الممتعة .ولعل حشد الملاذ المادية لابن القارح فى الجنة هو الذى جعل هذا الجانب الأدبى لا يبرز بينها فى مثل القوة والكثرة التى يظهر بها فى الجحيم ، حيث لا تلمح فى صورتها المظلمة العبوس ، غير هذا اللون المشرق من المتعة الأدبية ، متفردًا متميزًا .

وما أكثر ما تسمع فى الفردوس عن نسيانِ الشعراء لشعرهم ، واشتغالهم عنه بما ينعمون به من لذائذ لا تخطر على بال !

« النابغة الجعدى » مثلا ، يُنشده « ابنُ القارح » بعضَ قصائده البديعة فيقول : « فى هذا الشعر ألفاظٌ لم أسمع بها قط .فيقول الشيخ : يا أبا ليلى ، لقد طال عهدُك بألفاظ الفصحاء ، وشغَلَك شرابٌ ما جاءتك بمثله بابلُ ولا أذرِعات ، ونَثَتْك لحومُ الطير الراتعةِ فى رياض الجنة ، فنسيتَ ما كنتَ عرفتَ » .

و « لبيد » يُصِرُّ على هجر الشعر فى الجنة ويقول : « هيهاتَ هيهات ، إنى تركتُ الشعر فى الدار الخادعة ، ولن أعود إليه فى الدار الآخرة ،وقد عُوِّضتُ عنه ما هو خير وأبر » .

و « الشّماخ » ، يسأله الشيخُ أن ينشده قصيدتيه اللتين على الزاى ، وعلى الجيم ، فيقول : « لقد شغلنى عنهما النعيمُ الدائم فما أذكر منهما بيتًا واحدًا » .

و « تميم بن أُبىّ » ، يُسأل عن لفظ المِرانة فى بيتٍ له ، فيجيب : « والله ما دخلتُ الجنةَ ومعى كلمة من الشعر ولا الرجز » .

و « الخليل بن أحمد » يُسأل عن أبيات له ترقُص عليها الحور ، فلا يذكر منها شيئًا ، وقد كان أذكرَ العرب فى عصره .

وغيره ، وغيره ... ...

وإنا لنسمع « ابن القارح » ، يقول بعد أن همَّ بانتساخ شعر الجن : « ولست بموفَّق إن تركتُ لذّاتِ الجنة وأقبلتُ أنتسخ آدابَ الجن ، ومعى من الأدبِ ما هو كافٍ ، لاسيما وقد شاع النسيان فى أهل الجنة » .

أجل شاع النسيان فى أهل الجنة ، وشغل الشعراء بلذاتها ..

* * *

وأما فى النار فقد بقى لأهلها حفظٌ كثير ، لا لأن النسيان يمتنع عليهم ، فأبو العلاء حريص على أن يبقى على بشريتهم ، بل لأن أكثر الناسين منهم يشتركون فى الحوار بوعيٍ وإدراك ، ويلقون القولَ الفصلَ فيما يعرض لهم من القضايا النقدية .

فالشاعر مهلهل مثلاً ، لا يمنعه نسيانه بيته الذى اختلفوا فيه ، عن الحكم على ما أنكره النحاة منه فيقول : طال الأبدُ على لَبد ،لقد نسيتُ ما قلتُ فى الدار الفانية ، فما الذى أنكر منه ؟ » فلما حُدِّثَ بذلك عقب على النقاد بقوله : « إن ذلك لخطأ من القول ، وإن هذا

البيت لم يقله إلا رجلٌ من جِذمِ الفصاحة ... » إلى آخر ما سمعت من رأيه ، وقد نقلناه آنفا .

وأُنشِدَ « المرقش الأكبر » أبياتًا رُويت له وليست فى ديوانه :

تخيرتُ من نعمانَ عودَ أراكةٍ لهندٍ ، ولكن مَنْ يبلِّغه هند ؟

فقال : « لقد قلتُ أشياء كثيرةً منها ما نقل إليكم ، ومنها ما لم ينقل . وقد يجوز أن أكون قلت هذه الأبيات ولكنى سرِقتها لطول الأبد . ولعلك تنكر أنها فى هند ، وأن صاحبتى « أسماء » ، فلا تنفر من ذلك ، فقد ينتقل المشببُ من الاسم إلى الاسم ، ويكونُ فى بعض عمره مستهترًا بشخص من الناس ثم ينصرف إلى شخص آخر . ألا تنظر إلى قولى ؟ :

سَفَهٌ تَذَكُّرُهُ « خويلةَ » بعدما حالت ذُرَا نجرانَ دون لقائها »

... ...

(٣٥٧)

* * *

هل لى أن أتساءل عمًّا إذا كان « أبو العلاء » قد شعر فى قرارة نفسه بألم لهؤلاء المعذبين ، وهم شعراء أعزاء عليه ، أثيرون لديه ، فاستبقى لهم فى هذه النعمة الواحدة عزاءً ورحمة ؟ !

أبو العلاء ، الشاعر الإنسان ، لم يكتم عطفه على عدد من شعراء الجحيم ، ولم يُخفِ ألمه لما حاق بهم من عذاب ، وإنه ليواسيهم ويرقّ لهم ، فى صراحة مؤثرة :

يرى « بَشَّارًا » فى أصناف العذاب فيلقن ابن القارح قولَه : « يا أبا معاذ ، لقد أحسنتَ فى مقالك ، وأسأتَ فى مُعتَقدِك .ولقد كنتُ فى الدار العاجلة أذكرُ بعضَ قولك فأترحَّم عليكَ ، ظنًّا أن التوبة ستلحقك » (٣١٠) .

ويصغى إلى حديث « عنترة » فى بعض المسائل الشعرية فيقول : « لقد شقَّ علىّ دخولُ مثلك إلى الجحيم ، وكأن أذنى مصغيةٌ إلى قينات الفسطاط وهى تغرد بقولك :

أمِن سُمَيَّةَ دمعُ العـــين تذريفٌ لو أن ذا منكِ قبلَ اليوم معروفُ »

(٣٢٥)

وينظر فإذا « علقمة بن عبدة » ، فيقول : « أعززْ علىَّ بمكانك ، ما أغنى عنكَ سِمْطَا لؤلؤك - يعنى قصيدتيه التى على الباء : * طحا بك قلبٌ فى الحسانِ طروبُ *

والتى على الميم : * هل ما علمتَ وما استُودِعْتَ مكتومُ *

فبالذى يقدر على تخليصِكَ مِنَ العذاب ، ما أردت بقولك ... ؟ » (٣٢٧)

ويسأل عن « عمرو بن كلثوم ، فيقال : ها هو ذا من تحتك ، إن شئتَ أن تحاوره فحاوره .

فيقول : كيف أنت أيها المصطبح بصحنِ الغانية ؟ ... أعززْ عليَّ أنك قُصِرتَ على شُربِ حميم » ٣٢٩ .

ويعمد لسؤال « طَرفة بن العبد » ، فيقول : « يا بنَ أخى يا طَرَفَة ، خفَّف اللهُ عنك ... لو لم يكن لك أثرٌ فى العاجلة إلا قصيدتك التى على الدالِ لكنتَ قد أبقيت أثرًا حسنًا » (٣٣٤) .

وينادى : أين « عدىّ بن ربيعة » المعروف بمهلهل ؟

ثم يقول له : « أعززْ على بولوجِك هذا المولج ! لو لم آسفْ عليكَ إلا لأجل قصيدتك التى أولها :

أليلتَنـــا بـــذِى حُسَمٍ أنيرِى إذا أنتِ انقضيْتِ فلا تَحُورِى

لكانت جديرةً أن تطيل الأسفَ عليكَ ، وقد كنتُ إذا أنشدتُ أبياتك فى ابنتك المزوَّجة فى « جَنب » تَغْرَوْرِقُ من الحزن عيناى » (٣٥٣) .

ويسأل عن « المرقش الأكبر » ،فإذا هو فى أطباق العذاب ، فيقول :

« خفَّف اللهُ عنكَ أيها الشابُّ المغتَصَبُ ، فلم أزل فى الدار العاجلة حزينًا لما أصابكَ به الرجلُ الغُفَلِىُّ ... » (٣٥٥) .

* * *

مثل هذا ، يصور العالَم الأدبى الذى كان « أبو العلاء » يعيش فيه وهو يشخص ناره وجنته ، كما يصوره التقديرُ الذى تحسه منه وهو يضع الأدبَ فى مكانةٍ رفيعة من النار . فيجعله جديرًا بأن يشفع لصاحبه ، وينيله رحمة اللهْ ، فذلك قوله لعلقمة :

« لو شفعتْ لأحد أبياتٌ صادقةٌ ليس فيها ذكرُ الله سبحانه ، لشفعتْ لك أبياتُك فى وصف النساء ، أعنى قولك :

فإن تسألونى بالنســـاء فإننى بصيرٌ بأدواء النســـاء طبيبُ
إذا شاب رأسُ المرء أو قلّ ماله فليس لـــه فى وُدِّهن نصيب
يُرِدْن ثــراءَ المـــالِ حيث وجدنه وشرخُ الشـــباب عندهن عجيب»

(٣٢٨)

وقوله لبشار : « ... ولقد كنتُ فى الدار العاجلة أذكر بعضَ قولك فأترحم عليك ، ظنًّا أن التوبة ستلحقك ، مثل قولك :

ارجعْ إلى سكن تعيش به ذهبَ الزمانُ وأنت منفرد
ترجـــو غدًا ، وغدٌ كحـــاملةٍ فى الحـــىِّ ، لا يدرون مـا تلد

وقولك :

واهًا لأسماءَ ابنــةِ الأشــدِّ قامتْ تَراءى إذ رأتْنى وحدى

الأبيات (٣١١)

وقد يمتزج هذا الإعزاز للأدب ، بظرف « أبى العلاء » فيبدو المشهد رائعًا جذابًا ، كهذا الذى تراه حين يقف الشيخ سائلاً خزنة النار عن « مهلهل » ، معرِّفًا إياه بأبيات من شعره ، فهو هناك « ينادى : أين عَدِىُّ بنُ ربيعة ؟ فيقال : زِدْ فى البيان . فيقول : الذى يستشهد النحويون بقوله :

ضربتْ صدرَها إلىَّ وقالت يا عَدِيًّا لقد وَقَتْكَ الأواقى

وقد استشهدوا له بأشياء كقوله :

ولقد خبطنَ بيوتَ يشكُرَ خبطة أخوالُنا ، وهمُ بنــو الأعمــامِ

وقوله :

مــا أُرجِّى بالعيش بعد ندامــى كلُّهم قد سُقوا بكــأسِ حِلاق

فيقال : إنك لتُعرِّف صاحبَك بأمرٍ لا معرفة عندنا منه . ما النحويون ، وما الاستشهاد ، وما هذا الهذيان ؟ نحن خزنةُ النّارِ ، فَبَيِّنْ غرَضك تُجَبْ إليه .فيقول : أُريد المعروفَ بمهلهل التغلبى ، أخى كليب وائل الذى كان يضرب به المثل . فيقال : ها هو ذا يسمع حوارك فقلْ ما تشاء » (٣٥١) .

هى جحيم أديب ، شاعر راوية ، ولابد أن تكون كذلك ، فأبو العلاء ، وقد كان الأديب واللغة متعته الواحدة فى دنياه المحرومة الموحشة ،لا تجروُ أحلامه على أن تصوّر له عذابًا ينسيه الأدب واللغة ، ولو كان عذاب جهنم ، ولا يطيق خياله أن يحوم حول مكان صفر من هذه المتعة ، ولو كان فى الدرك الأسفل من النار .

* * *

القسم الثانى

الرد على ما فى رسالة ابن القارح عن :

١ - الزندقة .

٢ - المسائل اللغوية والقضايا النقدية .

بعد تلك الرحلة الطويلة العجيبة إلى العالم الآخر الذى أحضره أبو العلاء مشخصًا ، يبدأ فى الرد على (رسالة ابن القارح) مستجمعًا كل وعيه وحضور ذهنه ، لكى يلقى كاتبها بما ينبغى أن يلقاه به .

ولا نخطىء حس السخرية فى كل ما يجيب به أبو العلاء عمًّا جاء في رسالة ابن القارح ، ابتداء من فقرتها الأولى التى قال فيها يدعو لأبى العلاء : « كتابى - أطال الله بقاء مولاى الجليل ، ومد مدته ، وأدام كفايته وسعادته ، وجعلنى فداءه ، وقدمنى قبله ، على الصحة والحقيقة ، وبعد القصد والعقيدة وليس على مجاز اللفظ ومجرى الكتابة ، ولا على تنقص وخلابة وتحبب ومسامحة .. » .

ما من جملة لأبى العلاء ، ردًّا على ابن القارح ، لا تشى بحس السخرية المرة والتهكم اللاذع ، رغم تلطف أبى العلاء فى مواجهة ابن القارح بصريح رأيه فيه ، وحرصه على أن يحتال له بأقنعة ساترة من أماليه اللغوية والأدبية التى تشد الاهتمام وتثير العجب العُجاب بغناها وحيويتها .

* * *

من العسير أن نقدم هنا دراسة موضوعية لهذا القسم الثانى من الرسالة . حيث تناول أبو العلاء فيه موضوعات شتى حددتها له رسالة ابن القارح ووجهته إليها[١] .

(١) انظر فهرست الموضوعات ، فىنسختنا المحققة من رسالة الغفران ، مع رسالة ابن القارح ، ط الذخائر .

وإذا شق على قارئى القسم الثاني من الغفران أن يلمحوا وحدة سياق تربط بين شتى الموضوعات ، فالأمر فيها لا يعدو أن يكون متابعة واعية من أبى العلاء ، لابن القارح فى رسالته .

على أنه مهما يكن من تعدد هذه الموضوعات ، ففى الإمكان أن نخص بالعناية منها ، حديثه الطويل الحافل عن الزندقة ، وأن نختار نماذج مما عرض له أبو العلاء من مسائل لغوية وقضايا أدبية ونقدية .

* * *

١ – الزندقة فى الغفران

– الغفران وعقيدة أبى العلاء .
– لِمَ تحدث فى الغفران عن الزنادقة .
– آراء لأبى العلاء فى الإلحاد والزندقة .

الزندقة من الموضوعات التى تستحق أن تفرد بالدرس وتخص بالعناية ، فيرجع بها الدارس إلى مناشئها القريبة فى نشاط علم الكلام ، وتصادم الملل والنحل ، وتعارض المصالح والأهواء ، باحثًا عن صلتها الوثيقة بحركة الشعوبية التى عرفها العالم الإسلامى من عهد مبكر ، وأسلم لها قياده بعد انتصارها الحاسم فى المعركة الكبرى بين « الأمين » وأشياعه من العرب ، و« المأمون » وأنصاره من الفرس ، وهى صلة تنبه إليها أستاذنا العميد « الدكتور طه حسين » من زمن ، وردَّ إليها حركة الزندقة المعروفة فى الإسلام .

بل يمضى الدارس المتخصص إلى ما قبل ذلك ، باحثًا عن بذورها فيما داخلَ الفهمَ الإسلامى للدين والقرآن ، من إسرائيليات حملها إليه أولئك الذين دخلوا الإسلام – مخلصين أو كائدين – بتراثهم الفكرى والروحى من الدين والأساطير ، ومن تاريخهم المشتت الذى مزقته شتى التغريبات والهجرات .

وقد يُبعد الباحث ، فينقب فى أغوار الزمن القديم عن الجذور الغائرة للزندقة ، فى تلك التيارات التى اضطرب بها الشرق ، حافلة بأقوال عن الكون والخلق ، والنور والظلمة ، ومقرراتٍ عن مصير العالم وحياته الآخرة .

لكنا نلتزم هنا حدودًا معينة ، فى بحث يُتناول فى غير تخصص ، ضمن دراستنا للغفران ، وهى حدود لا تجاوز بيئة الغفران وصاحبها ، إلا أن تقتضينا دواع لا نملك الإغضاء عنها أو الغض منها ، فماذا نعنى بالزندقة هنا ؟

إذا قلنا (الزندقة) فى الغفران ، فذلك تعميمٌ يجاوز المدلول الاصطلاحى للفظ (زنديق) الذى عُرف فى صدر الدولة العباسية ، وأُطلق على من اعتنقوا « المانوية » التى ترد العالم إلى أصلين من نور وظلمة . والمرجح أن هذا المدلول هو الذى طُبق فى حركة المطاردة التاريخية المعروفة أيام الخليفة « المهدى » بعد منتصف القرن الثانى ، حيث عهد فى كتابه إلى ابنه « الهادى » بالتجرد لهذه العصابة التى ما تزال بالناس حتى تخرجها إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة . وقد جاء فى هذا الكتاب : « فارفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ؛ فإنى رأيت جَدَّك العباس فى المنام قلدنى بسيفين ، وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين » .

ورسالة الغفران تتعرض لهؤلاء ، ولغيرهم من أصحاب النحل والمذاهب ، والمرائين ، والخلعاء رقيقى الدين ، مما يبعُد عن هذا المدلول المحدود الذى أشرنا إليه ، ولكن المتتبع لحركة الإلحاد فى الإسلام ، يلحظ أن لفظ (زنديق) لم يقف عند ذلك المعنى الاصطلاحى ، بل اتسع وشمل كل من اتهم فى عقيدته أو اشتهر برقة دينه ، وقد قام المستشرق « ماسينيون » بهذا التتبع ، مبتدئًا بالأصل الفارسى الأول للكلمة .

وتكفى النظرة إلى (دائرة المعارف الإسلامية) ، وفى كتاب (محنة الحلاج) لمعرفة ما أضيف إلى المدلول الأول من معانٍ استحدثت على الأيام ، حتى تناولت العبث والمجون .

وهذا المدلول الواسع العام ، هو الذى نعنيه حين نتكلم عن (الزندقة فى الغفران) .

ومع أن « أبا العلاء » قد عرّف الزنادقة فى رسالته هذه بأنهم « الذين يسمون الدهرية ، ولا يقولون بنبوة ولا كتاب » (٤٢٩) . إلا أننا نعرض فيما يلى ، لما جاء فى (الغفران) عن هؤلاء ، وعن غيرهم من أصحاب النحل ، والمتهمين برقة الدين .

* * *

الغفران وعقيدة أبى العلاء

كانت عقيدة « أبى العلاء » موضع الاهتمام ومثار الأقاويل منذ كان حتى يومنا هذا ، تحدث فيها معاصروه ، ولا يزال أهل زماننا فيها يتحدثون ، بحيث يندر أن ترى كتابًا عن « أبى العلاء » لم يتعرض لعقيدته ومذهبه .

واختلفوا فيه كما اختلف من قبلهم :

منهم من أمسكوا عن الجزم باتهامه تحرجًا ، أو أشكل عليهم أمره لكثرة ما قال فى تمجيد الله ، وما ألف من مصنفات فى المواعظ ، وما شاع وذاع من ورعه ، وزهده ، فاكتفوا بنقل أقوال من جرّحوه ، ونقلوا معها أقوال من شهدوا له بصدق الإيمان وقوة اليقين ، ثم عقبوا بالكلمة المأثورة : « الله أعلم » .

وقذفه أحدهم بالزندقة والإلحاد وسقم الدين ، وتقربوا برجمه ولعنه إلى الله تعالى .

يتوارثون ذلك خلفًا عن سلف ، ويتناقلونه تقليدًا ، جيلاً فى إثر جيل .

حتى رؤيا المنام ، ساقوها فى اتهامه ، وتتابع الإخباريون منهم يرددونها ناقلين فى معرض الكلام عمّا تذاكر به متهموه فى إلحاده[1] .

وظلموه ميتًا كما ظلموه حيًّا .

تقوّلوا عليه شعرًا لم يرد فى ديوانيه ، « سقط الزند » و« اللزوميات » ، وقد تم تدوينهما فى حياته ، وكتبهما عنه مباشرة كُتّاب له أمناء .

وتحدثت الألسن بإساءته ، لكتابه « الفصول والغايات » الذى زعموا أنه عارض به القرآن ! .

ثم ظهر الكتاب فإذا هو فى تمجيد الله والمواعظ .

وآخرون دافعوا عن عقيدته دفاعًا حارًّا ، منهم القفطى فى « إنباه الرواة » .

وابن العديم فى « الإنصاف والتحرى ، فى دفع الظلم والتجرى ، عن أبى العلاء المعرى » .

وابن الوردى فى « تتمة المختصر فى أخبار البشر » .

وابن فضل الله العمرى فى « مسالك الأبصار » وقد ختم دفاعه عنه بقوله :

« والناس فيه بين مكفرٍ ومعتقدٍ له الولاية ، وما بين بين هذه الغاية » .

* * *

(١) اقرأ ما نقلناه من هذا بمزيد تفصيل فى كتاب « أبى العلاء المعرى » ص ٢٣٢ وما بعدها ، ط أولى ، أعلام العرب .

ولمن شاء أن يرجع إلى الفهرس الخاص باعتقاد أبي العلاء، في (تعريف القدماء) - وهو يشغل منه مكانًا غير صغير - ليعلم كيف شغل هؤلاء القدماء بعقيدته.

وفي عصرنا هذا، أفرد «الدكتور طه حسين» في (ذكرى أبي العلاء) فصلاً للحديث عن «اتهامه بالزندقة»، كما أفسح العلامة «أحمد تيمور» نحو ربع كتابه عن أبي العلاء، لبحثٍ في «معتقده»[1].

وكذلك فعلتُ، في كتابي (أبو العلاء المعري: سيرة ذاتية[2]).

* * *

ورسالة الغفران، مسئولة - إلى حد غير قليل - عمّا اتُّهِمَ به «أبو العلاء». والشعور بذلك قديم، يرجع - فيما وصل إلينا - إلى القرن السابع، حيث شغل «ياقوت» بالقضية، ومن ذلك الحين، وهي تشغل مكانها في آثار «أبي العلاء» التي تذكر وتُمتحن، حين يبحث في عقيدة الرجل.

جاء فيما رواه «ياقوت» (من شعره الدال على سوء عقيدته) ما نصه:

«وقال في رسالة الغفران: ولما أجلى عمر بن الخطاب أهل الذمة عن جزيرة العرب، شق ذلك على الجالين، فيقال إن رجلاً من يهود خيبر يعرف بسمير بن أدكن قال في ذلك:

يصول «أبو حفص» علينا بدِرَّة ... رويدك، إن المرء يطفو ويرسُبُ
كأنك لم تتبع حمولة مأقطٍ ... لتشبع، إن الزاد شيء محبب
فلو كان «موسى» صادقًا ما ظهرتُم ... علينا، ولكنْ دولةٌ ثم تذهب
ونحن سبقناكم إلى المين فاعرِفوا ... لنا رتبةَ البادي الذي هو أكذب
مشيتم على آثارنا في طريقنا ... وبغيتكم في أن تسودوا وتُرهبوا

وعلّق ياقوت: «وهذا يشبه أن يكون شعره، قد نحله هذا اليهوديَّ، أو أن إيراده لمثل هذا واستلذاذه به، من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه»[3].

ولم يمض إلا قرن واحد بعد ياقوت، حتى جاء «الذهبي» فقال كلمته المشهورة: «له رسالة الغفران في مجلد، قد احتوت على مزدكة واستخفاف»[4].

وظل من بعدهم ينظرون إليها بعين الاتهام، حتى إذا اتجه الدارسون في عصرنا إلى «أبي

(١) «أبو العلاء المعري» ط. لجنة التأليف ١٩٤٠م،
(٢) سلسلة أعلام العرب - ط أولى ص ٢٣٢ : ٢٤٥ الهيئة العامة للكتاب.
(٣) معجم الأدباء ٣/١٦٥ : ١٦٦ ط دار المأمون.
والنص المشار إليه يقع في ص ٤٤١ من رسالة الغفران - ذخائر.
(٤) ترجمة الذهبي لأبي العلاء - مع (رسائل أبي العلاء)، ص ١٢٩ طبع أكسفورد.

العلاء » وآثاره ، لم يفتهم الالتفات إلى (رسالة الغفران) بين الآثار العلائية التى يُحتكم إليها فى الحكم على عقيدة الرجل .

والعرب والمستشرقون فى ذلك سواء .

اتجه النظر فى اتهام (الغفران) إلى أمرين :

(أ) وصفها الجنة والنار ، وما اتهم به من سخرية بالمعتقدات الدينية ، أو اعتراض على الخالق عز شأنه .

(ب) حديثها عن الزنادقة ، وما قيل من نسبة بعض أشعاره إليهم ، أو تلذذه بإيرادها .

والمستشرقون أكثر تعلقًا بالقسم الأول : جاء فى (دائرة المعارف الإسلامية) :

(ولقد عرّف المؤلف الشعراء الزنادقة الذين غفر لهم ! ومن هنا اشتق اسم الرسالة ، والذين رُفعوا إلى الجنة ، وهى مشهد حوادث القصة . أو هى فى الحقيقة قصة جريئة ، خلط فيها الجد بالهزل ، وسخر فيها من العقائد الإسلامية التى تتعلق بالحياة الأخرى » .

وقال نيكلسون : « والسبب الأول فى السمعة السيئة للغفران ، أن ليس من المستطاع إنكار أن أبا العلاء صور جنة المؤمنين ، صالونًا فخمًا عامرًا ببوهميين خالدين ، ولكن غير خلقيين » .

It cannot be denied that Abu, - L - 'Ala depicted the Parsdise Of the faithful as glorified salon haunted by immortal but immoral.

وقال « ميجيل أسين بلاثيوس »[1] : » ودعاوى الصوفية – فى هذا الميدان – أُخذت صبغة دينية ، على حين أخذ هذا فى الميدان الأدبى صبغة ساخرة لا دينية ، وواضح أنه لا يوجد من هذا إلا قليل .. وكتاب واحد فقط هو الذى وصل إلى أيدينا .. وهو رسالة الغفران .

« فبمسحة من السخرية ، دقيقة حتى لا تكاد تظهر .. يحتج على تعذيب عدد من رجال الأدب – الشعراء منهم بخاصة – اشتهروا فى الجاهلية والإسلام ، برغم إلحادهم وخطيئاتهم » .

« وبغير أن يقتحم المشكلة الدينية مباشرة ، يحاول أن يعرض بمهارة أُدبية ، عددًا من هؤلاء الشعراء عفى عنهم أخيرًا ، وأُدخلوا الجنة »[2] .

وقال « آدم متز » : « .. ورسالة الغفران : يتجلى فيها التهكم الخفى على أتمه »[3] .

وهى أحكام لا يستطيع دارس (الغفران) أن يسلم بها على إطلاقها . فقد يُقبل منهم ما ذكروه عن السخرية فى (الغفران) . وعن « هذا الصالون الفخم » الذى جعله جنة المؤمنين ، وأما الزعم بأن « أبا العلاء » قد أدخل الجنة الزنادقة والملحدين ، فهو زعم باطل تنفيه

---

(١) Miguel Asin : Islam and the Divine. P. 55. ed. London 1926

(٢) المصدر السابق .

(٣) الحضارة الإسلامية (الترجمة العربية) : ١١٢/٢.

(الرسالة) ، واتهام ظالم لا يجد « أبو العلاء » أدنى مشقة فى البراءة منه ، إذ يكفى أن تراجع ثبت الشعراء الذين جاء بهم فى جنته ، لتعلم أن ليس فيهم ملحد أو زنديق ، بل لم ينس « أبو العلاء » – مع الشعراء الجاهليين الذين لم يدركوا الإسلام – أن يقدم بين يدى كل منهم وسيلة للمغفرة : « عدى بن زيد » ، شفع له أن « كان دين المسيح ، ومن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يبعث محمد فلا بأس عليه ، وإنما التبعة على من سجد للأصنام » .

و « زهير بن أبي سلمى » غفر له – وقد كان فى زمان الفترة – « لأن نفسه كانت من الباطل نَفورًا ، وكان مؤمنًا بالله العظيم ، ورأى فيما يرى النائم حبلاً نزل من السماء ، من تعلق به سلم ، فعلم أنه أمر من أمر الله ، فأوصى بنيه عند الموت : إن قام قائِم يدعوهم إلى عبادة الله فليطيعوه ، ثم هو القائل فى الميمية ، والجاهلية على السكِنة[1] ، والسفَه ضاربٌ بالجران :

فلا تكتُمُنَّ الله ما فى نفوسكم   ليخفى ، ومهما يُكتم الله يَعلم
يُؤَخَّرْ فيوضعْ فى كتاب فيدخر   ليوم الحساب ، أو يُقَدَّم فينقم

والنابغةِ الذبياني « كان مُقرًا بالله وحج البيت فى الجاهلية .. قال :

فلا لعمر الذى قد زرتُه حِجَجا   وما هريق على الأنصاب من جسد
والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَ يمسحها   ركبانُ مكة بين الغيلِ والسند

ولم يدرك النبى ﷺ فتقوم الحجة عليه بخلافه » .

و « عبيد بن الأبرص » الجاهلى : مرّ به « أبو العلاء » على الهاوية قبل أن يُدخله الجنة ، ثم شفع له قوله فى أيام الحياة :

من يسأل الناسَ يحرموه   وسائلُ الله لا يَخيبُ

« وسار هذا البيت فى الآفاق ، فلم يزل يُنشَد ويخف عنه العذاب حتى أُطلق من القيود والأصفاد ، ثم كُرر إلى أن شملته رحمة الله .

« وأما « الأعشى » – وقد أدرك المبعث ومضى يطلب الإسلام فصدّته قريش وحبه للخمر – فقد تحايل « أبو العلاء » لإدخاله الجنة بعد أن أوقفه على شفا الهاوية ، ولم يترك وسيلة يستشفع له بها إلا التمسها : جعل له حرمة من داليته فى مدح الرسول عليه السلام ، وشفاعة منه ﷺ ، وأنه كان يؤمن بالله ويصدق بالبعث .

وتأتى – فى القراءة الجديدة الملحقة بهذه الدراسة – قصة « الأعشى » كما يرويها فى (الغفران) .

هذه وسيلة « أبى العلاء » مع الجاهليين ، وأما الشعراء الإسلاميون فليس فيمن جاء بهم إلى

(١) أى : على أحوالهم التى كانوا عليها . يقال تركتُهم على سَكِنَاتِهِم . انظر رسالة الغفران بتحقيق الدّارسة ص ١٨٣ – ط دار المعارف .

جنته ، من اتُّهم فى دينه أو أُثرت عنه زندقة ، بل فيهم من صحَّ إسلامه وحسُن بلاؤه : « لبيد ، والجعدى ، وحسان ، والخنساء ، و ... » بل إنه كره أن يأتى بمن عُرفت عنهم رقة فى الدين ، وإن لم يُتهموا بزندقة أو إلحاد ، ولعلَّ هذا سبب سكوته عن عدد من أمراء الشعر الأموى ، مع أنه أدرك شعراء عصرهم فى رحلته ، وجاء بأحدهم ، وهو الأخطل ، فصلاه الجحيم ، بل جاء كذلك ببشار ، وهو من مخضرمى الدولتين .

فادِّعاء المستشرقين أن أبا العلاء جاء فى الجنة بالشعراء الزنادقة الذين غفر لهم ، ومن هنا اشتق اسم الرسالة (دائرة المعارف ، وميجويل أسين بلاثيوس) ينفيه نص (الغفران) كما رأيت . ومن اليسير أن نلتمس منشأ هذا الادعاء الباطل ، فنحن إذا فرضنا حسن النية فيهم ، وأحسنا الظن بنزاهتهم وتجردهم وإخلاصهم للبحث - وهذا فى كثرتهم بعيد - رددناه إلى عجزهم عن فهم (الغفران) ، وبعدهم عن روح العربية . ولِمَن شاء أن يطالع ما جئتُ به فى مقدمة نسختى المحققة للغفران من أخطاء « نيكلسون » فى فهم النص[1] ، ثم ما سوف أُشير إليه بعد[2] من أخطاء « أسين بلاثيوس » فى فهم (الغفران) . وأكتفى بما نقلت وأنقل فى هذا الباب ، من أخطاء تتصل بموضوعنا فى الزندقة ، وتؤيد ما نقرره من عدم استطاعتهم هذا الفهم . وذلك فى حديثنا عن :

الجانب الثانى الذى اتجه إليه اتهام رسالة الغفران ، وهو :

حديثها عن الزندقة :

والعرب أكثر تعلقًا بهذا من المستشرقين ، وإنما أنكروا من أبى العلاء « أنه نشر من أشعار كفرهم ما كان مطويًّا » ولم يستبعد « ياقوت » أن يكون منها ما نظمه هو ، ثم نحله سواه ، أو أن إيراده لمثل هذا واستلذاذه به ، من أمارات سوء عقيدته وقبح مذهبه[3] .

وهذا الشعور المستريب بترديد « أبى العلاء » لكفريات الزنادقة ، قديم مبكر ، سبق « ياقوت » بنحو قرنين من الزمان ، وجهر به بعضُ من عاصروا الشيخ ، واعترضوا عليه منكرين ، ففيما أبقى لنا التاريخ من الرسائل التى تبودلت بينه وبين « داعى الدعاة »[4] أنشد الشيخ فى رسالته الثانية بعض أشعار الملاحدة ،فكان رد « الداعى » يشعر بما رابه من ذلك ، وإن تكلف اللباقة فى تعبيره عن ارتيابه ، قال:

(١) مقدمة الغفران : ص ١٠١ : ١١٢ ، تحقيق الدارسة . ط أولى ذخائر .

(٢) انظر مبحث : « الغفران والكوميديا الإلهية » فى سياقه من هذه الدراسة .

(٣) معجم الأدباء : ٣/ ١٦٦ ط دار المأمون .

(٤) أوردها ياقوت بتصرف ، فى معجمه (الجزء الثالث: ط دار المأمون) ونشرها مرجليوث "D.H. Margoliouth" فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية (عام ١٩٠٢) نقلا عن نسخة خطية فى « البودليانا » "Bodeliana Library" .

« وأما إنشاده : * أَلَمَّتْ بالتحية أمُّ بكر *

وما بعده من الأشعار ، وذمُّه من قال ولعنه ، فمن الذى اتهمه بشيءٍ من ذلك ؟ حاشاه ! وما الذى أوجب الإذكار بكفريات أشعارهم »[1] .

والأشعار التي يشير إليها الداعى ، هى قول أبى العلاء فى رسالته إلى « داعى الدعاة » :

« وأعوذ بالله وأتبرأ من قول الكافر :

ألمت بالتحية أم بكر فحَيّوا أمَّ بكرٍ بالسلام

الأبيات

« ولعن الله القائل ، ويقال إنه الوليد بن يزيد بن عبدالله :

أدنيا منى خليلى عبد لا دون الإزار

الأبيات

« وويل لابن رغبان إن كان قال :

هى الدُّنْيا وقد نعمـوا بأُخرى وتسويفُ الظنون من السُّواف(*)

الأبيات

وهذه الأبيات جميعًا ،قد وردت أيضًا فى (رسالة الغفران) ،والأسلوب واحد : هنا وهناك[2] . لكن مع تفاوت السياق .

والدكتور « طه حسين » ، يرى أن موقف « أبى العلاء » هنا مريب :

« ... وكم ضَحَّى من زنادقة العباسيين بضحايا ليعلن أنه مسلم ، ولكن هذا الكيد كله لم يزد الناس إلا علمًا به واتهامًا له »[3] .

هذا مع أن جحيم الغفران ، ليس فيها من شعراء العباسيين غير واحد فقط ، هو بشار !! وأما غيره من المتهمين بالزندقة ، فالحديث عنهم فى القسم الثانى من (الغفران) ردًّا على ما جاء فى رسالة ابن القارح من أخبارهم .

* * *

وأما المستشرقون فلم يقفوا عند الذى راب العربَ ، وإنما مرّ أكثرهم بأخبار الزنادقة فى (الغفران) مرورًا سريعًا عابرًا ، كقول دائرة المعارف الإسلامية : « وفيها حديث عن الزنادقة بنوع خاص ، وآراء فى طبيعة معتقداتهم » .

(١) ياقوت : معجم الأدباء ، ٣/ ٨٧ .

(*) السواف ، بفتح السين وضمها : مرض المواشى وهلاكها . ويُطلق على الهلاك بعامّة . انظر ص ٤٤٦من رسالة الغفران – طبعة عاشرة – بتحقيق الدارسة .

(٢) انظرها فى صفحات : ٤٢١ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ ، على التوالى ، من الطبعة الثامنة لرسالة الغفران : ذخائر .

(٣) تجديد ذكرى أبى العلاء : ١٣٣ .

وقول « آدم متز » :« وتناول الكلام عن الجنة والنار ، والزندقة ، والعقل »[1] .

وسكت « ميجيل أسين » عن هذا الجانب من (رسالة الغفران) ، إذ كان مشغولاً عنه بالنظر فى القسم الأول ، الرحلة إلى الآخرة ، لأنه الجانب الذى يتصل بالكوميديا الإلهية .

ولعل « نيكلسون » هو الذى أفاض فى الحديث عن الزندقة فى (الغفران) ، وهو أقرب إلى حسن الظن بعقيدة أبى العلاء ونفى التهمة عن الغفران ، وإن تردد فى بعض عبارات بها أعوزه فهمها .

بدأ فقال : إن سلوك « أبى العلاء » نحو الزنادقة ، لا يقدم أساسًا لاتهامه بالعطف عليهم ، واستظهر المستشرق على ذلك ، بأمور ثلاثة :

١ – أن الشيخ يدعو الله أن يثيب « ابن القارح » بما لعن من عقائدهم .

٢ – أنه يبارك « محمدًا » – ﷺ – لما أباح من استعمال السيف ضد الكفر .

٣ – أنه يعجب لمحاولة « ابن الراوندى » تقليد القرآن .

ثم قال عن أبى العلاء والزنادقة ما ترجمته : وفى الحق لم يقل شيئًا فى جانبهم ، وإن كان أحيانًا يعرب عن أمله فى ألا يكونوا من السواد كما صبغوا أنفسهم ، وأنهم إنما يولون ما لا يفعلون .

"... Though he sometimes utters the hope that they are not so black as they painted .themselves, and that they preopess what they do not actually believe

ثم أضاف :

« قد يتهمه تقى بمثل عدم تيقنه من دخول بشار فى النار ، إذ يدعه فى أيدى الله الذى لا يقنط من رحمته إلا الكافرون .

« وربما وقف المحقق inquisitor عند تعبير صدر منه بغير احتراس unguarded – مثل قوله : وما يحفل ربُّه بالعبيد صائمين للخيفة أو مفطرين – ولكنه فى الجملة ، لا يمكن عدلا أن يتهم هنا بالفتور وعدم الاكتراث ،وبالتأكيد ، لا يمكن اتهامه بالكفر »[2] .

ونقف لحظة هنا لننظر فيما وَهِمَ « نيكلسون » هنا ، أن التقىّ يتهم به « أبا العلاء » أو أن المحقق يقف عنده :يشير فى أمر « بشار » إلى ما جاء فى القسم الثانى من (الغفران) حيث قال « أبو العلاء » :

« وبشار إنما أخذ ذلك عن غيره ، وقد رُوِىَ أنه وُجد فى كتبه رقعة مكتوب فيها : إنى أردتُ أن أهجو فلانًا ابن فلان الهاشمى ، فصفحت عنه لقرابته من الرسول ﷺ .

... ويقال إن يعقوب بن داود وزير المهدى ، تحامل على بشار حتى قُتِلَ ... والله العالم بحقيقة الأمر ، ولا أحكم عليه بأنه من أهل النار ... » ص ٤٢٩ : ٤٣٢ .

---

(١) الحضارة الإسلامية (الترجمة العربية : ٢/ ١١٢) .

(٢) J.R.A.S. 1902, P. 7 K

وموقف « أبى العلاء » من بشار هنا يبدو مناقضًا لما ذكر فى القسم الأول من الغفران ، حيث لم يتردد فى إلقاء بشار فى الجحيم ، بل إن صورة « بشار » كانت أول ما طالعنا فى موكب الشعراء المعذبين : « فلا يسكت من كلامه إلا ورجل فى أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النِّقَمِ ، فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نار ، وإذا هو بشار بن برد قد أُعطى عينين بعد الكمَه ، لينظر إلى ما نزل به من النكال » (٣١٠) .

والواقع أن فى (الرسالة) نفسها تفسير هذا التناقض – إن كان لنا أن نسميه تناقضًا – فالجو مختلف فى الحالين ، والمؤلف ينتقل بين عالمين :

الحديث الأول يُعرَض فى جو فنى خالص ، والحديث الثانى يقال فى سياق تاريخى ، فأبو العلاء هناك أديب متفنن يعرض مشاهد متصوَّرة ، ويروى ما لم يحدث فى الواقع ، وأما هنا فهو يشبه أن يكون ناقدًا محققًا ، يذكر الوشاية التى نقلت إلى يعقوب بن داود قولَ بشار :

بنى أمية هبـــوا من رقـادكم إن الخليفة يعقـوبُ بنُ داود
ليس الخليفة بالموجود فالتمسوا خليفة الله بين النـــاى والعود

وأن يعقوب تحامل عليه حتى قتل (٤٣٢) .

وما كان لأبى العلاء – حتى لو صحَّ ما اتهم به بشار – أن يحكم عليه بأنه من أهل النار ، إلا تصورًا شعريًّا ،وأما فى هذا السياق التاريخى الواقعى ، فحسبه أن يقول : « والله العالم بحقيقة الأمر » ، وكأن المعانى تداعت هنا ، فذكَره هذا المقام بالصورة التى عرضها من قبل لبشار ، فى جحيم الغفران فقال متحرجا : « ولا أحكم عليه بأنه من أهل النار ، وإنما ذكرت ما ذكرت – من لقائه فى النار – لأنى عقدته بمشيئة الله » (٤٣٢) ، يشير إلى الاحتياط الذى صدّر به رحلته إلى العالم الآخر جملةً ، قال : « فقد غُرِس لمولاى الشيخ الجليل – إن شاء الله – بذلك الثناء على الله ـ شجرٌ فى الجنة لذيذ اجتناء » (١٤٠) .

وبدأ الرحلة .

هكذا ترى أن فهم « نيكلسون » لموقف أبى العلاء من « بشار » هنا ، تعوزه الدقة ، ومتابعة أقوال الشيخ فى هذا الأمر ، وإدراكُ العوالم المتباينة التى كان الشاعر ينتقل بينها ، والعوامل المختلفة التى كانت تتحكم فيما يقول .

وأما قول أبى العلاء : « وما يحفل ربه بالعبيد صائمين للخيفة أو مفطرين » فلا يصدم الحس المؤمن أبدًا ، ولا يجد فيه تقى أو محقق ما يريبه كما ذهب « نيكلسون » ، وإنما الأمر هنا كما فى الآية الكريمة : ﴿قلْ ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم﴾ – الفرقان .

وفى كل حال ، نجد نيكلسون – مع قوله باحتمال أن يكون فى الحديث عن الزنادقة ما يريب – قد انتهى فى هذا الموقف إلى أنه لا يمكن عدلا إتهامُ الشيخ بالفتور نحو الزنادقة ، وأما الكفر فقد أكد أن هذا الحديث لا يقدم أساسًا لاتهامه به .

فلنذكر هذا ، ثم فلنمض مع « نيكلسون » لنراه بعد قليل يستريب فى أمر أبى العلاء ، ولكن بغير ما استراب به الدارسون العرب . فعنده أن السمعة السيئة للغفران ترجع أولاً إلى « هذا الصالون الفخم الذى جعله جنة المؤمنين ، وملأه بيوهيميين خالدين ، لكن غير خلقيين » ، ثم إلى ما أذاع من قصص الزنادقة وأشعارهم « فمن يشك فى أنه زميل ماكرٌ لهم ؟ إنه فى الواقع قد يشير إلى صحة ما اتهم به فى مثل قوله : « ويقال إننى من أهل الدين ، ولو ظهر ما وراء السدين ما اقتنع لى الواصفُ بِسبٍّ ، وود أن يسقينى جَوْزلاً بشَبٍّ - » ٣٨٧ .

ثم يعلق « نيكلسون » على هذه العبارة قائلاً : « ما نصيبُ هذا من الصدق ؟ أم لعلها حيلة ماهرة فى تحقير نفسه ؟ لا أستطيع أن أجزم » .

لكنه اطمأن فى الوقت نفسه إلى اتهام « أبى العلاء » ، فصرح على الهامش بقوله : « وأعترف بأنى أشك جديًّا فى صدق المؤلف . لقد قال إن الرياء سبيل الدنيا ، وكرّر هذا القول كثيرًا ، وإن الإنسان ليخشى أن يكون هو نفسه قد عالج الرياء فنًّا جميلاً » .

ولو أتيحت لنيكلسون وسائلُ فهم الغفران ، لما تعلق بمثل هذا .

لِمَ تحدث في الغفران عن الزنادقة ؟

الواقع أن قومنا كانوا أهدى حِسًّا ، حين اشتبه المشتبه منهم فيما أورد « أبو العلاء » من أشعار الزنادقة ، وحين رابهم ما نَشَر من مطويات كفرهم ، وهو اتهام لا يُبعده النص إذا قرئ منفردًا مستقلاً ، بعيدًا عن ظروفه ، فأما إذا رجعنا (رسالة ابن القارح) – التي نرى فيها بحق مفتاح فهم الغفران – فإنا نجد أسبابًا مباشرة ، دعت إلى مثل هذا الموقف من « أبي العلاء » :

١ – فهو لم يُطل الحديث عن الزنادقة استلذاذًا ، أو إذاعةً لمطوى أخبارهم ، وإنما ذاك رد على حديث لابن القارح ، استطرد فيه إلى ذكر الزنادقة – لغير ضرورة ظاهرة لنا ، في الرسالة كما وصلت إلينا – وقد ملأ ابن القارح بحديثه هذا عن الزنادقة ما يقرب من ثلث رسالته – وليست قصيرة – وإنه ليسترسل في ذاك استرسالاً مريبًا . ويروى أخبار الإلحاد وأشعار الملحدين ، فهو الذى أثار الموضوع ، وبدأ بالكلام عن : « بشار ، وصالح بن عبد القدوس ، والقصَّار الأعور ، والصناديقى ، والوليد بن يزيد ، والجنابيّ ، وعلويّ البصرة صاحب الزنج ، والحلاج ، وابن أبي العزاقر ، والشلمغاني » .. وهو الذى سبق « أبا العلاء » إلى ذكر مؤلفات « ابن الراوندى » ، فجاء « أبو العلاء » يعلق على ما جاء في رسالة صاحبه في إفاضة ، مضيفًا إليه ما جهل « ابن القارح » ، ومشيرًا إلى ما وراء هذه الدعاوى من تصيد للرزق ، والتماس للمنفعة .

٢ – ودفاع الشيخ عن « المتنبي » لم يأتِ عرضًا ، ولا دعاه إلى إقراره دعواه ، وإنما رأى ابنَ القارح يقحم الحديث عن المتنبي ، متعسفًا في تأويل قوله :

« أذم إلى هذا الزمان أُهَيْلَه »

ذاهبًا به إلى أبعد مما تحتمله العبارة ، قال :

« صغرهم تصغيرَ تحقير غير تكبير ، وتقليل غير تكثير ، فنفث مصدورًا وأظهر ضميرًا مستورًا .. وما يسحق زمانٌ ساعده بلقاء « سيف الدولة » أن يطلق على أهله الذم ، وكيف وهو القائل :

أسير إلى إقطاعه في ثيابه   على طرفه من داره بحسامه

ولا يجب أن يشكو عاقلاً ناطقًا ، إلى غير عاقل ولا ناطق ، إذ الزمان حركاتُ الفلك ، إلا أن يكون ممن يعتقدون أن الأفلاك تعقلُ وتعلم وتفهم وتدرى بمواقع أفعالها بقصود وإرادات ، ويحمله هذا الاعتقادُ على أن يقرّب لها القرابين ويدخن الدخن فيكون منافضًا لقوله :

فَتَبًّا لِدين عبيد النجـــو   م ومن يدَّعى أنهـا تعقل

أو يكون كما قال الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾[1]، ويوشك أن تكون هذه صفته [2].

ومثلُ هذا الاعتساف الشاذ ، وذلك التأويل الفاسد ، جدير بأن يثير رجلا كأبى العلاء ، دفاعًا عن شاعر كالمتنبى ، كان يحبه ويقدره ، فراح يفسر ويصحح ، ويوضح ويدافع : بدأ أولا بتنبيه ابن القارح إلى أن « هذا البيت الذى أوله » :

* أُذمُّ إلى هذا الزمانِ أُهَيْلَه *

إنما قاله فى « على بن محمد بن سيار بن مكرم » بأنطاكية ، قبل أن يمدح سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان . والشعراء مطلق لهم ذلك .. » (٣١٦) . ثم دافع عن « المتنبى » فقال :

وحُدِّثت أنه كان إذا سئل عن حقيقة اللقب قال : هو من النَّبْوة ، أى المرتفع من الأرض . وكان قد طمع فى شيء قد طمع فيه مَن هو دونه ، وإنما هى مقادير ، يديرها فى العلو مدير ، وقد دلّتْ أشياء فى ديوانه أنه كان متألهًا ، ومثل غيره من الناس متدلهًا ، فمن ذلك قوله :

* ولا قابلاً إلا لخالقه حُكما *

ما أقدر الله أن يخزى بريته ولا يصدق قومًا فى الذى زعموا

وإذا رُجع إلى الحقائق ، فنطق اللسان ، لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان » ٥٨/ غفران .

ثم مضى ينكر على ابن القارح تعسفه فى تأويل شكوى « المتنبى » أهل زمانه :

« وأما شكيته أهلَ الزمان إليه ، فإنه سلك فى ذلك منهاج المتقدمين ، وقد كثر المقال فى ذم الدهر حتى جاء فى الحديث : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » وقد عُرف معنى هذا الكلام ، وأن باطنه ليس كظاهره ، إذ كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يذهب أحد منهم إلى أن الدهر هو الخالق ولا المعبود .

« والذين قالوا : وما يهلكنا إلا الدهر ، وغير ذلك من المقال .. لم يُدَّع أن أحدًا منهم كان يقرب للأفلاك القرابينَ ، ولا يزعم أنها تعقل ، وإنما ذلك شيء يتوارثه الأمم فى زمان بعد زمان » ٤٢٦ .

وهكذا تجد فى (رسالة ابن القارح) تفسير دفاع أبى العلاء عن « المتنبى » .

على أن ذلك التقدير العميق الذى كان « أبو العلاء » يكنه للشاعر ، لم يمنعه – فى هذا الدفاع الحار – من أن يسخَر بدعوى التنبى ، ويكشف عن زيفها وبطلانها .

٣ – وسخرية « أبى العلاء » بِبِدع الملل والنحل ، وحملته على النفاق والرياء ، مصدرُها حزن صادق للبشر فى غفلتهم وحمقهم ، واحتقارٌ عميق للمُرائين والمنافقين . ويكفيه عذرًا عن اندفاعه فى تلك الحملة ، ما تنضح به (رسالة ابن القارح) من النفاق والرياء ، وتظاهرِ

(١) سورة النساء الآية ١٤٣ .

(٢) رسالة ابن القارح ص ٢٨ – مع رسالة الغفران ط ٨ ذخائر . وانظر الآية ١٤٢ من سورة النساء .

بالغضب على الزنادقة يوشك أن ينم عنه : لقد خرج من حديثه الذى سمعت عن « المتنبى » قائلاً : « وهذا غير قادح فى طلاوة شعره ورونق ديباجته ، ولكنى أغتاظ على الزنادقة والملحدين الذين يتلاعبون بالدين ، ويرومون إدخال الشُبَه والشكوك على المسلمين ، ويستعذبون القَدح فى نبوة النبيين صلوات الله عليهم أجمعين » .

واندفع يروى أخبار الزنادقة ويتلو كفرياتهم .. ثم قال :

« ولو استقصيتُ القولَ فى هذا الفن لطال جداًّ ولكن :

لابــد للمصــدور أن ينفثا وللذى فى الصدر أن يَنْعَثا

وأستريح إلى أن أنشد :

ليس يَشفِى كلوم غيرى كلومى ما به به ، وما بِىَ بى »[1]

هذا الرجل الذى تكاد أقواله تنم عليه ، سمع أن « أبا العلاء » ذكر هجاءه لأبى القاسم المغربى ، فراعه ذلك وخشى أن يستشرّ أبو العلاء طبعهَ ، وأن يتصوره بصورة من يضع الكفر موضع الشكر ، فقال فى رسالته إلى أبى العلاء يبرر هجاءه أبا القاسم .

« وبُغْضى له — شهد الله — حيًّا وميتًا ، أوجَبه أخذُه محاريبَ الكعبة الذهبَ والفضة ، وضربُها دنانيرَ ودراهمَ سمَّاها الكعبية ؛ وأنهب العربَ الرملةَ ، وخرَّب بغداد ؛ وكم دمٍ سفك ، وحريمٍ انتهك ، وحُرة أرمل ، وصبىٌّ أيتم »[2]

فذلك هو النفاق الذى لا يحتمله رجل مثل أبى العلاء !! ياهذا الغضب للدين ، وللأرامل ولليتامى ، لم يظهر إلا بعد أن انقطع عنه بِرُّ « أبى القاسم » ، فأما حين كان مرجو العطاء ، فقد كان رأى « ابن القارح » فيه وفى دنانيره الكعبية غير ذلك .

وهذا يفسر لك حملة « أبى العلاء » على النفاق والمنافقين والرياء والمرائين ، وعبثه بابن القارح وما يُظهر من تدين ، وسخريته من توبته المدعاة وحججه الخمس !

« وإذا تسامعت المحافل بتوبته ، اجتمع عليه الشبان المقتبلون ، والأدباء المكتهلون ، وكل أشيبَ لم يبق من عمره إلا ظمء حمار ، كما اجتمع لسمرٍ أصنافُ السمار .. وجلس لهم فى بعض المساجد بحلب حرسها الله . وإذا كان ذلك بتفضل الله ، أعدَّ معه خنجرًا كخنجر ابن الرومى .. فيكون ذلك الخنجر قريبًا منه ، يجأ به أعناقَ زِقاقِ الخمر ، وقرأ هذه الآية : ﴿إن الحسناتِ يُذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين﴾[3] .

« .. ما يفعل ذلك مرةً أو اثنتين ، إلا وحملةُ الذوارع قد اجتنبت تلك الناحيةَ ، كما اجتنب أبو سفيان بن حرب طريقه من خوف النبى ﷺ ..

(١) رسالة ابن القارح ص ٤٣ — مع رسالة الغفران طبعات الذخائر الثانية فما بعدها

(٢) ص ٨ رسالة ابن القارح ص ٥٨ — مع رسالة الغفران طبعات الذخائر ، الثانية فما بعدها.

(٣) من الآية ١١٤ : سورة هود .

« وإذا صحت الأخبار المنقولة بأن أهل الآخرة يعلمون أخبار أهل العاجلة ؛ فلعل حواريه المعداتِ له فى الخلد ، يسالن عن أخباره مَنْ يَرِدُ عليهن من الصُلَحاء ، فيسمعن مرة أنه بالفسطاط ، وتارة أنه بالبصرة ، ومرة أنه ببغداد ، وخطرة أنه بحلب ، فإذا شاع أمرُ التوبةِ ومات ناسكٌ من أهل حلب ، أخبرهن بذلك فسررن وابتهجن ، وهنأهن جاراتهن » (الغفران ٥١٧ - ٥٢٠) .

« وأما حججه الخمس ، فهو إن شاء الله يستغنى فى المحشر بالأولى منهن ، وينظر فى المتأخرين من أهل العلم ، فلا ريب أنه يجد فيهم من لم يحجج فيتصدق عليهم بالأربع ..

ولعله ذكر عند النفرِ وتفرق الناس هذين البيتين :

ودّعى القلب يا قُرَيْبَ وجودى ... لمحـبٌ فراقُـه قـد أَحَمَّـا

ليس بين الحيـاة والمـوت إلا ... أن يَرُدُّوا جِمَالَهُـم فَتُزَمَّا

وقول قيس بن الخطيم :

ديار التى كادت ونحن على مِنًى ... تحل بنـا ، لولا نجاء الركائب

ولم أرها إلا ثلاثًا على منى ... وعهدى بها عذراء ذات ذوائب

تبدت لنـا كالشمش تحت غمـامة ... بـدا حاجب منهـا وضنَّت بحاجب

« وليت شعرى أقارِنًا أَهَلّ أم مفردًا ، وأرجو أن لا تكون لقيتْه بمكة شهلةٌ تعرض عليه فُتْيا « ابنِ عباس » ، تَحلِفُ ما بها من بأس ، فتذكَّرَ قول القائل :

قالتْ وقد طفتُ سبعًا حول كعبتها : ... هل لكَ يا شيخُ فى فُتْيا ابنِ عباس[1]

(٥٤٤)

* * *

قيمة حديثه عن الزندقة :

وننظر فى حديثه عن الزندقة من الناحية التاريخية والأدبية ، فنقدر ان الغفران تضع بين أيدى الدارسين للملل والنحل فى التاريخ الإسلامى ، قدرًا من أخبار الزنادقة فيه إضافة إلى المعروف عنهم فى الكتب المتداولة للملل والنحل والقليل الذى سلم منها ، مروى غالبًا عن خصومهم ، لاعتبارات تاريخية وسياسية من التقية والتصوف . « نيكلسون »

ولعل أقرب مثل يتصل بموضوعنا اليوم ، أن كتب ابن « الراوندى » - وقد ذكر « ابن القارح » منها سبعة :

(١) يعنى بفتيا ابن عباس : إباحة زواج المتعة . ولعل « نيكلسون » لو قرأ « رسالة ابن القارح » - وهو لم يقرأها ولا عرف مَن يكون ابن القارح - أقول : لعله لو قرأها ، لما خشى من أن يكون « أبو العلاء » نفسه قد مارس الرياء فنا جميلا .

(التاج ، والزمرد ، ونعت الحكمة ، والدامغ ، والقضيب ، والفريد ، والمرجان) ، وذكرها « أبو العلاء » ماعدا (الزمرد ونعت الحكمة) .

لم يصل منها إلينا سوى فقرات من كتاب (الزمرد) ، عثر عليها المستشرق « باول كراوس » فى (المجالس المؤيدية ، للحميدى) ونشرها فى مقال له بالألمانية ، فى (مجلة الدراسات الشرقية : مجلد ١٤ عام ١٩٣٤) ، ومقتطفات أخرى من كتاب (الدامغ) عثر عليها « ريتر : Ritter » فى كتاب (المنتظم لابن الجوزى) ، ونشرها مرفقة بترجمة لها عام ١٩٣٦م .

وأما بقية الكتب السبعة لابن الراوندى ، فلم أقف فى مكتبتنا لها على أثر ، وكذلك شأن كتبه الأخرى التى أحصوها بنحو مائة وبضعة عشر كتابًا[1] ، سمعنا ببعضها فيما كتب خصومه نقضًا لها أو ردًّا عليها ، مثل :

كتاب (اجتهاد الرأى) رد عليه « أبو سهل النوبختى » أحد شيوخ الإمامية .

كتاب (إمامة المفضول) نقضه « الخياط » ، و « أبو بكر البردعى » المعتزلى .

كتاب (فضيحة المعتزلة) رد عليه ، « الخياط » بكتاب (الانتصار) .

كتاب (أدب الجدل) رد عليه « أبو القاسم البلخى ، والفارابى » .

وغيرها مما لا نتوفر الآن على تتبعه وجمعه .

ويكفينا هذا المثل الواحد ، فى سياق ما فى « الغفران » من مرويات عنهم ، ردًّا على رسالة ابن القارح وما فيها من رياء وزندقة .

* * *

تحدث « أبو العلاء » فى القسم الثانى من (الغفران) عن غير قليل من الشعراء المتهمين ، وروى بعض أشعارهم ، استدراكًا على من ذكرهم ابن القارح ، وجاء بأخبار عدد من الزنادقة وأصحاب النحل ومدعى الربوبية يلعنهم ويسفه أحلامهم ، ومنهم من لم أقف عليه .. مثل شاباس ، وأبى جوف ، وسمير بن أدكن الشاعر اليهودى .

كما أشار إلى كثير من الطوائف والنحل والفرق المعروفة فى أيامه ، ومنها :

غلاة الشيعة ، والكيسانية ، والباطنية ، والنصيرية ، والإمامية ، والمعتزلة ، والزنج ، والقرامطة ، والدهرية ، والصابئة .

وهاجم الإلحاد ، والحلولية ، والتناسخ ، وردّ الزندقة والإلحاد إلى الجهل والحمق وتضليل العوام .

* * *

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٢/ ٢٣٥ .

وكان في برنامج « المهرجان الألفي لأبي العلاء[1] أن يقدم أستاذنا الجليل : « عبد الحميد العبادي » – رحمه الله – بحثًا في (ناحية التاريخ من أدب أبي العلاء) رجوت أن يكون « للزندقة في الغفران » عناية من أستاذنا المؤرخ الأديب ، لكنه مر بها مرورًا سريعًا ، واكتفى بالإشارة إليها بقوله : (وكثيرًا ما يورد أبو العلاء في رسالة الغفران تلميحات وإشارات إلى الفرق والنحل الإسلامية من سنة وشيعة ومعتزلة ومرجئة[2] ، كما ذكر الزنج والقرامطة والمختار[3] بن أبي عبيد ، والمنصور اليمني ، والحلاج) .

على حين لفتت نواح أخرى من الغفران نظر الأستاذ العبادي ، أكثر مما لفته هذا الحديث الطويل عن الزنادقة ، فوقف عند إحدى قصيدتين على لسان الجني « أبي هدرش » وما فيها من ذكر لوقائع تاريخية كغزوات بدر وأحد والخندق ، ووقائع اليرموك والجمل وصفين ، والنهروان . كما سجل الأستاذ قيمة تاريخية لحديث (الغفران) عن دنانير « ابن القارح » فقال : « ومن الطريف أنه ساق في آخر رسالة الغفران كلامًا على الدنانير والعملة الإسلامية ، فيه تفصيلات لانجدها في كتب التاريخ التي بأيدينا » .

واكتفى « المستشرق نيكلسون » بأن قرر أن « أبا العلاء قد أعطانا هنا ملاحظات – في الزندقة – على هامش التاريخ »[4] .

---

(١) المهرجان الألفي ، ص ١٩٥ . دمشق .

(٢) ليس فيما بين ايدينا من نسخ الغفران ، ذكر للمرجئة .

(٣) ليس في الغفران ذكر للمختار بن ابي عبيد .

(٤) JR. A.S 1902. P. 77.

آراء لأبى العلاء فى الإلحاد والزندقة

وإلى جانب هذه الاضافة التاريخية والأدبية ، تقدم رسالة الغفران إلى الدارسين آراء لها قيمتها فى طبيعة الإلحاد ، ودواعيه ونشأته ، وأسباب شيوعه فى إقليم بعينه :

الإلحاد داء قديم :

من ذلك مثلاً أن « أبا العلاء » يرى أن الزندقة داء قديم . وبلية خلقت مع الشمس ، وأن الإلحاد « لم يزل فى بنى آدم على مَرّ الدهور ، حتى أن أصحاب السير يزعمون أن آدم (ﷺ) بُعِثَ إلى أولاده فأنذرهم بالآخرة وخوّفهم من العذاب ، فكذبوه وردوا قوله ، ثم على ذلك المنهاج إلى اليوم .. »

« وهذه المذاهب قديمة ، تنتقل فى عصر بعد عصر ، ويقال إن فرعون كان على مذهب الحلولية ، فلذلك ادعى أنه رب العزة » .

(٤٥٧)

أسباب الإلحاد :

وليس ذلك لأن الإلحاد هو الأصل الفطرى ، فإن « أبا العلاء » يقرر أن « التأله موجود فى الغرائز» .

(٤٦٤)

ولكن ثمة أسبابًا يرد إليها « أبو العلاء » ظهور الإلحاد من قديم العصور ، وفى كل زمان : من رياء الناس وملقهم ، أو غفلتهم وحمقهم ، وعجزهم عن الصبر على أحكام العقل ، وإسراعهم إلى الباطل ، وشيوع الكذب فيهم ، قال :

« وبنو آدم بلا عقول .. هم كما قال الشاعر :

وَإنَّا ، ولا كُفرانَ للّهِ ربّنا ... لكَالبُدْنِ ، لا تدرى متى حتفُها البُدْنُ

« بل هم كأنهم عَيْرٌ مقتاد » .

« والناس إلى الباطل سراع ، ولهم إلى الفتن إشراع » .

« وليس ذلك بِبدع من جعل الناس ، ولو عَبَد عابدٌ ظبىَ كناس ؛ فقد نزل حظٌّ على قردِ ، فظفر بأكرم الورْدِ . وقالت العامةُ : اسجدْ للقردِ فى زمانه » .

(٤٥٤)

« والعالَم مجبولٌ على الخداع » وعلى الكذب والنفاق :

« والكذب كثير جم ، كأنه فى النظر طود أشم ، والصدقُ لديه كالحصاة ، تُوطأ بأقدام عُصَاة .

« والكذب غالب ظاهر ، والصدقُ خفيٌّ متضائل » .

« وللكذب سوق ليست للصدق » .

« مَن خَبَر هذا العالَمَ حكم عليه بفجورٍ ومَيْنٍ ، وأُخلاقٍ تبعد من الزين » .

(٣٨٦)

« وإذا المعقولِ جُعِلَ هاديًا ، نقع بريِّه صاديًا ، ولكن أين من يصبر على أحكام العقل ، ويصقل فهمه أبلغَ صقل ؟ هيهات ! عُدِم ذلك فى مَنْ تطلع عليه الشمس ، ومَن ضَمِنه فى الرم رَمْسٌ ، إلا أن يشذ رجل فى الأمم ، يُخص من فضلٍ بِعَمَمٍ » .

(٤٦٤)

وقد سجل « أبو العلاء » ، كيف استغل المستغلون هذا الجهل من الناس ؛ وكيف استعبدوا العامة والطغام بألوان من الخديعة ، وفنون من الأكاذيب ، التماسًا للمال وطلبًا للدنيا ، فاتبعهم المتبعون جهلاً ، أو تقليدًا ، أو تعصبًا .

« وهذه الطبقة – لعنها الله – تستعبد الطغام بأصناف مختلفة .. وإذا علمتْ أن فى الإنسان تميزًا ، أَرتْه إلى ما يحسن تحيزًا » .

(٤٣٩)

« وحُكِي لى أن للقرامطة بالأحساء بيتًا يزعمون أن إمامهم يخرج منه ، ويقيمون على ذلك البيت فرسًا بسرج ولجام ، ويقولون للهمج والطغام : « هذا الفرس لركوب المهدى ، يركبه متى ظهر بحق بَدِىّ » ، وإنما غرضهم بذلك خدع وتعليل ، وتوصلٌ إلى المملكة وتضليل »

(٤٤٢)

ويقدر « أبو العلاء » أثر التلقين ، والتقليد ، والعادة ، والتعصب ، فى شيوع المذاهب وانتقالها جيلاً بعد جيلٍ :

« ... وهذا أمر يُلَقَّنه صغيرٌ عن كبير ، فيكون بالهلكة أو فى صبير : ﴿أَمْ تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾

الفرقان : ٤٤

« وقد تجد الرجلِ حاذقًا فى الصناعة ، بليغًا فى النظر والحجة ، فإذا رجع إلى الديانة أُلْفِى كأنه عَيرٌ مقتاد ، وانما يتبع ما يَعتاد » .

(٤٥٨)

« ويلقن الطفل الناشئ ما سمعه من الأكابر ، فيلبث معه فى الدهر الغابر . والذين يسكنون فى الصوامع ، والمتعبدون فى الجوامع ، يأخذون ما هم عليه كنقل الخبر عن المخبر ،

لا يميزون الصدق من الكذب لدى المعبر ، فلو أن بعضهم ألفى الأُسرةَ من المجوسِ لخرج مجوسيًّا ، ومن الصابئة لأصبح لهم قرينًا سيًّا » .

وإن البشر لكما جاء فى الكتاب العزيز : ﴿كلُّ حزبٍ بما لديهم فَرِحون﴾ .[1]

ومن تنبُّه « أبى العلاء » إلى قدم هذا الداء وعمومه ، أنَّ لم يخص به ملة دون غيرها ، لأن البلية عامة ، « ولا ملة إلا ولها قوم ملحدون » .

(٤٢٩)

كما أنه لا يقصر الإلحاد على هذه الفئة التى اشتهرت به فى العصر العباسى ، فقد ظهر فى قريش من قديم :

« وبعض العلماء يقول إن سادات قريش كانوا زنادقة ، وما أجدرهم بذلك ! وقال شاعرهم يرثى قتلى بدر... » .

(٤٢١)

وظَهَرَ فى عهد الخلفاء الراشدين :

« وكان ربيعة بن أمية بن خلف الجمحى جَرَى له مع أبى بكر الصديق – رحمه الله – خَطب ، فلحق بأرض الروم . ويروى أنه قال :

لحقت بأرض الروم . غير مفكر بترك صلاةٍ من عشاءٍ ولا ظهر
فلا تتركونــى من صَبوحٍ مدامــة فما حَرَّم الله السلاف من الخمر
فإن يك إسلامى هو الحق والهــدى فإنَــى قــد خلّيتــه لأبى بكــر !

... ...

(٤٤٠)

« ولما أجلى عمر بن الخطاب – رحمة الله عليه – أهلَ الذمة عن جزيرة العرب ، شق ذلك على الجالين ، فيقال إن رجلاً من يهود خيبر يعرف بسمير بن أدكن ، قال فى ذلك :

يصـــول أبو حفصٍ علينا بِدِرَّةٍ رويدك ، إن المرء يطفو ويرسب

الأبيات : ٤٤١

... ...

وظهر فى الدولةِ الأموية :

« وقد رويت لوليد بن يزيد أشعار ، يلحق به منها العار .. »

(٤٤٣)

* * *

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٥٣ .

عوامل انتشار الإلحاد :

على أن الإلحاد ، وإن ظهر فى الإسلام مبكرًا ، فإن ظهوره كان يختلف قوة وضعفًا بحسب الأوضاع ، وتبعًا لظروف الزمان والمكان : فهو فى الأطراف البعيدة عن مركزالخلافة أقوى منه فى الوسط ؛ وهو بعد أن مازج العرب غيرهم ، أشد استفحالاً مما كان وهم فى جزيرتهم ؛ وهو فى عهود الحكام الضعاف أو المقبلين على الدنيا ، أظهر منه فى عهود الخلفاء الأقوياء والأتقياء :

« وذلك أنَّ العرب جاءها النبى ، ﷺ ، وهى ترغب إلى القصيد ، وتقصر همُمُها عن الفصيد ، فاتبعه منها متبعون ، والله أعلم بما يوعون . فلما ضرب الإسلام بجرانه ، واتسق ملكه على أركانه ، مازج العرب غيرهم من الطوائف ، وسمعوا كلام الأطباء وأصحاب الهيئة وأهل المنطق ، فمالت منهم طائفة كثيرة » .

« ومازال اليمن منذ كان معدنًا للمتكسبين بالتدين ، والمحتالين على السحت بالتزين ، وحدثَنى مَن سافر إلى تلك الناحية ، أن به اليوم جماعة كلُّهم يزعم أنه القائم المنتظر ، فلا يعدم جباية من مال ، يصل بها إلى خسيس الآمال .. »

(٤٤٢)

* * *

ويقدر كتمان الإلحاد نفاقًا ومداراة وتقية : وحرصًا على المنفعة ، قال :

« ورُبَّ زارٍ بالجهالةِ على أهل مِلَّة ، وعِلَّته الباطنةُ أدهى علة ، وإن البشر لكما جاء فى الكتاب العزيز: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾[1] . « ويحضر المجلسَ أناس طاغون ، كأنهم للرشد باغون ، أولئك – علم الله – أصحاب البدع والمكر ..

« كم متظاهر باعتزال وهو مع المخالف فى نزال ، يزعم أن ربه على الذرَّة يخلد فى النار ، بَلْهَ الدرهم وبله الدينار ، وما ينفك يحتقب من المآثم عظائم ، ويقع بها فى أطائم . وينهمك على العِهَارِ والفسق ، ويظعن من الأوزار بأوفى وِسْقٍ .. قد صيّر الجدَل مصيدة ، ينظم به من الغى قصيدة » .

(٤٦٥)

وقال عن « الوليد بن يزيد » :

« فالعجب لِزمَانٍ صيَّر مثله إمامًا ، وأورده من المملكة جمامًا ، ولعل غيره ممن مَلَكَ مثله أو قريبًا ، ولكن يُسايِرُ ويخاف تثريبًا » .

وروى « أبو العلاء » قصة لها دلالتها على التكتم والرياء ، قال :

(١) من آية ٥٣ – سورة المؤمنون و٣٢ : الروم .

« .. وكان فى ذلك العصر رجل له أصدقاء من الشيعة وصديق زنديق ، فدعا المتشيعة فى بعض الأيام فجاء الزنديق فقرع حلقة الباب وقال :

أصبحتُ جمَّ بلابل الصدر مُتَقَسَّمَ الأشجان والفكرِ

فقال صاحب المنزل : ويحك مِمّ ذا ؟ فتركه الزنديق ومضى . فلقيه صاحب المأدبة فقال له : يا هذا ، أردت أن توقعنى فيما أكره – خوفًا من أن يظن أصدقاؤه أنه زنديق – فقال : ادعُهمْ ثانيةً وأعلمنى بمكانِهم . فلما حصلوا عنده جاء الزنديق فقال :

أصبحتُ جمَّ بلابل الصدر متقسَّم الأشجان والفكرِ

فقال : ويحك ، ممَّ ذا ؟ فقال :

مِمَّا جناه على « أبى حَسَنٍ » « عُمَرٌ » ، وصاحبُه « أبو بكر »

وانصرف ، فَفَرِح الشيعة بذلك . ولقيه صاحب المنزل فقال : جُزِيتَ عنى خيرًا فقد خلصتنى من الشبهة » .

(٤٤٣)

ونقل « أبو العلاء » رأى من قالوا بعدم قبول توبة الزنديق الخائف من القتل قال :

« وقد رأى بعض الفقهاء أن الرجل إذا ظهرت زندقته ثم تاب فزعًا من القتل لم تقبل توبته ، وليس كذلك غيرهم من الكفار .. » .

(٤٣٦)

وعلق « أبو العلاء » على توبة « صالح بن عبد القدوس » ساعة الأمرِ بقتله :

« وأما رجوعه عن الزندقة لما أحس بالقتل ، فإنما ذلك على سبيل الختل . فصلى الله على محمد ، فقد روى عنه أنه قال : (بعثت بالسيف ....) الحديث .

حديث آخر : (لا تزال أمتى بخير ما حملت السيوف) .

والسيف حَمَلَ « صالحًا » على التصديق ، وردَّه عن رأى الزنديق » .

(٤٣٦)

التظاهر بالمذهب تزلفًا أو تظرفًا :

وكما قدر « أبو العلاء » وجود من يكتمون الزندقة رياء وتسترًا ، أو خوفًا وتقيَّة ، قدّر كذلك أن هنالك نفرًا غيرهم ، يتظاهرون باعتناق مذهب لا يؤمنون به ، إما مجونًا وتظرفًا ، أو ملقًا وتزلفًا ، أو على مذهب الشعراء : يقولون ما لا يفعلون .

(٤٣٤)

وفى الناس من يتظاهر بالمذهب ولا يعتقده ، يتوصل به إلى الدنيا الفانية .

(٤٦١)

« وقالت العامة : أَسْجُدْ للقرد فى زمانه » ، وأنا أتحوّب من ذكر القرد الذى يُقال إن القُوّادَ فى زمن « زبيدة » كانوا يدخلون لسلامٍ عليه ، وأن « يزيد بن مَزْيَدَ الشيبانى » دخل فى جملة المسلّمين فقتله » .

(٤٥٤)

« وربما كان الجاهل أو المتجاهل ، ينطق بالكلمة ، وَخَلَدُهُ بضدّها آهلٍ . وإنما أقول ذلك راجيًا أن أبا عيسى – ابن الرشيد – ونظراءه ، لم يتّبعوا فى الغى أُمَرَاءَهُ ، وأنهم على سِوَى مَا عَلَنَ يبيتون .

« ورأى بعضُهم عبدَ السلام بن رَغْبَان المعروف بديك الجن ، فى النوم وهو بِحُسْنِ حال ، فذكر له الأبيات الفائية :

هى الدنيـــا وقد نعموا بأخرى   وتسويفُ الظنون من السواف !

أى الهلاك . فقال : إنما كنت أتلاعب بذلك ولم أكن أعتقده .

« ولعل كثيرًا ممن شُهِرَ بهذه الجهالات تكون طَوِيَّتُهُ إقامةَ الشريعة ، والإرتاع برياضها الْمَرِيعَة ، فإن اللسان طمَّاح ، وله بالفَنَد إسماح » .

(٤٤٦)

مفتريات وتقوّلات :

ولم يغفل « أبو العلاء » ، عمَّا داخَلَ المروىَّ عن الزنادقة ، ورؤساء الطوائف والمذاهب ، من مفتريات وتقولات وأكاذيب ، إما كيدًا وانتقامًا ، كما حدث لبشار من يعقوب بن داود (٤٢٩) ، وإما تزيدًا وتقولاً ، كالكثير مما افترى للحلاج ، وما قيل على لسان العلوى البصرى (٤٨٨ : ٤٥٣) .

ولم تمنعه مكانة « علىٍّ » كرم الله وجهه – وقلما يفوته أن يذيّل اسمه بالسلام عليه ، ويجعله فى رحلة الغفران إلى العالم الآخر شفيعًا عند الرسول ﷺ فى الشفاعة للأعشى ، كما يجعل آله رضى الله عنهم وسيلةً إلى « فاطمة » عليها السلام » ، ويخصّهم يوم الحشر بموقف كريم من رِضَا الله . ويعرض « تميم بن أُبَىٍّ بن مقبل » لحسابٍ شديد ، لأنه كان فيمن قاتل على بن أبى طالب (٢٤٧ : ٢٥٢) .

أقول : لم تمنعه مكانة علىٍّ كرم الله وجهه ، من أن يحمل على غُلاة الشيعة ، ويرفض ما ادعوه لأمير المؤمنين ، مما لا يقبله عقل .

« وكذلك ادعاء من يدّعى أن عليًّا عليه السلام قال : « تهلك البصرة بالزنج » ، فصحَّفها أهل الحديث « بالريح » . لا أؤمن بشىء من ذلك . ولم يكن علىّ عليه السلام

ممن يُكشَف له عِلْمُ الغيب ، وفى الكتاب العزيز : ﴿لا يعلمُ مَن فى السموات والأرض الغيبَ إلا الله﴾[1] .

« وأما الذين يدَّعون فى علىٍّ ما يدعون ، فتلك ضلالةٌ قديمة ، ودِيمةٌ من الغواية تتصل بها ديمة ..

« واعتقادُ الكيسانية فى « محمَّد بن الحنفية » عجيب ، لا يصدِّق بمثله نجيب . وقد رُوى أن أبا جعفر المنصور رُفعت له نارٌ فى طريق مكة فى الليلة التى مات فيها فقال : قاتل الله الحِميَّرى ، لو رأى هذه النارَ لظنَّ أنها نار محمد بن الحنفية » .

(٤٩٣ - ٤٩٤)

« وتؤدى هذه النحلة إلى التناسخ ، وهو مذهب عتيق ، يقول به أهل الهند ، وقد كثر فى جماعة من الشيعة » (٤٥٨) .

« وبعض الشيعة يحدث أن سَلمان الفارسى فى نفر معه ، جاءوا يطلبون علىّ بن أبى طالب سلاك الله عليه ، فلم يجدوه فى منزله ، فبينا هم كذلك جاءت بارقة تتبعها راعدة ، وإذا علىّ قد نزل على إجَّار البيت ، فى يده سيف مخضوب بالدم ، فقال : « وقع بين فئتين من الملائكة ، فصعدت إلى السماء لأصلح بينهما » . فحاق بهم العذابُ الأليم . أفلا يرى إلى هذه الأمة كيف افتنَّت فى الضلالة كافتنانِ الربيع فى إخراج الأكلاء » .

(٤٩٧ - ٤٩٨)

موقف أبى العلاء ممن يدعى الربوبية :

ولا أرتاب فى صدق « أبى العلاء » فى الحملة على أباطيل المـدَّعين ، وأكاذيب أصحاب البدع والنحل ، ولعل أشدَّ ما كان يغيظه من هذا ، التجاسُر على ادعاء الربوبية :

« وهذه الطبقة - لعنها الله - تستعبد الطغام بأصناف مختلفة ، فإذا طمعتْ فى دعوى الربوبية لم تَتَّئِبْ[2] فى الدعوى ، ولا لها عمًّا قُبح رعوى .

« وإذا طمع بعض هؤلاء ، فإنه لا يقتنع بالإمامة ولا النبوة ، ولكنه يرتفع صُعدًا فى الكذب .

« ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة فى الدهر القديم ، لما حضرته المنية جمع أصحابه ، وجعل يقول لهم لما أحس بالموت : « إنى قد عزمت على النقلة ، وقد كنت بعثت موسى وعيسى ومحمدًا ، ولابد لى أن أبعث غير هؤلاء » . فعليه اللعنة !! لقد كفر أعظم الكفر ، فى الساعة التى يجب أن يؤمن فيها الكافر ، ويئوب إلى آخرته المسافر »

(٤٤٢)

* * *

---

(١) من آية ٦٥ سورة النمل .

(٢) أى : لم تَستَحِ .

وأما موقف أبى العلاء من ادعاء النبوة ، فهو يأباها إباء صادقًا مخلصًا ، ويراها من مُدَّعيها أكذوبة سافرة ، فمضى يكشف عن زيف « معجزات المتنبى » على الرغم مما يُكِنُّه للشاعر من تقدير .

(٤٤٢)

وقال : « ولم تكن العرب فى الجاهلية تقدم على هذه العظائم ، والأمور غير النظائم ، بل كانت عقولهم تجنح إلى رأى الحكماء ، وما سلَف من كتب القدماء ، إذ كان أكثرُ الفلاسفة لا يقولون بِنبِىٍّ ، وينظرون إلى من زعم ذلك بعين الغبىِّ » .

(٤٤٠)

« .. وافتنَّ الناس فى الضلالة حتى استجازوا دعوى الربوبية ، فكان ذلك تنطُّسا فى الكفر ، وجمعًا للمعصية فى المزاد الوفر ، وإنما كان أهل الجاهلية يدفعون النبوة ولا يجاوزون ذلك إلى سواه » .

(٤٤١)

* * *

بعد هذا العرض السريع لما تُقدم (رسالة الغفران) من آراء فى طبيعة الإلحاد ، ومنشئه ، ودواعيه ، وعوامل انتشاره ، أرى أن « نيكلسون » لم ينصف الغفران حين قال :

« وأبو العلاء لا يحاول أن يتعمق ويمضى إلى ما تحت السطح ، بل إن ملاحظاته فى أصل الزندقة جزئية تافهة . فهو لا يقدم نظرية كتلك التى قدمها Chwolson فكان من الممكن أن تقوم عليها قضية قوية ، وهى أن كثيرًا من هذه النحل قد تسرب إلى الإسلام منتشرًا عن طريق الفرس ، لإفساد المحمدية وتطعيمها بعناصر وأفكار فارسية ، ولكى تعيد إقامة الدين القديم على أنقاض مضطهِدهِ :

To honney comb Muhammadanism with, ideas and finally to re-establish the old faith upon the ruins of its oppressor.[1]

والتمس « نيكلسون » العذر لأبى العلاء فيما ذهب إليه من « سطحية ملاحظاته » ، فقال : « ومع كلٍّ ، فكيف يستطيع رجل الآداب ، وإن يكن مفكرًا وشاعرًا ، أن يستوعب التصور الفلسفى للتاريخ ، وهو ما يندر وجوده عند مؤرخى الإسلام المختصين ؟ »[2] .

وهو اعتذار يحمل دليل اتهامه ، فقد نظر المستشرق إلى أفكار « أبى العلاء » بعين لا يُرضيها تفكير مؤرخى الإسلام بعامة ، وحَكَم بلسان قومٍ يتهمون العقل الإسلامى بالعجز عن استيعاب التصور الفلسفى .

(١) J.R.A.S. 1902 P. 77.

(٢) J.R.S. 1902. P. 77.

ولعله لو عرض أقوال « أبى العلاء » فى الزندقة ، على النقد الحر والنظر المجرد عن العصبية ، لَقدَّر ما تقدمه « الغفران » من أخبار عن الزنادقة ، وآراء فى طبيعة معتقداتهم ، ليست من التفاهة والسطحية كما يقول ؛ ولا هى أقل قيمة تاريخية اجتماعية ، مما عده نظرية « شوانسون » .

* * *

على أن فى (الغفران) إلى جانب هذه الأقوال عن الزنادقة والإلحاد ، أقوالاً أخرى لها اتصال بالموضوع من بعيد ، كالفراسة ، والتنجيم ، والطيرة ، والشعوذة . وموقفه منها مثل موقفه من النحل : حزنٌ لجهل البشر وحمقهم ، وسخط على ريائهم ونفاقهم ، واحتكام إلى العقل وإلى ضوابط المنهج النقلى ، فى قبول ما يقبل من هذه الأخبار ، ورفض ما يرفض منها .

* * *

٣ - المسائل اللغوية والقضايا النقدية

مكانها فى الغفران .
الشعر ، والعروض ، والموسيقا .
الأمالى اللغوية :
النحو والصرف ، الأدب ، النقد ، الرواية .

مكانها فى الغفران :

لم يأت « أبو العلاء » بهذه المسائل درسًا متميزًا فى القسم الثانى من الرسالة ، أو موضوعًا مفردًا بحيث تلقاها مجتمعة فى مكان ، وإنما ساقها شتى متناثرة ، فى ثنايا الرد على رسالة « ابن القارح » ، على حين تراه يفرغ فى القسم الأول لرؤيا الجنة والنار ، كما يأتى الحديث عن الزندقة ، متميزًا فى موضعه من الرد على ابن القارح .

وهذا الصنيع من « أبى العلاء » يشبه أن يكون تناولاً عَرَضيًّا للمسائل اللغوية والأدبية ، غير مقصود لذاته ، وهذا هو ما دعا الأستاذ « الدكتور طه حسين » إلى الحكم بأن « أبا العلاء قصد إلى الفن الخاص ، وأما العلم فجاء عرضًا » .

غير أنا لو رجعنا البصر فى هذه المقولة لترددنا فى الحكم بأن ما أملاه « أبو العلاء » منها فى (الغفران) قد جاء عرضًا ، بل لعلنا لا نكتفى بالقول بأنها عنصر جوهرى من عناصر الرسالة ، وموضوع هام من مواضيعها الكبرى ، بل يقرب أن تكون الموضوع الأول فى (الغفران) ، حيث المطلب الشاغل لأبى العلاء عرض هذه المسائل اللغوية ، اعتزازًا بما يحفظ منها ، وإدلالاً بما له من رأى فيها . وقد كان عالمه الآخر عالَم أديب ، لغوى ، شاعر ، ناقد ، لم يرض أن يشغله شاغل عن حواره الأدبى وأماليه اللغوية وأحكامه النقدية ، ولم يحتمل أن ينصرف عن هذا فى جنة أو جحيم ، وطالما سمعناه يتعرض للشعراء واللغويين فى الجنة ناقدًا مناقشًا ، أو حافظًا راوية ، وإن يكونوا « فى شغل هذه الأباطيل » .

كما رأيناه فى موقف الهول حين الحشر ، يثير معركة أدبية يسوق فيها مآخذه على الرواة والنحاة « ومنادى الحشر يقول : أين فلان بن فلان ، والشوس الجبابرة من الملوك تجذبهم الزبانية إلى الجحيم ، والنسوة ذوات التيجان يُصَرْنَ بألسنةٍ من الوقود ... والشباب من أولاد الأكاسرة يتضاغَون فى سلاسل النار » (٢٤٨) .

ثم لما رحل بابن القارح إلى الجحيم ، ألفيناه يلتمس الشاعر بعد الشاعر ، ليسأله ويحاوره ، على مرأى من الزبانية والنار ومقامع الحديد .

وكذلك كان صنيعه فى القسم الثانى من الرسالة ؛ لا يكاد يتناول مسألة من المسائل التى تعرض لها « ابنُ القارح » فى رسالته ، إلا اتخذها سبيلاً لمناقشة رأى أدبى ، أو تحقيق مسألة لغوية ، أو عرض نقد فنى ، أو إملاء فصل فى مسألة بعينها من اللغة . ولعل مثل هذا يكفى للقول بأن الجانب اللغوى فى (الغفران) يكاد يكون موضوعها الأول ومطلبها المقصود ، ومن هنا لم يتناولها « أبو العلاء » فى مكان بعينه من (الغفران) ، ولم يخصص لها فصلاً من فصول رسالته ، بل بثها فى كل مناسبة ، ويشغل بها فى كل فصل .

وقد كانت (رسالة الغفران) من هذه الناحية ، موضع تقدير النقاد ، المتقدمين منهم والمتأخرين : أشار الذهبى إلى ما فيها من « أدب كثير » . وقال « الصفدى » فى (الغيث المسجم) : « ومن وقف على كلام أبى العلاء المعرى فى رسالة الغفران فى ذينك البيتين اللذين للنمر بن تولب ... وكيف غير القوافى منهما ونزلها على سائر حروف المعجم ، خلا حرف الطاء[1] ، عَلِمَ تمكنَ أبى العلاء من الأدب ، واطلاعَه على اللغة » .

وقال أستاذنا الدكتور طه حسين : « فإذا قرأت رسالة الغفران ، عرفتَ مقدار حذقه فى استظهار الغريب وتحقيقه ، وحفظ ما كان بين العلماء من الاختلاف »[2] .

كما قال بعد أن عرض لصنيعه ببيتى النمر : « فهذه القصة تظهرك على حظ أبى العلاء من الغريب وروايته ، وقدرته على الفقه به والتأوّل فيه ، كما أنها تظهرك على مقدار ما كان له من الصبر الشديد على البحث والاستقراء »[3] .

والتفت « ميجيل أسين بلاثيوس » إلى مكان اللغويات من الرسالة فقال[4] :

« ... ومع ذلك ، فإن المسألة الدينية تبدو ثانوية ، وأما الموضوع الرئيسى للرسالة فهو الحوار ونقد أعمال الشعراء » . كما نص « بلاثيوس » فى مكان آخر ، على أن المقصد الرئيسى الذى كان « أبو العلاء يتبعه : أدبى فنى[5] .

(١) يلاحظ هنا ، أن فى الغفران – كما وصلت إلينا – قافية على الطاء قال :
« فإن قال : منَ أم لقط ، جاز أن يقول : حَوارى بأقطِ – يريد أقط على اللغة الربعية –١٦٢ » ولعل الطاء فى عبارة « الصفدى » مصحفة عن الظاء ، إذ أشار « أبو العلاء » إلى قلتها ، وإن يكن – رغم القلة – جاء بما يسوى القافية عليها ، قال : فإن من أم حظ ، فإن الأطعمة تقل فيها الظاء كقلتها فى غيرها ، لأن الظاء قليلة جدًا ، ويجوز أن يقول حوارى بكظ ، أى يكظها الشبع ، أو نحو ذلك من الأشياء التى تدخل على معنى الاحتيال » – ١٦٢ ط رابعة ذخائر .

(٢) تجديد ذكرى أبى العلاء :– ٢٤٢ . » .

(٣) تجديد ذكرى أبى العلاء : – ٢٤٣ .

(٤) Miguel Asin: Islam and the Divine Comedy. P. 65. London 1926.

(٥) Miguel Asin: Islam and the Divine Comedy. P. 67.

وهذا يقتضى أن يكون لهذا الجانب قدر وافر من عنايتنا ، حين نتحدث عن المعالم الكبرى لنص الغفران .

على أن عنايتنا هنا لا تتجاوز حدودًا معينة ، إذ لا نبيح لأنفسنا أن نعرض لما لم نفرغ له من تلك المسائل ، كالعروض والموسيقا والقراءات ، فذلك أحق بالدرس المفرد ، يسبقه جمع إحصائى لما توزّع فى (الغفران) من هذه المسائل ، وتنظيمها أنواعًا ، كل نوع منها يضم الأشباه والنظائر مبثوثة فى الرسالة .

فحسبنا إيراد الأمثلة والشواهد لعالم « أبى العلاء » اللغوى الأديب الشاعر الراوية الناقد النظار ..

* * *

بين أيدينا عدد من البحوث الموجزة ، عالجت بعض هذه الجوانب الأدبية الفنية ، وإن كانت قد تناولت الموضوع جملة فى آثار « أبى العلاء » بوجه عام ، وقد أشرنا – فى حديثنا عن الزندقة – إلى البحث الذى ألقاه أستاذنا « عبد الحميد العبادى ، رحمه الله » فى المهرجان الألفى للمعرى ، عن (ناحية التاريخ من أدب أبى العلاء) ، وذكرنا ما جاء به فى بحثه من (رسالة الغفران) ، من إشارة إلى الحديث عن الفرق والنحل الإسلامية ، وما جاء فى قصيدة أبى هدرش من وقائع تاريخية ، وكلامه عن الدنانير والعملة الإسلامية .

وأشير هنا إلى بحثين آخرين أعِدّا للمناسبة ذاتها – المهرجان الألفى لأبى العلاء – **أحدهما** للأستاذ « فخرى البارودى » عن (المعرى والموسيقا) ، **والثانى** لأستاذنا « إبراهيم مصطفى رحمه الله » ، موضوعه : « أبو العلاء وعلم النحو » ، ومع أنهما – كما قلت – لم يختصّا الغفران بالدرس ، فإن ما فى بحثيهما وبحث الأستاذ العبادى عن التاريخ فى أدب أبى العلاء – لم يخرج فيه عن الغفران – يقوّى الشعور بضرورة تحقيق ما نرجوه من إفراد كل جانب من هذه الجوانب بالدرس المستقل(١) .

وأنبه بادئ ذى بدء ، إلى أن هذه المسائل اللغوية والأدبية متداخلة فى الغفران ، فكثيرًا ما يتعرض « أبو العلاء » للمسألة الواحدة ، من ناحية اشتقاقها اللغوى وإعرابها ، وتوجيه قراءات الأئمة ، للشواهد القرآنية ، كما يتعرض لها ثانية من ناحية وزنها العروضى ، وثالثة من ناحية النقد الأدبى ، وأكثر ما يكون هذا التداخل ، فيما بين المسائل الشعرية والنقد الأدبى ، وكذلك فيما بين الجوانب اللغوية قراءة وفقهًا وتصريفًا وإعرابًا ، بحيث نضطر إلى تكرار عرض المسألة ، مرة فى القضايا النقدية مثلاً ، وأخرى فى اللغوية .

على أنا حاولنا – قدر المستطاع – أن ننسق هذه المسائل ضبطًا للتناول ، وهو تنسيق أعوزنا فيه وضع كل مسألة فى باب بعينه ، فنظرنا فيها إلى الوجه الغالب عليها ، ومن ثم كانت الدوائر

(١) على نحو ما فعل الأستاذ الدكتور أمجد الطرابلسى فى كتابه « النقد واللغة فى رسالة الغفران ط دمشق » .

المرسومة لمباحث للباب مرنة ، تتسع فى النحو مثلاً لبحث لغوى اشتقاقى جاء مع المسألة النحوية . وتضم فى العروض مثلا ، نقدًا أدبيًا جاء فى سياق التحدث عن إقواء ، أو سناد ، أو زحاف ، أو مآخذ الشعراء لِرُواة شعر لهم ، أو فى وجه من القراءات .

* * *

الشعر والعروض :

ونبدأ بالحديث عن هذا الباب ، لأن عملنا فيه يقتصر على عرض نماذج مما فى (الغفران) منها ، وقد ننقل بعض أقوال ذوى الرأى فى هذه المسائل ، إذا كان لأقوالهم بالغفران اتصال ، كما قد نشير إلى ما تناوله الأقدمون من هذه المسائل التى نعرض لها فى (الغفران) ونوجز ما لهم فيها من مذاهب وأقوال .

وحظ المسائل الشعرية من (الغفران) غير قليل ، يكفى أن نفطن لأن نشير إلى أن « أبا العلاء » لم يقابل فى زيارته للجحيم سوى الشعراء وحدهم ، لنقدر اهتمامه برواية الشعر ونقده . ولأبى العلاء – غير هذه المحاورات مع الشعراء – آراء وأقوال فى الشعر والعروض ، نراها مبثوثة فى كثير من مواضع (الغفران) . ومن هذه الأقوال ما هو إلى النقد الأدبى أقرب ، لكنا نأتى هنا بأمثلة منه ، تدل على مذهب « أبى العلاء » فى الأمانى الشعرية ، وأسلوبه فى عرض قضاياه وأحكامه .

* * *

ونبدأ بالإشارة إلى مسألتين لم يتعرض « أبو العلاء » فيهما لشعر سواه ، وإنما قدّم بهما عملاً أدبيًا نضيفه إلى رصيده الغنى : ونعنى بهما : قصيدتيه على لسان العفريت « أبى هدرش ، الخيثعور أحد بنى الشيصبان ، من الجن المؤمنين » ، وعدد أبيات الأولى عشرون بيتًا ، ومطلعها :

حَمَدتُ مَنْ حَطّ أوزارى وَمزّقها   عنّى فأصبحَ ذنبى اليــوم مغفورا

(٢٩٢)

وعدد أبيات الأخرى تسعةٌ وستون بيتًا ، ومطلعها :

مكةُ أَقوَتْ من بنى الدرْدبيسِ   فَمَا لِجِنِّىٍّ بهـــا مــن حسيس

(٢٩٨)

وفيهما تتجلى براعة « أبى العلاء » ، ودقة حسه وسلامة ذوقه ، وعلمه بالغريب ، فقد استطاع هذا الشيخ الزاهد أن ينطق بلسان جِنى ، ويروى مغامراتِه قبل إيمانه ، ويقص غزواته فى بنى الإنسان ، فيخيل إليك أن هذا صوت عفريت حقًا : وأنه من شعر الجن صدقًا ،

بقافيته ، وألفاظه ، وجَرْسِهِ وإيقاعه ، وأسلوبه ومعانيه . وقد واتت « أبا العلاء » مقدرتُه الشعرية فنظم ما نظم ، فى مثل هذا ، دون أن يتعثر ، وأسعفته ثروته اللغوية ، فاختار ما شاء من ألفاظٍ ، غريبة ذات رنين خاص ، كأنما جاء بها من قاموس الجن :

يغبور – الهيق – الطنبوب – عمروس – فرفور ، الدردبيس – رديس – طسيس – غبيس – العربسيس – يعاليل – نكيس – الأنقليس – الخفيس – نهيس – اللسيس – الوريس – الرعيس – الدخيس – الشكيس – هلبسيس – العنتريس – المرمريس ... .

قد يتوهم سامعٌ أن من هذه الألفاظ ، أصواتًا لا معنى لها ، جاء بها « أبو العلاء » من وادى العفاريت المتخيَّل ، لكنا إذا رجعنا إلى معاجمنا ، ألفينا هذه الكلمات جميعًا ، إنسية خالصة ؛ شاهدة لصحة معانيها فى قصيدتى العفريت ؛ وسلامة مدلولها ، دون تكلف أو تعسف[1] .

* * *

وأخرى نشير إليها ها هنا ، وهى تفريعه على قافية بيت « النمر بن تولب » :

أَلَمَّ بِصُحْبَتى وهُمُ هُجوعٌ ... خيالٌ طارقٌ من أُمِّ حِصْنِ

لهـا ما تشتهى : عسلاً مُصفًّى ... إذا شـاءت ، وحُوَّارَى بسَمْنِ

وميمية « النابغة الجعدى » :

طيِّبةُ النشرِ وَالبُدَاهَةِ والـــ ... ـعِلاّتِ عند الرُّقادِ والنَّسَمِ

ورائية « النابغة الذبيانى » :

وإنى لألقى من ذوى الضغْن منهمُ ... وما أصبحتْ تشكو من الهمِّ ساهرَه

فلأبى العلاء هنا ثلاثُ محاولات تُحمَل على الرياضة فى الدرس الشعرى واللغوى :

فى الأولى ، نراه يمرّ بالقافية فى بيتى « النمر » على حروف الهجاء جميعًا ، مبتدئًا من حيث انتهى « خلف الأحمر » فى محاولته الجزئية المفردة ، التى لم تتجاوز استبدال خلف الأحمر الصاد فى قافية بيتى النمر بالنون ، قال أبو العلاء :

« وهو – أى ابن القارح – يعرف حكايةَ خلف الأحمر مع أصحابه فى هذين البيتين ، ومعناها أنه قال لهم : لو كان موضعَ أمِّ حصن ، أُمُّ حَفْص ، ما كان يقول فى البيت الثانى ؟ فسكتوا . فقال : حُوَّارى بِلَمْصٍ ، يعنى الفالوذ » .

ثم استطرد أبو العلاء :

« وَيُفرِّعُ على هذه الحكاية فيقال : لو كان مكانَ أمِّ حصن ، أمُّ جَزء ، وآخرُه همزة ، ما كان يقول فى القافية الثانية ؟ » .

---

(١) يأتى المشهد كاملا فى مشاهد مسرح الغفران . وارجع إلى نص القصيدتين فى صفحتى ٢٩٢ ، ٢٩٨ من (رسالة الغفران) – ط ذخائر . وفيه تفسير الغريب من ألفاظهما .

واستمر حتى اتى بالقافية على حروف الهجاء جميعًا ، منتهزًا كل مناسبة ، ليملى فصولاً لغوية ، ومستطردًا بين آن وآن ، إلى تفسير أو شرح أو تعليق ، على النحو الآتى مثلاً :

« فإن خرج إلى الحاء فقال : من أم شح ، جاز أن يقول : وحُوَّارى بِمُحٍّ ، وَبُبحٍّ ، وَبِرُحٍّ ، وبجحّ ، وبِسُخٍّ . فالمُحّ : مُحّ البيضة ، وبُحّ : جمعُ أبحَّ ، من قولهم : كِسْرٌ أبحُّ ، أى كثيرُ الدسم ، قال :

وعاذلةٍ هبَّت علىَّ تلومنى وفى كَفِّها كِسْرٌ أبحُّ رَذومُ

« ويجوز أن يعنى بالبُحِّ القداحَ ، أى : هذه المرأةُ أهلُها أيسارٌ ، كما قال السُّلَمىُّ :

قَرَوْا أضيافَهم رَبَحًا بِبُحٍّ يعيشُ بفضلِهنَّ الحىُّ ، سُمْرِ

وَرُحٌّ جمعُ أرَحَّ ، وهو من صفاتِ بقرِ الوحش ، أى يُصادُ لهذه المرأة ... والسُّحُّ : تمرٌ صغار يابس ، والجُحُّ : صغار البطيخ ... ..

... ...

« فإن قال : أم كُرْزِ ، فإنَّ أشبه ما يقول : وحُوَّارى بأرز ، وفيه لغاتٌ ست : أُرُزٌّ ، على وزن أُشُدّ ، وَأُرُزٌّ على وزن صُمُلّ ، وَأُرُزٌّ على وزن شُغُل ، وَأُرْزٌ على وزن قُفْل ، ورُزٌّ على وزن جُدّ ، ورُنْز ، بنونٍ ، وهى رديئة ... .

... ...

« ... فإن قال : أم نخل ، قال : حُوارى بِرَخْلٍ ، يريدُ الأنثى من أولاد الضأنِ ، وفيه أربعُ لغات : رَخِلٌ ورَخْلٌ ورِخْلٌ ورِخِلٌ » .

وهكذا إلى حرف الياء ...

وقد وقف دارسون عند هذه المحاولة معجبين ، نذكر منهم الصفدى ، والدكتور طه حسين ، وقد سمعتَ ما قالا فيها (١٥٤ — ١٦٤) .

* * *

وفى ميمية « النابغة الجعدى » ، ورائية « الذبيانى » محاولتان أخريان ، لا تتصلان بالقافية والتفريع عليها ، بل بالألفاظ والمعانى ، فهو يتلو قصيدة الجعدى :

طيبة النَّشرِ والبَداهة والـ ـعِلاَّتِ عند الرقاد والنَّسَمِ
كأن فاها إذا تُنَبِّهُ من طيبِ مَشَمٍّ وحُسنِ مُبْتَسَمِ
يُسَنُّ بِالضَّرْوِ من بَراقِشَ ، أو هَيْلاَنَ ، أو ضامرٍ من العُتُمِ
رُكِّزَ فى السام والزبيب أقا حِىُّ كثيبٍ تُعَلُّ بالرِّهَمَ
بماءِ مُزْنٍ من ماء دَوْمَةَ قد جُرِّدَ فى ليلِ شَمْأَلٍ شَبِمِ
أُلْقِىَ فيه فِلْجان : من مسكِ دا رِينَ ، وفلجٌ من فُلْفُلٍ ضرِمِ

إلى آخر القصيدة .

ثم يتتبعها بالنقد لألفاظها ومعانيها ، عن طريق مقارنتها بما يجد فى الجنة ، على النحو الآتى :

« أين طيبُ هذه الموصوفة من طيب مَن تشاهده من الأتراب العُربِ ؟ .. وأين فوها المذكّر من أفواهٍ ماوَلج إليها المُنكر ؟ .. ما سامُك أيها الرجل وَزبيبك ، ما حَسُن فى العاجلة حبيبُك ، وإن ثغرًا يفتقر إلى قضيب البشام ، لَيُجْشِمُ حليفه بعضَ الإجشام ... ..

« وما الماءُ الذى وصفته من دَوْمَةَ ، وغيره ينافى اللَّوْمَةَ ؟ أليس هو إن أقام أَجَنَ ؟ ... ..

« ما عُقارِكَ وما فِلْجاكَ ؟ زالتْ عن مقلتِكَ دُجَاكَ ! ولو دخل مِسكُ دارينَ جنةَ ربِّنا الموهوبةَ لغير الْمُمَارِين ، لعُدّ فى ترابها الذَّفِر ، كَصِيقِ المقتولِ ، أو دنس قدَم مبتول ؟ زعمتَ أنها تُطَيَّب بالفلفل ، وشبَّهها غيرك بنسيم القرنفل ؟ إن فى هذه المنزلة لَنَشْرًا ، لا يزيد على نشر الفانية عَشرًا ، ولكن يشِفّ بعددٍ لا يُدرك ولا يُنال .. »

(٢١٩ : ٢٢٣)

وأما قصيدة « الذبيانى » ، « فأبو العلاء » يُحلّ نظمَها فى قصةٍ ترويها إحدى حَياتِ الجنة ، محتفظًا بألفاظ « النابغة » وعباراته ، ثم يتلو القصيدة بعد أن تفرغ القصة (٣٦٤) .

* * *

وننظر فيما جاءت به (رسالة الغفران) من مسائل الشعر ، فنراها حافلة بكثير منها :

تعريف الشعر :

يعرف « أبو العلاء » الشعر بأنه :

« كلام موزون تقبله الغريزة ، على شرائطَ ، إن زاد أو نقص أبانه الحِسُّ » .

العرب والشعر :

ويشير إلى اختصاص العرب به وتعلقهم بنظمه ، فيقول على لسان ابن القارح فى موقف الحشر ، بعد أن يئس من « رضوان » خازن الجنة :

« .. وانصرفتُ بأملى إلى خازنٍ آخرَ يقال له زُفَر ، ... .. فقلت : رحمكَ الله ! كنا فى الدار الذاهبة نتقرب إلى الرئيس والملك بالبيتين أو الثلاثة ، فنجد عنده ما نحب ، وقد نظمتُ فيكَ ما لو جُمِع لكان ديوانًا ، وكأنكَ ما سمِعتَ لى زجمة – أى كلمة – فقال : لا أشعر بالذى حممتَ – أى قصدت – وأحسب هذا الذى تجيئنى به قرآنَ إبليسَ المارِدِ ، ولا يَنْفُق على الملائكة ، إنما هو للجانّ ، وعلَّموه ولدَ آدم ، فما بُغيتُك ؟ فذكرتُ له ما أريد ، فقال : والله ما أقدر لك على نفع ، ولا أملك لِخَلْقٍ من شَفْع ، فمِنْ أىِّ الأمم أنت ؟ فقلتُ : من أمة

محمد بن عبدالله بن عبد المطلب . فقال : صدقتَ ، ذلك نبى العرب ، ومن تلك الجهةِ أتيتنى بالقريض ، لأن إبليسَ اللعينَ نَفَثَهُ فى إقليمِ العربِ ، فتَعَلَّمَهُ نساءٌ ورجال » (٢٤٧ : ٢٥٢) .

كما يشير إلى تعلق العرب بالنظم ، وإن لم يكن صناعةً رابحة ، قائلاً على لسان « حُميد بن ثور الهلالى » :

« ولقد كان الرجل منا يُعمل فِكرَه السنةَ والأشهرَ ، فى الرجل قد آتاه اللهُ الشرفَ والمالَ ، فربما رجع بالخيبة ، وإن أعطى فعطاء زهيد ، ولكنَّ النظَم فضيلةُ العرب » (٢٦٣) .

من أنواع البديه :

فى الرد على ابن القارح تحدث فى (الغفران) عن أفانين البديه :

فمنه (القَبَل) وهو الارتجال .

(وبديهُ التمليط) وذلك أن يقول شاعر نصف بيتٍ ويُتِمَّه الآخرُ .

(وبديه الإعنات) (٥٤٧) .

التلبية :

وجاء فى (الغفران) بفصلٍ فى التلبية عند العرب ، جمع فيه قدرًا من تلبيات القبائل فى الجاهلية . قال يشير إلى حِجَجِ « ابن القارح » الخمس :

« وكأنى به وعمائمُ الحجيج يرفعون التلبيةَ بالعجيج ، وهو يفكر فى تلبيات العرب، وأنها جاءت على ثلاثة أنواع : مسجوعٍ لا وزن له ، ومنهوكٍ ، ومشطورٍ ، فالمسجوع كقولهم :

لبيكَ ربَّنـا لبيك والخيرُ كلّهُ بيديْكْ

والمنهوك على نوعين : أحدهما من الرجز ، والآخر من المنسرح :

فالذى من الرجز كقولهم :

لَبَّيْكَ إنَّ الْحَمْدَ لَكْ والمُلْكَ لا شريكَ لَكْ

إلاَّ شريكٌ هُوَ لَكْ تملكهُ ومَـا مَـلَكْ

أبو بَنَاتٍ بِفَدَكْ

فهذه من تلبيات الجاهلية ، « وفدكُ » فيها يومئذ أصنام . وكقولهِم :

لبيكَ يا مُعطـى الأمِرْ لبيكَ عن بنى النَّمِرْ

جئناك فى العـام الزَّمِرْ تأْمُلُ غيثًا ينهمـرْ

يطرقُ بالسبلِ الخَمِرْ

والذى من المنسرح جنسان : أحدهما فى آخره ساكنان ، كقولهم :

لبيــــكَ ربٌّ همـــدان   من شاحطٍ ومن دانْ
جئناكَ نبغى الإحســان   بكلِّ حـــرفٍ مِذْعـَانْ
تطوى إليك الغيطـــان   نأملُ فضــلَ الغفــرانْ

والآخر لا يجتمع فيه ساكنان كقولهم :

لَبَّيْكَ عَنْ بَجيلَهْ   الفَخْمَةِ الرَّجيلَهْ
وَنِعْمَتِ القبيلَهْ   جاءَتْكَ بالوسيلَهْ
تُؤَمِّلُ الفضيلَهْ

وربما جاءوا به على قواف مختلفة ، كما رووا فى تلبية « بَكرِ بنِ وائل » :

لبيكَ حقًّا حقا   تعبُّــدا ورقًّـــا
جئناكَ للنصاحَه   لم نأتِ للرقاحه

والمشطورُ جنسانِ : أحدهما عن « الخليــل » من الرجــز ، كما روى فــى تلبيةِ « تميم » :

لبيكَ لولا أن بَكْرًا دُونكَا   يشكرُك الناسُ ويكفرونكا
مازال منّا عثَجٌ يأتونكا

والآخر من السريع ، وهو نوعان : أحدهما يلتقى فيه ساكنان ، كما يروون فى تلبية « همدان » :

لبيك معْ كل قَبيــــلٍ لَبُّوكْ   همدانُ أبناء الملــوكِ تدعوكْ
قد تركـوا أصنامَهم وانتابوكْ   فاسمعْ دعـاءً فى جميع الأمْلُوكْ

قولهم : « لَبُّوك » ، أى : لزموا أمرك ، ومن روى « لَبَّوْك » فهو سناد مكروه .
والمشطور الذى لا يجتمع فيه ساكنان ، كقولهم :

لبيكَ عن سعدٍ وعن بنيها   وعن نساءٍ خلفَها تَعْنِيها
سارَت إلى الرحمة تجتنيها

والموزون من التلبية يجب أن يكون كُلُّهُ من الرجز عند العرب . ولم تأت التلبية بالقصيدِ ، ولعلهم قد لبوا به ولم تنقله الرواة » ٥٣٤ : ٥٣٧ .

* * *

درجات الشعر ومراتب الشعراء :

أشار « أبو العلاء » غير مرة ، إلى أشعار الضعفة من المحدَثين ، وتكلم طويلاً فى ضعف الرجز ، وقصوره عن مراتب الشعر ، وما يغلب عليه من خشونةٍ وتكلف . وقد عرض لهذه المسألة أولاً حين قال ، بلسان ابن القارح ، لامرئ القيس :

« أخبرنى عن التسميط المنسوبِ إليك ، أصحيحٌ هو عنك ؟ » وينشده الذى يرويه بعض الناس :

يا صحبَنا عرِّجُوا   تَقِفْ بِكُم أُسُجُ
مَهْرِيَّةٌ دُلُـــجُ   فى سيرها مُعُجُ

طالت بها الرِّحَلُ

(الأبيات)

« فيقول : لا والله ما سمعتُ هذا قط ، وإنه لَقَرِيٌّ لم أسلكه ، وإن الكذب لكثير . وأحسب هذا لبعضِ شعراء الإسلام ، ولقد ظلمنى وأساء إلىّ ، أبعدَ كلمتى التى أولها :

أَلا انعِمْ صباحًا أيهـــا الطَّلَلُ البـــالى   وهل يَعِمنْ من كان فى العُصُرِ الخالى ؟

وقولى :

خليلىَّ مُرَّا بـى على أُمِّ جُنْدُبِ   لأقضىَ حاجاتِ الفــؤاد المعذَّبِ

يقال لى مثلُ ذلك ؟ والرجزُ من أضعف الشعر ، وهذا الوزن من أضعف الرجز » .

(٣١٨ : ٣٢٠)

فإذا كان فى الجنة ، جمع أبو العلاء الرُّجَّاز لابن القارح واختار لهم مكانًا متواضعًا كمكانتهم فى الشعر ، قال :

« ويمر بأبياتٍ ليس لها سموقُ أبيات الجنة ، فيسأل عنها فيقال : هذه جنةُ الرُّجَّز ، يكون فيها « أغلبُ بنى عِجْل ، والعَجّاج ، ورؤبةُ ، وأبو النجم ، وحُميد الأرقطُ ، وعُذافِرُ بنُ أوسٍ ، وأبو نُخَيْلَةَ ، وكل مَنْ غُفِرَ له من الرُّجَّاز » . فيقول : تبارك العزيز الوهاب ! لقد صدق الحديثُ المروى : « إن اللهيحب معالى الأمورِ ويكره سفسافها ، قصَّرتم أيها النفرُ فقُصِّر بكم .. أقسمتُ ما يصلح كلامُكم للثناء ، ولا يفضُل عن الهناء ، تَصُكُّونَ مسامعَ الممتدحِ بالجندلِ ، وإنما يطربُ إلى المندل . ومتى خرجتم عن صِفَةِ جمل ترثون له من طولِ العمل إلى صفةِ فرسٍ سابح ، أو كلبٍ للقنصِ نابح ، فإنكم غيرُ الراشدين » .

فإذا عَرَضَ له « رؤبة بن العجاج » غاضبًا مفاخرًا ،قال له : « لو سُبِكَ رجزُك ورجزُ أبيك ، لم تخرج منه قصيدةٌ مستحسنة » (٣٧٤ : ٣٧٧) .

وعاد مرة ثالثة بالرجز والرُجّاز ، فى المأتم الذى أقامه أبو العلاء لأبى تمام من قصائده – فى القسم الثانى من الغفران – قال عن مجىء قصيدتيه الثائيتين إلى المأتم : « وإن الثاء لقليلةٌ فى العرب ، إلا أنهما تستعينان كلمة كُثَيِّر :

حِبالُ سلاَمَةَ أضحتْ رِثاثا فُسقيًا لها ، جُدُدًا أو رِماثا

وبأراجيز رؤبةَ ، وما كان نحوها من القوافى المتكلفة ، والأشعار المتعسفة » (٤٨٦) .

* * *

الشعر والرواة :

ويأتى « أبو العلاء » بعدد من الشعراء ويحكمهم فى صنيع الرواة بشعرهم ، وما كان من تكلفهم فى تأويله وإفسادهم إياه .وهو يسوق آراءه النقدية فى أسلوب طريف ، بلسان ابن القارح على طريق الحوار :

« فيقول لامرئ القيس : يا أبا هند ، إن رواة البغداديين ينشدون فى (قفا نبك) هذه الأبيات بزيادة الواو فى أولها ، أعنى قولك :

* وكأن ذُرَى رأس المجيمر غدوةً *(١)

وكذلك :

* وكأن مكاكىَّ الجــواء ... *

* وكأن السباعَ فيه غَرقى ... *

فيقول : أَبْعَدَ اللهُ أولئك ! لقد أساءوا الرواية ، وإذا فعلوا ذلك فأى فرق يقع بين النظم والنثر ؟ ذلك شيءٌ فعله من لا غريزة له فى معرفة وزن القريض ، فظنَّه المتأخرون أصلاً فى المنظوم ، وهيهات هيهات .. » . وسأله فى قوله : * كَبِكْرِ المقاناة البياض بِصُفْرَةٍ * كيف ينشد : البياضِ ، أم البياضَ ، أم البياضُ ؟ فيقول : كل ذلك حسن ، وأختار البَياضِ ، بالكسر ، فيقول – فَرَّغَ اللهُ ذهنه للآداب : لو شرحت لك ما قال النحويون فى ذلك لعجبت أشد العجب » . ثم قال الشيخ :

« وبعضُ المعلمين ينشد قولك :

* مِنَ السَّيْلِ والغُثَّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ *

فيشدد الثاء . فيقول : إن هذا لَجَهُولٌ ،وهو نقيضُ الذين زادوا الواو فى أوائل الأبيات – يعنى الأبيات التى أشرنا إليها فى الفقرة السابقة – أولئك أرادوا النَسق فأفسدوا الوزن ، وهذا البائس أراد أن يصحح الزنَةَ فأفسد اللفظ » (٣١٥) .

---

(١) انظر ما قيل فى هذين البيتين ، فى رسالة الغفران – ذخائر .

ويستطرد امرؤ القيس :

« وكذلك قولى :« فجئت وقد نضت لنوم ثيابها » منهم من يشدّد الضاد ، ومنهم من ينشد بالتخفيف ، والوجهان من قولك : نضَوت الثوب ، إلا أنك إذا شددت الضاد أشبه الفعل من النَّضيض ، يقال : هذه نضيضة من المطر ، أى قليل .والتخفيف أحبُّ إلىَّ ، وإنما حملهم على التشديد كراهةُ الزحاف ، وليس عندنا بمكروه .. » .

« فيقول – لا برح منطيقًا بالحِكَم – فأخبرنى عن كلمتك (الصَّادِيَّة) ، و(الضَّادِيَّة) ، و(النونية) التى أولها :

لمـن طلل أبصرتُــه فشـجانى كخطِّ زبـورٍ فى عسيبِ يَمانِ

لقد جئتَ فيها بأشياء ينكرها السمع ، كقولك :

فإن أُمْسِ مكروبًا فيا رُبَّ غَارَةٍ شَهِدْتُ على أَقَبَّ رِخوِ اللَّبَـانِ

وكذلك قولك فى الكلمة الصادية :

على نَقْنِقٍ هَيْقٍ له وَلِعِرْسِهِ بِمُنْقَطَعِ الرَّغْسَاءِ بَيْضٌ رَصِيصُ[1]

وقولك ... فى أشباه لذلك ، هل كانت غرائزكم لا تحس بهذه الزيادة ؟ أم كنتم مطبوعين على إتيان مغامض الكلام وأنتم عالمون بما يقع فيه ؟ كما أنه لا ريب أن « زهيرًا » كان يعرف مكان الزحاف فى قوله :

يطلبُ شأو امرأينِ قَدَّمَا حَسَبًا نالا الملـوك وبذَّا هذه السُّوقا

فإن الغرائز تُحِسُّ بهذه المواضع ، فتبارك الله أحسن الخالقين . فيقول امرؤ القيس : أدركنا الأولين من العرب لا يحفلون بمجيء ذلك ، ولا أدرى ما شجَن عنه ، فأما أنا وطبقتى فكنا نمر فى البيت حتى نأتى إلى آخره ، فإذا فنى وقارب تبين أمرُه للسامع .

فيقول – ثَبَّتَ الله تعالى الإحسان عليه – : أخبرنى عن قولك :

ألا ربَّ يومٍ لك منهن صالح ولا سيما يومٌ بدارةِ جُلْجُلِ

أتنشده : « لك منهنّ صالحٍ » فَتُزَاحِفُ ؟ أم تنشده على الرواية الأُخرى[2] ؟..

فيقول امرؤ القيس : أما أنا فما قلت فى الجاهلية إلا بزحاف : « لك منهنّ صالح » . وأما المعلمون فى الإسلام فغيروه على حسب ما يريدون ، ولا بأس بَالوجه الذى اختاروه » (٣١٣ : ٣٢٢) .

* * *

(١) النقنق : ذكر النعام ، والهيق : الطويل .

(٢) الرواية الأخرى التى يشير إليها هى :

« ألا رُبَّ يومٍ صالحٍ لكَ منهما »

مسائل عروضية :

وإلى جانب ما ذكرنا ، توجد فى (الغفران) مسائل عروضية مفردة ، جاء بها أبو العلاء ليناقشها أو يلقى برأى فيها . وأول ما يلقانا منها إنشاده فى ديباجة الغفران بيتى أبى الهندى :

سيُغنى أبا الهندى عن وَطْبِ سالمٍ   أباريقُ لم يَعلَقْ بها وضَرُ الزُّبْدِ
مُفَدَّمَةٌ قزًّا كأن رقابها   رقابُ بناتِ الماء أفزعَها الرعدُ

ثم قال : « هكذا يُنشد على الإقواء ، وبعضهم ينشد :

* رقابُ بناتِ الماء خِيفتْ من الرعدِ *

والروايةُ الأُولى إنشاد النحويين ، وما استشُهدِ بهذا البيت إلا وقائله عند المستشهدِ فصيحِ ، فإن كان أبو الهندىّ ممن كتب وعرف حروفَ المعجم فقد أساء فى الإقواءِ ، وإن كان بَنى الأبيات على السكون فقد صحَّ قول « سعيد بن مسعدة » فى أن الطويلَ من الشعرِ له أربعة أضرب .. » (١٤٣) .

وأشار « أبو العلاء » فى القسم الثانىّ من (الغفران) إلى بيتين رواهما « أبو عثمان الناجم » « لابن الرومى » . وجاء بهما « ابن القارح » فى رسالته إلى أبى العلاء ، وهما :

أبا عثمانَ أنت قريعُ قومِكْ   وجودك فى العشيرة دونَ لومكْ
تمتَّعْ من أخيك فما أراه   يراك ولا تراه بعدَ يومِك

علَّق عليهما « أبو العلاء » بقوله : « والبيتان اللذان رواهما الناجم عن ابن الرومى مقيَّدان ، وما علمتُ أنه جاء عن الفصحاء هذا الوزن مقيدًا ، إلا فى بيت واحد يتداوله رواة اللغة ، والبيتُ :

كأن القومَ عُشُّوا لحم ضأنٍ   فهمْ نَعِجون قد مَالتْ طُلاهمْ

وهذا البيت مؤسَّس ، والذى قاله ابن الرومى بغير تأسيس » (٤٨٣) .

ويأتى فى مشاهد مسرح الغفران ، قوله لعمرو بن كلثوم : « لوددت أنك لم تساند فى قولك فى المعلقة :

كأنَّ متونَهن متونُ غدْرٍ   تُصَفِّقُها الرياحُ إذا جرينا

فيقول عمرو : إنك لقريرُ العين لا تشعر بما نحن فيه ، فاشغل نفسك بتمجيد الله ، واترك ما ذهب فإنه لا يعود . وأما ذكرُك سنادى فإن الإخوة ليكونون ثلاثة أو أربعة ، ويكون فيهم الأعرج والأبخقُ فلا يعابون بذلك ، فكيف إذا بلغوا المائة فى العدد ؟ » (٣٢٩) .

وناقش إقواء « الحارث اليشكرى » فى معلقته فقال : « ولقد شنَّعتَ هذه الكلمة بالإقواء فى ذلك البيت[١] (٣٣٢) .

---

(١) البيت هو :

زعموا أن كُلَّ مَنْ ضَرَبَ العَـ   ـيْـر مُوَالٍ لنا وأَنَّا الوَلاءُ

كما أشار إلى الزحاف فى قصيدة « المتنخل الهذلى » :

أبيتُ على معارِىَ فاخراتٍ   بِهِنَّ مُلَوَّبٌ كدمِ العباط

(٣٦٩)

ومن حديثه مع « طرفة » :

« ولقد جئتَ بأعجوبة فى قولك :

لو كان فى أملاكنا ملِكٌ   يَعْصِرُ فينا كالذى تعصرْ

لأَجْتَبْتُ صحنى العراق على   حرفٍ أمونٍ دفُّها أَزْوَرْ

ولكنك سلكت مسالكَ العرب ، فجئتَ بقرىٌّ كلمة « المرقش » :

هل بالديارِ أن تجيبَ صمَمْ   لو كان حيًّا ناطقًا كَلَّمْ

وقول « الأعشى » :

* أقصر فكلُّ طالبٍ سَيُمَلّ *

على أن « مُرَقِّشًا » خَلَطَ فى كلمته فقال :

ماذا علينا أن غزا ملك   من آل جَفْنَةَ ظالمٌ مرغمْ

وهذا خروجٌ عمَّا ذهب إليه الخليل » (٣٣٧ : ٣٣٨) .

* * *

ومن قوله لعدى بن زيد :

« .. وقلتَ فيه – أى ولده علقمة بن عدى – :

أَنعم صباحًا عَلْقَمَ بنَ عَدِىّ   أثويتَ اليومِ لم ترْحلْ ؟

وإنى لأحارُ يا معشر العرب فى هذه الأوزان التى نقلتها عنكم الثقاتُ ، وتداولتها الطبقاتُ ، ومن كلمتك التى على الراء وأولها :

قد آن أَنْ تصحوَ أو تُقْصِرْ   وقد أتى لما عَهِدْتَ عُصُرْ

(١٩٧)

* * *

وقد يجمل بنا – قبل أن ندع هذا الحديث عن الشعر والعروض – أن نشير إلى مسألة تتصل بهما من قرب ، وتلتقى وإياهما فى مجال الفن ، وهى :

الموسيقا فى الغفران :

التفت « الأستاذ فخرى البارودى » – فى حديثه عن المعرى والموسيقا بالمهرجان الألفى لأبى العلاء – إلى ما جاء فى الغفران عن طرائق الغناء ، حيث يقول « ابن القارح » لإحدى قيان الجنة مطرباتِ المدعون إلى مأدبة ابن القارح :

« .. اعملى قولَ أبى أمامة ، وهو هذا القاعد :

أمن آل ميَّةَ رائــحٌ أو مُغْتَدِ عَجْلانَ ذا زاد وغيرَ مُزوَّدِ

ثقيلاً أولَ . فتصنعه فتجىء به مطربًا ، وفى أعضاء السامع متسربًا .. فيقول : هلُم خفيفَ الثقيل الأوَّل . فتنبعث فيه بنغم لو سمعه « الغريض » لأقر أن ما ترنم به مريض .. فإذا أجادته ، وأعطته المِهرَةَ وزادته ، قال : عليكِ بالثقيل الثانى ، ما بين المثالث والمثانى . فتأتى به على قَرِىٌّ لو سمعه « عبد الله بن جعفر » لقرن أغانىَّ « بُدَيْحٍ » إلى هديرِ ذى المشفر . فإذا رأى ذلك قال : سبحان الله ، كلما كُشِفَت القُدْرَةُ بدتْ لها عجائبُ ، لا تثبت لها النجائب ، فصيرى إلى خفيفِ الثقيل الثانى » .

« ثم يقترح عليها الرملَ وخفيفَه ، وأخاه الهزجَ وذفيفه ، وهذه الألحانُ الثمانية ، تَمنيها للأذن المانية » (٢١٣) .

ونترك للأستاذ البارودى ، أن يعلق على هذا فيقول : « فمن هذا الخبر يظهر لنا أن « المعرى » كان عارفًا بأصولِ الخروج من لحن إلى لحن ، إذ أن بين الأنغام توافقًا وتنافرًا ، وليست كلّ نغمة توافق السير مع غيرها من النغمات ، بل إن هناك نغمات لا تأتلف مع غيرها ألبتة . ونرى الجهلاء اليوم لفن الموسيقا يقترحون على مغن أغنية من مقام « السيكاه » بينما يكون المغنى آخذًا بإنشاد أغنية من « الحجاز كار » مثلا ، ففى هذه الحال لا يعلم إلا الله مقدار ما يصيب المغنى من التأثر التنافرى الواقع بين النغمتين ، وهذا مالم يغفل عنه « أبو العلاء » كما ظهر لنا من الخبر السابق ، وقد جاء فى (رسائل إخوان الصفا) : أنَّ الخروجَ من لحن إلى لحن ، والانتقال منه ، ليس له طريقٌ إلا على أحد الوجهين : إما أن ينقطع ويسكت ويصلح الدساتين والأوتار بالحذق والإرخاء ، ويبتدئَ (فيستأنف) لحنًا آخر .. (أو) يخرج من ذلك اللحن على لحن قريب منه مُشَاكِلٍ له ، وهو أن ينتقل من الثقيل إلى خفيفه ، أو من الخفيف إلى ثقيله ، أو على ما قارب منه »(١) .

هذا هو تعليق الأستاذ « البارودى » على ما فى (الغفران) من الألحان الثمانية .

ننقل معه تفسير « أبى العلاء » لهذه الطرائق التى أشار إليها فى (الغفران) واستوفاها فى (الفصول والغايات) لا فى (رسالة الغفران) .

(١) المهرجان الألفى لأبى العلاء – ص ٣٩٢ .

قال : ... والطرائق الثمانى :

« **الثقيل الأول** : وإيقاعُه ثلاثُ نقرات متساويات الأقدار على مثالِ مفعولن : (مفْ) نقرة (عو) نقرة (لن) نقرة . وهى نقرات ثِقال . وأنت تثبته بالوتد المفروق أوضح مما تثبته بالسببِ المضطرب ، وذلك أن الوتد المفروق ثلاثُة أحرف أوسطها ساكن ، والسبب حرفان ، فأنت إذا وقفت على الوتد المفروق سكنت سكونًا أطولَ من السكون الذى على السبب ، مثل قولك : صخر ، بحر ، دهر ، فعلى هذا يجرى الثقيلِ الأول .

« وخفيفُ الثقيل الأول : وحقيقتُه ثلاثُ نقرات متواليات ، وهى أُخف من التى ذكرنا وأسرعُ توايًا ، كقولك : مفعولن ، بلا فصل .

« **والثقيلُ الثانى** : وقد اختلفوا فى توقيعه ، فإسحاق يُوقعه ثلاثَ نقرات : نقرتان متساويتان ممسكتان ، وواحدة ثقيلة على وزن مفعولان . ومنهم من يوقعه أربع نقراتٍ متساويات الأقدار ، لا خفافٌ محثوثاتٌ ، ولا ثقالُ ممسِكات ، على مثال مفعو مفعو . ومنهم من يوقعه أربعَ نقرات : ثلاث متساويات ، والرابعة أثقلُ منهن على مثالِ مفعولاتن .

« وخفيف الثقيل الثانى : وحقيقتُه أسرعُ حثًّا منه ، هو نقرتان خفيفتان والثالثة ثقيلة ، وهو خفيفُ الذى اختاره « إسحاق » ، ويسميه الماخورى ، وهو عكس الرمَل ، ووزنه مفعولانْ .

والرمَل : وهو نقرة ثقيلة ، واثنتان محثوثتانِ ، (لانَ مفعو) ومثله فى الكلام : مَلّ وصْلى ، وصَدَّ عنى .

« وخفيف الرمَل : جاء على غير جنسه .. وذلك أن خفيف كلٌ نوع مثلُ ثقيلِهِ ، إلا أنه أخفُّ حثّ الإيقاع ، فأما الرملُ فلم يجئْ خفيفه على عددِ نقراته ، بل هو على نقرتين بينهما فصْلٌ ، ووزنه على مثال : فَعْلُن فعْلُنْ .

والهزج : وهو على نقرة نقرة : واحدة ثقيلة ، وأخرى خفيفة على وزن : قال لى . وخفيفُ الهزج ، مثلُه إلا أنه أسرعُ حثًّا منه » (١) .

* * *

وإذا قوبلت هذه القطعة ، على ماروى عن « عبدالقادر بن غيبى الحافظ المراغى المشهور بعلم الألحان » ، فى رسالة له عن (مصطلح الغناء) ، وجدنا كلام « أبى العلاء » عنها فى (الفصول والغايات) أجلى وأكثر تفصيلاً ، فهو يستوفى شرح كل لحن ويمثل له ، على حين اكتفى « الحافظ المشهور بعلم الألحان » فى تفسيرها بإشارة موجزة . قال بعد وصفٍ لآلة العود وتركيبها :

« قوانين الغناء لا تخرج عن ثمانية :

---

(١) الفصول والغايات – ص ٨٩ . ونذكر هنا أن « الأستاذ البارودي » التفت إلى هذه الصلة بين رسالة الغفران ، والفصول والغايات ، وهى صلة تؤكد ما نحتاج إليه من درس كل آثار الشيخ ؛ لفهم نص من نصوصه .

« ثقيل أول ، ورسمه : تنّ تنّ تنّ ، تنّ تنّ تنّ ، وهو مركب من تسع نقرات هى : ثلاث متواليات ، وواحدة كالسكون ، فخمس مطوية الأول .

وثقيل ثان ، وهذا رسمه : تنّ تنّ تنْ ، تنّ تنّ تنْ ؛ وهو مركب من إحدى عشرة ، وهى : ثلاث متواليات ، فواحدة ساكنة ، فثقيلة ، فأربع مطويةُ الأوُل .

وخفيف الثقيل الثانى ويسمى الماخورى وهذا رسمه : تنْ تنْ تنّ ، تنْ تنْ تنّ . وهو مركب من ست : ثلاث متواليات ، فسكون ، ثم ثلاث .. » .

وهكذا على المثال ، فى القوانين الثمانية .

وذكر الأستاذ البارودى أن حديثه هذا منقول – فيما رُوى – عن كتاب مخطوط اسمه (نيل السعود فى ترجمة الوزير ابن داود) ، كتب عام ١٢٣١ . وقد نشرت القطعة الخاصة بالعود ومصطلحاته ، فى مقال بمجلة المقتبس (المجلد الخامس) صُدِّرَتْ بها – نقلاً عن المقتبس – طبعة دار الكتب ، لكتاب الأغانى . وأعرب عن رجائه فى أن يضاف حديث « أبى العلاء » عن الغناء إلى تلك الوسائل التى يجمعها دارسو العروض والموسيقا ليتوصلوا بها إلى فتح مغلق كتاب (الأغانى) وتوضيح مصطلحاته ، كما أرجو أن يقدَّم به الكتاب ، فى طبعة تالية .

* * *

اللغة والأمالى النقدية :

فى (الغفران) أمال لغوية جمع فيها « أبو العلاء » بعض ما استظهر من مفرداتِ اللغة وصيغها ومعانيها ، ورواها فى صبر واستقصاء ، وقد مرت بنا أمثلة من ذاك فى حديثنا عن الظواهر الأسلوبية للغفران : من جمع واستطراد . وشروح لغوية ، مثل صنيعه فى جمع المشتركات اللفظية لكلمة أسود ، وأباريق ، ومروره بالقافية فى بيتى « النمر » على حروف الهجاء جميعًا ، وتتبعه –فى القسم التالى – للفظ دنانير ، وثمانين ، فى الشعر والأمثال . وإيراده لأسماء الخمر ومدنها ، إلى غير ذلك مما لا نطيل بنقله .

وإذا تركنا هذه المجاميع والأمالى اللغوية ، بقيت أمامنا مسائل أخرى مفردة ، عرضها « لأبو العلاء » على طريقته المختارة .

قد يكتفى – فى القليل منها – بعرض المسألة وتسجيل ما قيل فيها ، من غير أن يَفصِل فيها أو يختار قولاً بعينه منها ، ليدل على معرفته لها وإحاطته بها ، أو قولاً منه بجواز الأقوال فيها . كما فعل فى قوله لتميم بن أبىّ بن مقبل : « أخبرنى عن قولك :

يا دارَ سلمى خلاءٌ لا أُكَلِّفُهَا   إلا المــرانةَ حتى تسأَمَ الدينا

ما أَردتَ بالمرانة ؟ فقد قيل : إنكَ أردت اسمَ امرأة ، وقيل : هى اسمُ ناقة ، وقيل : العادة . فيقول تميم : والله ما دخلتُ باب الفردوس ومعى كلمة من الشعر ولا الرجز » ٢٤٦ – ٢٤٧ .

ومن حديثه مع « علقمة » :
ولو صادفتُ منك راحةً لسألتك عن قولك :
« وفى كل حىّ قد خبطً بنعمة » (البيت)
أهكذا نطقت بها طاءً مشددة ، أم قالها عربىٌّ سواك ؟ فقد يجوزُ أن يقول الشاعر الكلمة فيغيرها عن تلك الحالِ الرواة .
« وإن فى نفسى لَحاجةً من قولك :

كأسُ عزيزٍ من الأعناب عتَّقها　　لبعض أربابهـــا حَانيَّةٌ حُومُ

فقد اختلف الناس فى قولك : حُوم ، فقيل : أُراد حُمًّا أى : سُودا ، فأبدل من إحدى الميمين واوا . وقيل : أراد حَوْمًا ، أى : كثيرًا ، فضمَّ الحاء للضرورة . وقيل : حُومٌ ، يُحام بها على الشراب ، أى : يطاف .

... ...

« وكذلك قولك :

« يهدى بها أكلفُ الخدّين مختبر »

فرُوِى : يهدى ، بالدال غير معجمة ، ويهذى بذال معجمة . وقيل : مختبر ، من اختبار الحوائل من اللواقح ، وقيل : هو من الخبير أى الزبد ، وقيل : الخبير اللحم ، وقيل : الوبر » (٣٢٩)

ويقول لعمرو بن أحمر : « ولقد يعجبنى قولك :

ولقد غدوتُ ومـا يُفزّعُنى　　خوفٌ أحـاذِره ولا ذُعْرُ

... ...

كشراب قَيْلٍ عـن مطيته　　ولِكـلِّ أمـرٍ واقـعٌ قَدَرُ

فما أردت بقولك : كشراب قيل ؟ أَلْوَاحِدَ من الأقيال ؟ أم قيل بن عِتْرٍ من عاد ؟ فيقول عمرو : إن الوجهين لَيتصوّرانِ . فيقول الشيخ – بلغة الله الأمانى – : مما يدلّ على أن المراد « قيل بن عتر » قولُك : « وجرادتان تغنيانهم » لأن الجرادتين – فيما قيل – مغنيتان غنتا لوفدِ عادٍ عند الجرهمى بمكة ، فشغلوا عن الطوافِ بالبيت ...

« فيقول ابنُ أحمر : أما ذِكْر الجرادتين فلا يدل على أنى خصصْتُ « قيلَ بنَ عتر » ، وإن كان فى الوفد الذى غنَّته الجرادتان ، لأن العربَ صارتْ تسمى كلَّ قينةٍ جرادةً ، حملاً على أن قينةً فى الدهرِ الأولِ كانت تُدعى الجرادة ، قال الشاعر :

تغنينا الجـرادُ ونحـن شَرْبٌ　　نُعَلُّ الـرَّاحَ خـالطهـا المَشُورُ

ويقول لعمرو أيضًا : « أنشدني قولك :

بان الشبابُ وأُخلفَ العَمْرُ   وتغيَّر الإخوان والدهرُ

وقد اختلف الناس فى تفسير العَمر : فقيل إنك أردتَ البقاء ، وقيل إنك أردتَ الواحدَ من عُمور الأسنان وهو اللحم الذى بينها . فيقول عمروٌ متمثّلاً :

خُذَا وجه هَرْشَىَ أو قَفاها فإنه   كِلاَ جانبى هَرشى لهنَّ طريقُ

ولم تترك فىَّ أهوالُ القيامة غُبرا للإنشاد ، أما سمعتَ الآية [1] ﴿يوم ترونها تذهلُ كل مرضعة عمَّا أرضعت ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حملَها وترى الناس سُكارى وما هم بِسُكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ وقد شهدتَ الموقف ، فالعجبُ لكَ إذ بقى معك شىءٌ من روايتك » (٢٤٠) .

ويقول لعنترة : فمَا أردتَ بالمشُوفِ الْمُعْلَمِ : الدينَار ، أم الرداء ؟ فيقول : أىّ الوجهين أرَدْتَ فهو حسن ولا يَنْتَقِضُ » (٣٢٤) .

لكنه – فى الغالب – يتعرضُ لمناقشة هذه الأقوال ، ويؤاخِذ على ما قد يراه فيها من تعسُّفٍ فى التأويل ، أو خروج عن مذاهب العرب ، ومحتكما إلى ما صح عنده من كلام العرب ، وقلما نخطئُ هنا ملامَح ثقته بحفظه وروايته .

من ذلك « عنترةَ العبسى » : فى بيت له :

ولقد نزلتِ فلا تظنى غيرَه   منى بمنزلةِ الْمُحَبُّ المكرَم

قال : « وُفّقتَ فى قولك : « المُحَبُّ » لأنك جئتَ باللفظ على ما يجب فى (أحببت) ، وعامةُ الشعراء يقولون : (أحببتُ) ، فإذا صاروا إلى المفعول قالوا : (محبوب) ، قال : زهير بن مسعود الضبى » :

واضحةُ الْغُرَّةِ محبوبـةٌ   والفرسُ الصالحُ محبوبُ

وقال بعض العلماء : لم يُسمع بمحَبٍ إلا فى بيت عنترة . وإن الذى قال (أحببت) ، ليجب عليه أن يقول (مُحَب) إلا أن العرب اختارت أحَبَّ فى الفعل ، وقالت فى المفعول (محبوب) . وكان « سيبويه » ينشد هذا البيتَ بكسرِ الهمزة :

إحِبُّ لحبِّها السودان حتى   إحب لحبها سُودَ الكلاب

(٣٢٦)

إلى آخر المشهد .

وقال فى رده على ابن القارح ، على ذكر بيت الأعشى :

نبىٌّ يرى ما لا يرون ، وذكرُه   أغار لَعَمْرِى فى البلاد وأنجدا

(١) سورة الحج : الآية ٢ .

« وهو – أكمل الله زينةَ المحافل بحضوره – يعرفُ الأقوالَ فى هذا البيت .. حَكَى الفرّاءُ وحده (أغار) فى معنى غار إذا أتى الغَوْرَ . وإذا صحَّ هذا البيت للأعشى فلم يُرد بالإغارة إلاضدَّ الإنجاد . ورويَ عن الأصمعى روايتان : أحداهما أن أغار ، فى معنى عدا عدوًا شديدًا ، وأنشد فى كتابِ (الأجناس) :

فَعَدِّ طِلابَها وتسلَّ عنها   بِناجيةٍ إذا زُجِرَت تُغير

فيجيء به على الزحاف ، وكان سعيد بن مسعدة يقول :

* غارَ لعمرى فى البلاد وأنجدا *

فيخرمه فى النصف الثانى » ١٨٠

أبو العلاء يعرض هنا ، لمسألة كثر فيها الخلاف ، وخلاصة الأقوال أن :

أغار : غار بمعنى أتى الغور ، عند الفراء والجوهرى وابن الأثير ، وشاهدهم بيت الأعشى .

وبمعنى أسرع عند الأصمعى ، وأما غار فمعناها : أتى الغور .

ورأىُ « أبى العلاء » أنه – إذا صحَّ هذا البيت للأعشى – فلم يُرد بالإغارة إلا ضدَّ الإنجاد .

* * *

ومن حديثه فى وليمة الجنة التى أقامها ابنُ القارح لشعراء الجنة وعلماء العربية : « .. بين أيديهم الولدان المخلدون يحملون السلال إلى أهل ذلك المجلس ، فيقول – حفظ الله على أهلِ الأدب حوباءه – لمن حضره من أهل العلم : ما تسمى هذه السلال بالعربية ؟ فيرمون – أى يسكتون – ويقول بعضهم : هذه تسمى البَواسِنَ ، واحدتها باسنة . فيقول قائل من الحاضرين : مَن ذكر هذا من أهل اللغة ؟ فيقول ، لا انفكت الفوائدُ واصلةً منه إلى الجلساء : قد ذكرها « ابن درستويه » – وهو يومئذ فى الحضرة – فيقول له « الخليل » : من أين جئتَ بهذا الحرف ؟ فيقول ابنُ دَرَسْتويه : وجدته فى كتب النضر بن شميل . فيقول الخليل : أتحق هذا يانضرِ ، فأنت عندنا الثقة ؟ فيقول النضرُ : قد التبس علىّ الأمر ، ولم يحكِ الرجلُ إن شاء الله إلا حقًا » (٢٨٠) .

ومذهب « أبى العلاء » فى هذا واضح ، كما هو واضح بعدُ فى المسائل النحوية والأدبية : يلتزم السماع فى اللغة ، ويكره التأويل والقياس ، وليس حِفظُهُ اللغوى النادر إلا مظهرًا من مظاهر تعلقه بالسماع ، ومن ثم نراه شديد الحرص على سلامة الرواية ، دقيق الحس لما يداخلها من زيف .

تشهد لاطمئنانه إلى حفظه ، وثقته فى جمعه وروايته وعلمه ، تلك الأحكام الحاسمة الجازمة التى يقرر بها أن العرب عرفوا هذا اللفظ ، أو أن مشهورى الثقات حكوا تلك الكلمة أو ذلك الوزن .. أو ..

* * *

النحو والصرف :

عنى « أستاذنا إبراهيم مصطفى » رحمه الله – فى بحثه بالمهرجان الألفى – بما فى (الغفران) من رأى فى « سيبويه » وكتابه ، « والسيرافى » وشرحه ، « وأبى على الفارسى » وكتبه ، وقد نقل من (الغفران) سؤال « ابن القارح » للنابغة الجعدى حول إعراب مستنكر فى قـــوله :

وليس بمعروفٍ لنـــا أن نَردَّها صِحاحًا ، ولا [مستنكرًا] أن تعقرا

« أتقول : ولا مُستنطرًا ، أم مُسْتَنكرٍ ؟ فيقول الجعدى : بل « مستنكرًا » فيقول الشيخ : فإن أنشد منشد : مستنكر ، ما تصنع به ؟ فيقول : أزجره وأُزبره ، نطق بأمر لا يخبره . فيقول الشيخ : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ما أرَى سيبويه إلا وَهِم فى هذا البيت ، لأن أبا ليلى أدركَ جاهلية وإسلامًا ، وغُذِّىَ بالفصاحة غلامًا » (٢١٠) .

يشير « أبو العلاء » هنا إلى ما أجازه سيبويه فى (كتابه : ٣٣١) من جرِّ (مستنكر) ، وتوجيهه لذاك .

كذلك نقل الأستاذ إبراهيم مصطفى سؤال « ابن القارح » – بإملاء أبى العلاء – لعدى بن زيد عن بيته الذى استشهد به « سيبويه » :

أرَواحٌ مُوَدِّعٌ أم بكـــور أنت فانظرْ لأىِّ حالٍ تصير

« فإنه – أى سيبويه – زعم أن (أنت) يجوز أن ترفع بفعل مضمَر يفسره قولك : فانظر . وأنا أُستبعد هذا المذهب ولا أظنك أردته . فيقول عدى بن زيد : دعنى من هذه الأباطيل » (١٩١)[1] .

وقد رأى الأستاذ فى هذين النقدين ، أصلين يرجعُ إليهما أكثرُ ما نقده « أبو العلاء » من (نحو البصرة) :

الأول : أن نُحاة البصرة بقياسهم قد قوّلوا العرب مالا يقولون ، وأجْرَوا على ألسنتهم غيرَ ما يرضون .

الثانى : أنهم تكلفوا فى توجيه الكلام وتخريجه بما أوقعه فى الأباطيل[2] .

والمتتبع لموقف « أبى العلاء » من النحاة ، فى (الغفران) وفى آثاره الأخرى يطمئن إلى ما ذهب إليه الأستاذ إبراهيم مصطفى ، وإن كنا نلاحظ عليه أنه استشهد (لتكلف نحاة البصرة فى توجيه الكلام بما أوقعه فى الأباطيل) بعبارةٍ لا تقوم شاهدًا على مثل ذلك . فقول عدى

(١) انظر كتاب سيبويه جـ١ ص ٧٠ ط بولاق .
(٢) المهرجان الألفى لأبى العلاء – ص ٣٦٨ .

ابن زيد : « دعنى من هذه الأباطيل » لم يقصد به تكلف النحاة بخاصة ، وإنما أراد أنه فى شغل بنعيم الجنة عن أباطيل الشعر والنحو والنحاة جميعا .

ثم نقل الأستاذ بعد ذلك نقد « أبي العلاء » لما ذكره « أبو سعيد السيرافى » – فى شرحه للكتاب – فى الأبيات التى تنسب إلى « آدم » وهى[1] :

تَغَيَّرَت البـــلادُ ومَن عليها   فوجـــهُ الأرض مغبر قبيـــحُ
تغيرت كل ذى لون وطعـــم   وغودر فى الثرى الوجه المليح

وبعضهم ينشده : • وزال بشاشةُ الوجهِ المليحِ •
على الإقواء ، فأنشدها « ابو سعيد » على وجهٍ لا يكون فيه إقواء ، قال :

• وقَلَّ بشاشةَ الوجهُ المليحُ •

على تقدير : وقلّ بشاشةً ، بفتحتين . قال أبو العلاء .

« قلتُ أنا : هذا الوجهُ الذى ذكره أبو سعيد ، شرٌّ من إقواءِ عشر مرات فى القصيدة الواحدة » (٣٦١ – ٣٦٣) .

كما أشار الأستاذ إلى المعركة التى قامت فى المحشر بين « أبى على الفارسي » والشعراء – وسوف ننقلها بعد – منتهيًا إلى « أن المعرى قد انصرف عن بغداد لم يتلق من أحد من أئمة النحو بها . وقرأ كتبهم فضاق صدرًا بما فيها . وكان أشد ما ضاق به التكلف فى التأويل ، والغلو فى التعليل ، والمضى مع القياس مضيًّا يراه المعرى منتهيًا إلى أن يجيز فى العربية ما ليس فيها »[2] .

واكتفى أستاذنا بما أشرنا إليه من المسائل النحوية فى (الغفران) ، تاركًا ما عداها ، وإنه لكثير ، فضاعت هنا فرصة كانت جديرة بأن تدرس لنا « النحو فى الغفران » على هذا النحو الذى يلتمس أصول كل مسألة فى كتبها ، ويرجع إلى أقوال النحاة فيها ، ثم ينظر فى مناقشة « أبي العلاء » لها فيما أورده عليها ، مع ربط كلامه هذا بنظيره فى آثاره الأخرى ، وإرجاعه إلى أصول عامة فى المذهب النحوى للشيخ ، ونقده لمذاهب النحاة .

و (رسالة الغفران) تعين على مثل هذا ، فحظُّ النحو فيها غير قليل ، ومذهب « أبي العلاء » فيها واضح مبسوط .

* * *

بعد أعوام من المهرجان ، نشر الأستاذ « الدكتور أمجد الطرابلسى » سنة ١٩٥١ ، كتابه عن « النقد واللغة فى رسالة الغفران » ، وقدم فيه دراسة متخصصة ، منسقة فى أبواب ثلاثة :

---

(١) الأبيات مروية فى (مروج الذهب للمسعودى) : (١ – ٢٦) .
وفى خزانة الأدب للبغدادى (٤ – ٥٥٦) كلام فى نصب (بشاشة) على التمييز للخروج مما فيه من إقواء .
(٢) المهرجان الألفى لأبى العلاء ص ٣٧٠ . ويأتى المشهد بمزيد بيان فى (قراءة جديدة لرسالة الغفران) .

المعرى العالم المعلم ، والنقد الأدبى فى الغفران ، والاستطرادات اللغوية . فوضع فى المكتبة العلائية درسًا متخصصًا يقوم على استقراء الشواهد وجمع الأشباه والنظائر . فليرجع إليه من شاء أن يعرف هذا الجانب من رسالة الغفران . وأكتفى هنا بتقديم نماذج مما فى الغفران من قضايا ومسائل لغوية ، راعينا فى اختيارها ، دلالتها على أسلوب الشيخ فى التناول ، ومذهبه فى النحو القائم على الاحتكام إلى ما حكاه مشهورو الثقات ، وضيقه بالتكلف فى التأويل ، وبالمضى مع القياس مضيًّا يراه منتهيًا إلى أن يجيز فى العربية ما ليس فيها .

ونبدأ بالمعارك الأدبية التى شبَّها : إما بينه – فى أشخاص من اختار من الشعراء ، أو بما لقن ابنَ القارح – وبين الرواة والنحاة . وإما بين هؤلاء بعضهم وبعض .

من ذلك ، استبعاده لمذهب « سيبويه » فى بيتِ « عدى » ، وهو ما أشار إليه الأستاذ إبراهيم مصطفى .

قلت : مذهب « سيبويه » الذى يشير إليه « أبو العلاء » موضح فى كتابه[1] – وقد قال « أبو سعيد السيرافى » شارحًا : « وأما قول عدى بن زيد .. إلخ ، فإنما جاء به سيبويه لقوله : أنت فانظر ،وهو يشبه (زيد فَاضْرِبْهُ) وهو لم يجوزه إلا على إضمار سبب دخول الفاء ، وقد دخلتْ فى (فانظر) فتأول ذلك على وجوه ثلاثة ، أراد بها تصحيح دخولها :

الأول : أن ترفع « أنت » بفعل مضمرٍ يفسره المُظْهَر . كأن تقول : فانظر أنت .

الثانى : أن تجعل « أنت » مبتدأ وتُضمر خبرًا ، والفاء جواب للجملة ، كأنه قال : أنت الراحل فانظر ..

الثالث : أن تجعل « أنت » خبرًا وتنوى المبتدأ . كأن تقول : هذا أنت فانظر .

وكذلك ذكر « الأعلم الشنتمرى » هذه الأوجه الثلاثة شارحًا مفسرًا على هامش (الكتاب)[2] .

وخلاصة المسألة أن « سيبويه » يرى فى هذا ومثله أن الفاء ليست زائدة ، فلا يجعل (أنت) مبتدأ خبره ما بعد الفاء ، لأن الفاء لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، ولذلك قدر فيه الأوجه الثلاثة التى ذكرها (الكتاب) وفسرها كل من « السيرافى والشنتمرى » .

وأما « الأخفش » فيرى أن الفاء زائدة ، وأن الضمير (أنت) مبتدأ والفعل بعدُ خبره[3] .

ولعل أبا العلاء – باستبعاده رأى « سيبويه » – يذهب إلى مثل رأى « الأخفش »[4] .

---

(١) الكتاب ج ١/ ٧٠ ط بولاق .

(٢) الكتاب ج ١/ ٧٠ ط بولاق .

(٣) انظر « البغدادى » فى (الخزانة : ١ ، ٢١٨) عند الكلام على الشاهد السابع والسبعين :
• وقائلة خولان فانكح فتاتهم • .

(٤) ما بين الأقواس المربعة فى هذا الفصل ، تعليق من الدارسة على المسائل اللغوية التى تناولها أبو العلاء .

وأشار « أبو العلاء » – فى موضع آخر – إلى ما « حُكى عن سيبويه أنه أنكر على بشارٍ قوله :

على الْغَزَلَى منى السلام فَطَالَمَا لهوتُ بها فى ظلٍّ مخضرّةٍ زُهْرِ

فقال سيبويه : لم تستعمل العرب ، (الغزلَى) . فقال بشار : هذا مثل قولهم : الْبَشَكَى ، والْجَمَزَى ..

« وجاء بشار فى شعره بـ (النينان) جمع نون من السمك ، فيقال إن سيبويه أُنكره عليه . وهذه أخبار لا تثبت . وفيما رُوِىَ فى (كتاب سيبويه) أن النون يُجمع على نينان ، فهذا نقض للخبر » (٤٢٩) .

[قوله : « على الغَزَلَى منى السلام » أنكره سيبويه على بشار لأنه لم يُسمع من العرب . ومثله قول بشار أيضًا :

فاليومَ أُقصرَ عن سُمَيَّة باطلى وأُشـــار بالوَجَلَى علىَّ مشير]

وكلمة غزلى بين « أبو العلاء » طريقَ القياس إليها ، فهى على وزن بشَكى وجمزَى ، يقال : ناقة بشَكى أى خفيفة سريعة ، وأتان جمزى أى مسرعة ، وغزَلى من الغزل ، كأنه يريد أنها غزلة .

[وأما قوله : « وجاء بشار فى شعره بـ : النينان » .

فهو يشير إلى بيته فى وصف سفينة :

تُلاعـــب نينانَ البحـــور وربما رأيت نفوسَ القومِ من جريها تجرى

والنون يجمع على نينان ، جاء فى لسان العرب : النون الحوت ، والجمع أنوان ونينان ، وأصله نِوْنان فقلبت الواو ياء لكسرة النون .

وفى حديث « على » – كرم الله وجهه – « يعلم اختلاف النينان فى البحار الغامرات » فاللفظ مسموع فى الكلام الفصيح ولا وجه لإنكاره على « بشار » ، وقد جاء « أبو العلاء » هنا بما ينقض خبر إنكار « سيبويه » لهذه الصيغة فى جمع « نون »] .

* * *

وندع هذه المسألة ، إلى المعركة العنيفة المثيرة ، بين الشعراء و« أبى على الفارسى » فى ضغطة المحشر ،قال ابن القارح فى (الغفران) – بتلقين أبى العلاء : « وكنت قد رأيت فى المحشر شيخًا لنا كان يدرس النحو فى الدار العاجلة ، يعرف بأبى على الفارسى ، وقد امترس به قومٌ يطالبونه ويقولون : تأولتَ علينا وظلمتنا . فلما رآنى أشارِ إلىّ بيـــده ، فجئته ، فإذا عنده طبقة منهم يزيدُ بنُ الحكم الكلابى ، وهو يقول : ويحك ! أنشدت عنى هذا البيت برفع الماء ، يعنى قوله :

فليت كفــافًا كان شــرُّكَ كله وخيرُك عنى ما ارتوى الماء مرتوى

ولم أقل إلا الماءَ .

وكذلك زعمتَ أنى فتحتُ الميم فى قولى :

تبدلْ خليلاً بى كشكلِكَ شكلَهُ فإنــى خليلا صالحًا بكَ مَقْتَوَى

وإنما قلتُ مُقتوى ، بضم الميم .

وإذا هناك راجز يقول : تأولتَ علىَّ أنى قلت :

يـا إبلى ، ما ذنْبه فتأبيَه ماءُ رُواءٌ ونَصِىٌّ حَوْلَيَهْ

فحركتَ الياء فى « تأبيه » ، ووالله ما فعلتُ ولا غيرى من العرب .

وإذا رجل آخر يقول : ادعيتَ علىَّ أن الهاء راجعة على الدرس ، فى قولى :

هذا سراقةُ للقرآن يدرسُه والمرءُ عند الرشا ، إن يلْقها ، ذيبُ

أفمجنونٌ أنا حتى أعتقدَ ذلك ؟

وإذا جماعةٌ من هذا الجنس ، كلُّهم يلومونه على تأويلِه ، فقلتُ : « يا قوم ، إن هذه أمور هيِّنة ، فلا تعنتوا هذا الشيخ ، فإنه يَمُتُّ بكتابِه فى القرآن المعروف بكتابِ (الحجة) وإنه ما سفك لكم دمًا ، ولا احتجن عنكم مالا ؛ فتفرقوا عنه » ٢٥٤ .

هنا يقسو « أبو العلاء » علي « أبى على الفارسى » ، ويتهمه بالادعاء والتأويل ، ويأتى بمن يُقسم على أن ما ادعاه أبو علىّ ، لم يقله أحد من العرب ، وآخر يصيح منكرًا : أفمجنون أنا حتى أعتقد ذلك ؟

وفى (الغفران) حملة أخرى على « أبى على الفارسى » ، ظاهرُها لا يبدو فيه مثل تلك الشدة التى فى معركة المحشر ، ولكنها فى الواقع تنتهى بحكمٍ صارم على أبى علىٍّ الفارسى ، إذ يصفه أبو العلاء بـ « هذا المتكلف ، والمعترض لما ليس له »] .

يسأل الشيخ « لَبيدَ بنَ ربيعةَ » : فما مغزاك فى قولك :

وصَبُوحِ صافيةٍ وجذب كَرينةٍ بِمُوَتَّرٍ تأْتــالُهُ إبهامُهـــا ؟

فإن الناس يروون هذا البيت على وجهين : فمنهم من ينشده : تأْتالهُ ، يجعله تفتعله ، من آل الشيءَ يؤوله إذا ساسه ، ومنهم من ينشد : تأْتالَه ، من الإتيان . فيقول لبيدٌ : كلا الوجهين يحتمله البيت .فيقول – أرغم الله حاسدَه – : « إن « أبا علىّ الفارسى » كان يدّعى فى هذا البيت أنه مثل قولهم : استحى يستحَى ، على مذهب الخليل وسيبويه ، لأنهما يريان أن قولهم : استحيت ، إنما جاء على قولهم : استحاى ، كما أن استقمت على استقام ، وهذا مذهب ظريف ، لأنه يعتقد أن تأتَى مأخوذة من أوَى ، كأنه بُنى منها افتعل فقيل : ائتاى ، فأعِلّت الواو كما تُعَل فى قولنا : اعتان ، من العون ، واقتال ، من القول ، ثم قيل : ائتَيْتُ ، فحذفت الألف كما يقال : اقتَلْتُ . ثم قيل فى المستقبل يأتى بالحذف ، كما قيل : يستحَى .

« فيقول لبيد : معترض لِعَنَنٍ لم يَعْنِهِ . الأمرُ أيسر مما ظن هذا المتكلف » ٢١٨ .

[قال التبريزى فى شرحه : « وتألّه ، بفتح اللامِ من قولك : كأنه يفعل ذلك على مهلٍ وترسل . ويروى بضم اللام ، تألُّه ، من قولك : أَلَتُ الأمر إذا أصلحته][1] .

* * *

وفى مشاهد مسرح الغفران المعركة اللغوية العنيفة التى أشعل نارها بين « المازنى والأصمعى » فى الوليمة الحافلة التى أقامها « ابن القارح » بالجنة ودعا إليها كلّ من هناك من الشعراء والأدباء وعلماء العربية :

« ... قال أبو عثمانَ المازنى لعبد الملك بن قريب الأصمعى : يا أبا سعيد ، ما وزنُ إوَزَّة ؟ فيقول الأصمعىّ : ألى تعرض بهذا يا فُصْعُل ، وطالما جئت مجلسى بالبصرة وأنت لا يرفع بك رأسٍ ؟ وزن إوزة فى الموجود إفَعْلَةٌ ، ووزنها فى الأصلِ إفْعَله . فيقول المازنى : ما الدليلُ على أن الهمزة فيها زائدة ، وأنها ليست أصلية ، ووزنها ليس فَعَلَة ؟ فيقول الأصمعى : أما زيادة الهمزة فى أولها فيدل عليه قولهم : وز . فيقول أبو عثمان : ليس ذلك بدليل على أن الهمزة زائدةٌ، لأنهم قد قالوا : ناس ، وأصله أُناسٌ ، وميهة لجدرى الغنم ، وإنما هو أُميهة ، فيقول الأصمعى : أليس أصحابُك من أهل القياسِ يزعمون أنها إفعلة ، وإذا بنوا من « أوى » اسمًا على وزن إوزة ، قالوا : إياة ؟ ولو أنها فِعَلَة ، قالوا : إوَيَّة . ولو جاءوا بها على إفَعْلة بسكون العين قالوا : إيَيَّة ، والياء التى بعد الهمزة – وهى همزة أوى – جُعِلتْ ياء لاجتماع الهمزتين ، ولأن قبلها مكسورًا وهى مفتوحة . وإذا خففتَ همزة مئزر جعلتها ياء خالصة .

« فيقول المازنى : تأوُّل من أصحابنا وادعاء ، لأن إوزة لم يثبت أن الهمزة فيها زائدة . فيقول الأصمعى :

رَيَّشْتَ جرهُمَّ نَبلاً فرَمَى ... جُرهُمًا منهن فُوقٌ وَغِرَارْ

تبعتَهم مستفيدًا ، ثم طَعَنتَ فيما قالوه مُعيدًا . ما مثلك ومثلهم إلا كما قال الأول :

أُعلمه الرماية كل يوم ... فلما اسْتَدَّ ساعدُه رمانى

وينهض كالمغضب »٢٨٤ .

قلت : [وهذا الخلاف على وزن إوزة ، صدى لما فى كتب اللغة .جاء فى (لسان العرب) عن بعضهم : وزن إوزة إفَعلة ، أصلها إوْزة . وقال الليث : وزنها فِعلَّة .

(وفى شرح الرضى ، على شافية ابن الحاجب) :

« ولا يجوز أن يكون (فِعلَّة) لقولهم :وَز »

قال ناشروه على الهامش :

« الإوزة : البطة ، واحدة الإوَز ،وقد قالوا وزة ، وقالوا فى اسم الجمع أيضًا :وز ، فكان سقوط الهمزة فى بعض صور الكلمة دليلا على أن هذه الهمزة حرف زائد » ..] .

* * *

---

(١) شرح المعلقات : ص ١٥٥ . والتبريزى تلميذ أبى العلاء .

ومما ذكر « أبو العلاء » أيضًا من الخلاف بين الكوفيين والبصريين ، ما جاء في حوار ابن القارح مع « طرفة » بتلقين أبي العلاء :

« وشد ما اختلف النحاة في قولك :

ألا أيهذا الزاجــرى أحضرَ الوغـــى وأن أشهد اللذات ، هل أنت مخلدى ؟

أما سيبويه فيكره نصب أحضرُ ، لأنه يعتقد أن عوامل الأفعال لا تضمر ، وكان الكوفيون ينصبون أحضر بالحرف المقدر . ويقوّى ذلك « وأن أشهد اللذات » فجئتَ بأن ، وليس ذا بأبعد من قوله :

مشائيمُ ليسوا مصلحين قبيلةً ولا ناعبٍ إلا بِبَيْنٍ غُرابُها

وقد حكى المازنى عن على بن قطرب[1] : أنه سمع أباه قطربًا يحكى عن بعض العرب نصب أحضر » (٣٣٦) .

وننقل هنا بعض ما قيل في هذا الخلاف :

– في بيت طرفة ، قال التبريزى : وقد روى ، أُحْضُرَ ، بالنصب على إضمار أنْ ، وهذا عند البصريين خطأ ، لأنه أضمر ما لا يتصرف وأعمله . ومَن رواه بالرفع ، على تقديرين : تقدير أن والرفع بعد حذفها ، وأن يكون في موضع الحال[2] .

وقال في (الخزانة)[3] : « .. على أن نصب (أن) المقدرة في مثل هذا ضعيف ، والكوفيون يجوّزون النصب في مثله قياسًا . ومنع البصريون ذلك بأن عوامل الأفعال ضعيفة لا تعمل مع الحذف ، وإذا حُذفت ارتفع الفعل . ومنه عند سيبويه :﴿قل أفغير الله تأمرونى أعبدُ﴾ .. الآية . وقالوا : رواية البيت عندنا إنما هى بالرفع .

[– وفى قوله : « مشائيم ليسوا مصلحين قبيلة » البيت للأحوص اليربوعى .والشاهد في (ناعبٍ) عطف بالجر على (مصلحين) المصوب خبر ليس . ويسمى هذا في غير القرآن ، العطف على التوهم ، أى توهم الباء ، وأما في القرآن ، فيسمى : العطف على المعنى . وقد أنشده « سيبويه » بروايتين : النصب عطفًا على مصلحين ، شاهدًا على نصب قبيلة بمصلحين ،لأن النون فيه بمنزلةِ التنوين في واحدِه . والجرّ على توهم الباء في خبر ليس . ولم يُجز المبرّدُ إلا النصبَ ، لأن حرف الجر لا يضمر][4] .

* * *

(١) بهذا يكون من البصريين من قال بالنصب كالكوفيين .

(٢) التبريزى : شرح المعلقات ص ٨٠ .

(٣) البغدادى :خزانة الأدب : ج ١ ص ١١٧ .

(٤) البغدادى : خزانة الأدب : ج ٤ ص ١١٧ .

وأورد (الغفران) كذلك ، خلافهم فى قول القائل « فداء لك » . قال : « ألا يعجب من قول العرب : فداءٍ لك ، بالكسر والتنوين ، كما قال الراجز :

وَيْهًا فداءٍ لكَ يا فَضَالَهْ أُجِرَّهُ الـرمحَ ولا تُبالَهْ !

ويروى : فَضَالَهْ . وذكر أحمد بن عبيد بن ناصح ، وهو المعروف بأبى عصيدة ، أن قولهم : فِداءٍ لك ، بالكسر ،إذا كان لها مرافع ،لم يجز فيها الكسر والتنوين ، ولا ريب أنه يحكى ذلك عن العلماء الكوفيين ، وعيَّنه فى قول النابغة :

مهلا فداء لك الأقوامُ كلهم وما أُثَمِّر من مـال ومن ولد

فأما البصريون فقد رووا هذا البيت : فداءً لك » (٣٨٤).

[قال التبريزى[1] ويروى ، فِدَاءً : على المصدر ، والمعنى : الأقوام كلهم يفدونك فِداءً . ويُروى ، فداءِ بمعنى ليفدك ، كما بُنِي نحوُ دراكِ وتراكِ ، لأنه بمعنى : أَدرك واترك .

ومن العرب من يكسر « فِداء » بالتنوين إذا جاور لام الجر خاصة . وفى كتب اللغة : فداه يفديه فِداءً وفِدى ، ويفتح ، عن الفراء : إذا فتحوا الفاء قصروا ، وإذا كسروا مدُّوا .

وعن الأزهرى : وأكثر الكلام كسرُها والقصرُ .

وعن الأخفش : لا يُقصَر الفِداء بكسر الفاء إلا للضرورة .

وعنه : ومن العرب من يكسر فِداءٍ بالتنوين ، إذا جاور لامَ الجرِّ خاصةً لأنه نكرة ، يريدون به معنى الدعاء . وأنشد بيت النابغة] .

* * *

ومن حديثه على لسان ابن القارح مع أبينا آدم عليه السلام فى الطريق إلى الجنة عائدًا من الاطلاع على جحيم الغفران .

« .. وقد زعم بعض العلماء أنك إنما سُميتَ إنسانًا لِنسيانك ، واحتج على ذلك بقولهم فى التصغير :أنيسيان ، وفى الجمع : أناسى ، وقد رُوِىَ أن الإنسان من النسيان عن « ابن عباس » ، وقال الطائى (٣٦١) :

لا تنسينْ تلك العهودَ وإنما سُميتَ إنسانًا لأنك ناسى

وقرأ بعضهم : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾[2] بكسر السين ، يريد : الناسى ، فحذف الياءَ كما حذفت فى قوله : ﴿سواءً العاكفُ فيه والبادِ﴾[3] .

---

(١) شرح المعلقات : ص ٣٣٠ والبيت لأبى تمام الطائى .

(٢) من آية ١٩٩ – البقرة . وقراءة الجمهور بضم السين .

(٣) من آية ٢٥ – الحج .

فأما البصريون فيعتقدون أن الإنسان من الإنس، وأن قولهم فى التصغير : أنيسيان شاذ، وقولهم فى الجمع : أناسى، أصله أناسين، فأبدلت الياء من النون . والقولُ الأول أحسنُ » ٣٦٠ .

قلت : [الخلاف فى اشتقاق إنسان من الإنس أو من النسيان، تجد تفصيله فى كتب اللغة، ومثله الخلاف فى اشتقاق كلمة اسم، أهي من الوسم أم من السمو . انظر (اللسان، والخصائص لابن جنى، والإنصاف لابن الأنبارى)] .

* * *

وأشار « أبو العلاء » – فى إيجاز – إلى خلافهم فى قول الراجز :

إذا أكلتُ لبنًا وفرضَا ذهبت طولا وذهبت عرضا

قال : « وفى نصب طول وعرض، اختلاف بين المبرد وسيبويه » ١٦٢ .

قلت : [الشاهد مذكور فى (كتاب سيبويه ص ٨٢ ط الأميرية) وجاء فى شرح شواهده – بهامشه، للأعلم الشنتمرى – : أن طولاً وعرضًا منصوبان على التمييز المحول عن الفاعل، أى ذهب طولى وعرضى، أى اتسعا . ويجوز وجه آخر، وهو أن يكون (طولاً وعرضًا) منصوبين على الظرفية، أى فى طول وفى عرض] .

* * *

وقال فى (الغفران) على لسان الحية الفقيهة القارئة :

« فلما توفى أبو عمرو – بن العلاء البصرى – كرهتُ المقام، فانتقلت إلى الكوفة فأقمت فى جوار حمزة بن حبيب، فسمعته يقرأ بأشياءَ ينكرها عليه أصحابُ العربية، كخفض الأرحامِ فى قوله (تعالى) : ﴿واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحامِ﴾[(١)]، وكسر الياء فى قوله (تعالى) : ﴿وما أنتم بمصرخيِّ﴾[(٢)]، وكذلك سكون الهمزة فى قوله (تعالى) : ﴿استكبارًا فى الأرض ومكر السيئْ﴾[(٣)]، وهذا إغلاقٌ لباب العربية، لأن الفرقان ليس بموضع ضرورة، وإنما حُكى مثل هذا فى المنظوم، وقد رُوِىَ أن امرأ القيس قال :

فاليوم أشربْ غيرَ مستحقبٍ إثما من اللهِ ولا واغِلِ

وبعضُهم يروى : فاليوم أسْقَى . وإذا روى : * فاليوم أشرب * فيجوز أن يكون ثَم إشارة إلى الضم لا حكم لها فى الوزن، فقد زعم « سيبويه » أنهم يفعلون ذلك فى قول الراجز :

متى أنام لا يؤرقنى الكرى ليلا، ولا أسمع أصواتَ المطى

---

(١) سورة النساء من الآية (١) .
(٢) من الآية (٢٢) سورة إبراهيم .
(٣) من الآية (٤٣) سورة فاطر

وهذا يدلّ على أنهم لم يكونوا يحفلون بطرح الإعراب . فأما قول الراجز :

إذا اعوججنَ ، قلتُ صاحبْ قوّمِ في الدَّوِّ أمثـــالَ السفين العُوَّمِ

فإنه من عجيب ما جاء ، وقد بَلِهَ صاحبه أن يقول : صاحِ قوّمِ . فلا يكون بالوزن إخلال ، ولكن الذين يحتجون له يزعمون أنه أراد أن يعادل الجزأين ، لأن قوله : (حِبْ قَوِّمِ) في وزن قوله (نِلْ عُوَّمِ) ، وهذا يشبه ما ادعوه في قول « الهذلى » :

أبيتُ على معاريَ فاخراتٍ بهن مُلَوَّبٌ كدم العباطِ

يزعم النحويون أن قوله معاريَ بفتح الياء ، حمله عليه كراهةُ الزحافِ . وهذا قول ينتقض ، لأن في هذه الطائية أبياتًا كثيرة لا تخلو من زحاف ...

.. وقد رُوى عن « الأصمعى » أنه لم يسمع العرب تنشد إلا : « أبيت على مَعارٍ » بالتنوين ، وهذا لا ينقض مذهبَ أصحاب القياس ، إذا كانوا يروون عن أهلِ الفصاحة خلافَه » (٣٦٧ : ٣٧٠) .

* * *

وفي الحديث مع عمرو بن كلثوم : « وقالوا في قولك (سخينًا) قولين : **أحدهما** أنه فَعلنا من السخاء ، والنون نون المتكلمين . **والآخر** أنه من الماء السخين ، لأن « الأندرين وقاصرين » كانتا في ذلك الزمن للروم ، ومن شأنهم أن يشربوا الخمر بالماء السخين في صيفٍ وشتاء .

وقد سئل بعض الأدباء بمدينة السلام ، عن قولك :

فما وجدَتْ كوجدى أمُّ سَقْبٍ أضلّتْه فرجَّعـتِ الحنينـا
ولا شمطاءُ لـم يترك شقاهـا لهـا من تسـعةٍ إلا جنينـا

هل يجوز نصبُ شمطاء ؟ فلم يجب بشيء . وذلك يجوز عندى من وجهين : أحدهما على إضمارِ فعل دلّ عليه السامعَ معرفتُه به ، كأنك قلت : ولا أذكر شمطاء ، أى أن حنينها شديد ؛ ويجوز أن يكون على قولك : ولا تنس شمطاء ، أو نحو ذلك من الأفعال . وهذا كقولك : إن كعبَ بن مامةَ جوادٌ ولا حاتمًا ، أى : ولا أذكر حاتمًا ، أى : أنه جوادٌ عظيم الجود ، استغنيتُ عن ذكره باشتهاره . والآخر ، أن يكون مِنْ وَلاَهُ المَطَرُ ، إذا سقاه السقية الثانية ، أى هذا الحنين اتفق مع حنينى ، فكأنه قد صار له وليًّا . ويُحتمل أن يكون من ولى يلِى ، وَقَلَبَ الياء على اللغة الطائية » ٣٢٩ : ٣٣٢ .

* * *

« وأما قوله الحكاية عن عازر : ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾[1] فقد قرئ برفع الميم – يعني ميم أعلم – وسكونها : فالرفع على الخبر ، والسكون على أنه أمر من الله جلّ سلطانه . وأجاز « أبو علي الفارسي » أن يكون (أعلم) مخاطبة من « عازر » لنفسه ، لأن مثل هذا معروف . يقول القائل – وهو يعني نفسه : ويحك ما فعلتَ ، وما صنعت ؟ ومنه قول الحادرة الذبياني :

بكـــرتْ سميةُ غدوةً فتمتّعِ وغدتْ غدوَّ مفارق لم يربع »

(ص ٢٨١ : ٢٨٢)

* * *

وقال على ذكر قول المتنبي :

« أذمُّ إلى هذا الزمانِ أُهَيْلَه »

« وأهلُ ، كلمةٌ أصلُ وضعِها للجماعة ، فيقال : ارتحل أهل الدار ، فيعلم السامعُ أن المتكلم لا يقصد واحدًا بما قال ، إلا أن هذه الكلمة قد استعملت للآحاد ، فقيل : فلانٌ أهلُ الخير وأهلُ الإحسان ، قال حاتم الطائي :

ظلَّتْ تلــوم على بَكرٍ سمحتُ به إن الرزيئةَ في الدنيا ابنُ مسعود

غادره الــقـــومُ بالمعـــزاء منجدِلا وكان أهلَ الندى والحـــزم والجود

وكأن هذه اللفظة أصلها أن تكون للجمع ، ثم نقلت إلى الواحد ، كما أن صديقًا وأميرًا ونحوهما ، إنما وُضِعن في الأصل للأفراد ، ثم نقلن إلى الجمع على سبيل التشبيه ، وكذلك قولهم : بنو فلان أخٌ لنا . ويقال : أهلٌ وَأَهْلَةٌ وأهلات في الجمع ، قال الشاعر :

فهم أهلاتٌ حول قيسِ بنِ عاصم إذا أدلجوا بالليل يدعون كوثرا

وقال بعض النحويين في تصغير آلِ الرجل : يجوز ، أُوَيْلٌ وأُهَيْلٌ . كأنه يذهب إلى أن الهاء أبدلت منها همزة ، فلما اجتمعت الهمزتان جُعِلت الثانيةُ ألفًا ، ومثلُ هذا لا يثبت . والأشبه أن يكون آل الرجل ، مأخوذًا من : آل يؤول إذا رجع ، كأنهم يرجعون إليه أو يرجع إليهم » .

(٤١٧)

* * *

وعلى ذِكر قوله تعالى : ﴿قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ .. الآية[2] . نراه يوقف ابن القارح بين العلماء الأئمة الذين دعاهم إلى الوليمة في الجنة ، ويسألهم مباهيًا بالذى يعرف : ما موضع يطمئن ؟ فيقولون : نصب بلام كي . فيقول : هل يجوزُ غير ذلك ؟ فيقولون : لا يحضرُنا

(١) سورة البقرة من الآية (٢٥٩) .

(٢) سورة البقرة من الآية (٢٦٠) .

شىء ، فيقول : يجوز أن يكون فى وضع جزمٍ بلام الأمر ، ويكون مخرجُ الكلام مخرجَ الدعاء ، كما يقال : يا رب اغفرْ لى ، ولتغفر لى .

* * *

وكثيرًا ما يبدو لأبى العلاء أن يحاكم الشعراء الذين يتصدى لهم ناقدًا آخذًا عليهم عثراتهم ، وإن كان يبدو فى بعض المواقف مسالمًا لا يشب عراكًا ، وإنما يكتفى بذكرِ ما يعلم من أسرار العربية .

قال على ذكر « الحلاج » فى رسالة ابن القارح : « وأما الأبيات التي على الياء :

يا سِرّ سِرٌّ يَدِقُّ حتى ... يجل عن وصفِ كلِّ حىّ
وظاهرًا باطنًا تبدَّى ... من كلِّ شىء لكلِّ شىّ
يا جملةَ الكل لستَ غيرى ... فما اعتذارى إذنْ إلىّ ؟

فلا بأس بنظمها فى القوة ، ولكن قوله : إلىّ ، عاهة فى الأبيات : إن قُيِّدَ فالتقييد لمثل هذا الوزن لا يجوز عند بعض الناس ، وإن كسر الياء من (إلىّ) فذلك ردىء قبيح ، وأصحاب العربية مجمعون على كراهة قراءة حمزة : « وما أنتم بمصرخىِّ » بكسر الياء .

« وقد رُوِىَ أن « أبا عمرو بن العلاء » سئل عن ذلك فقال : إنه لحسنٌ ، تارةً إلى فوق وتارةً إلى أسفل . يعنى فتحَ الياء فى مصرخىّ وكسرها . والذين نقلوا هذه الحكاية يحتجون بها لحمزة ، ويذهبون إلى أن « أبا عمرو » أجاز الكسر لالتقاء الساكنين . وإن صحَّت الحكايةُ عنه فما قالها إلا متهزئًا على معنى العكس ، كما قال « الغنوى » — وهو سهل بن حنظلة :

لا يمنع الناسُ منى ما أردتُ ولا ... أُعطيهمُ ما أرادوا حُسْنَ ذا أدبا

أى : ليس ذلك بحسن . وهذا كما يقول الرجلُ لولده إذا رآه قد فعل فعلاً قبيحًا : ما أحسن هذا ! وهو يريد ضدَّ الحسن . ولم يأتِ كسرُ هذه الياء فى شعر فصيح . وقد طعن « الفراء » على البيت الذى أنشده :

قال لها : هل لك يا تا فىِّ ؟ ... قالت له : ما أنت بالمرضىِّ

وقد سمعت فى أشعار المحدثين : إلىِّ وعَلَىِّ ، ونحوَ ذلك ، وهو دليلٌ على ضعف المُنَّةِ وركاكة الغريزة .

وكذلك قوله : الكل . إدخالهُ الألف واللامَ مكروه ، وكان « أبو على » يجيزه ويدعى إجازته على « سيبويه » ، فأما الكلام القديم فيُفتقد فيه الكلُّ والبعضُ . وقد أنشدوا بيتا لسحيم :

رأيتُ الغنىَّ والفقيرَ كليهما ... إلى الموت ، يأتى الموتُ للكلِّ مَعْمَدا »

(٤٥٧)

* * *

وقال فى حديثه عن « أبى بكر الشبلى » :

« .. وأنشدنى له منشد :

باحَ مجنون عـــامرٍ بهواه   وكتمتُ الهـــوى ففزتُ بوجدى
وإذا كان يـــومَ القيامـــةِ نودِى   أين أهل الهــوى ؟ تقدمتُ وحدى

هكذا أنشدتُه : نودى ، بسكون الياء ، ولا أحب ذلك وإن كان جائزًا ، وإنما يوجد فى أشعار الضَّعَفَةِ مِنْ الْمُحْدَثين » (٥٨٢) .

* * *

وقال فى حديثه عن حِجَج ابنِ القارح :

« وكأنى به لما اعتزم على استلام الركن ، وقد ذكر البيتين اللذين ذكرهما « المفجَّعُ » فى (حَدِّ الإعراب) :

لـو كان حَيٌّ قبلهـــن ظعائنًا   حَيَّى الحطيمُ وجوهَهن وزمزمُ
لكنـــه عمَّـــا يطيـــف بركنه   منهن ، صَمَّــاءُ الصدى مستعجم

فيعجب من خروجه من المذكر إلى المؤنث[1] . وإذا حمل هذا على إقامة الصفة مقامَ الموصوف لم يبعد .

« وكذلك يذكر قول الآخر[2] :

ذكرتكِ والحجيجُ لـــه عجيجُ   بمكةَ والقلوبُ لها وجيبُ
فقلتُ ونحـــن فى بلد حرام   بِهِ لله أخلصت القلـــوب
أتوب إليك يـــا ربَّاهُ مما   جنيتُ فقد تظاهرت الذنـــوب
فأمَّـــا من هـــوى ليلى وحبى   زيارتَهـــا ، فـــإنى لا أتـــوب

فيقول : أليس قال البصريون إن هاءَ النُّدْبَة لا تثبتُ فى الوصل ؟ والهاء فى قوله : يا رباه ، مثل تلك الهاء ليس بينهما فرق ، ولكن يجوز أن يكون مغزاهم فى تلك المنثورَ من الكلام ، إذ كان المنظومُ يحتمل أشياء لا يحتملها سواه .

« ولعله قد ذكر الأبيات فى الطواف :

أُطَوِّفُ بالبيت فيمـــن يطـــوف   وأرفـــع مـــن مئزرى المسبَلِ
وأسجد باللـيـــل حتى الصبـــاح   وأتلـــو من المحكـــم المنزَلِ
عسى فارجُ الكـــربِ عن يوسفٍ   يُسَخِّـــرُ لى ربَّةَ المحمـــــل[3]

(١) الشاهد ، فى قوله بالبيت الثانى : « صماء الصدى مستعجم » على تقدير : صخرة صماء الصدى .. ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه .

(٢) الأبيات لمجنون ليلى ، والشاهد فى قوله : يا ربَّاه .

(٣) الأبيات لعمر بن أبى ربيعة – انظر ص ٥٣٩ من نص رسالة الغفران ط ذخائر .

فقال : ما أيسرَ لفظ هذه الأبيات ، لولا أنه حذف (أن) من خبر عسى ، فسبحان الله ، لا تعدَم الحسناء ذامًّا ، وأى الرجال المهذب ؟ » ٥٣٨ .

* * *

وقال فيما لقن ابن القارح فى الحديث مع « أوس بن حجر » :

« وكان فى عزمى أن أسألك عمَّا حكاه سيبويه فى قولك :

تُوَاهِقُ رجلاهـا يداه ورأسه لها قتَبٌ خلفَ الحقيبة رادف

فإنى لا أختار أن تُرْفَعَ الرجلان واليدان ، ولم تدعُ إلى ذلك ضرورةٌ ، لأنك لو قلت : « تواهق رجليها يداه » لم يزغ الوزن ، ولعلك – إن صح قولُك لذلك – أن تكون طلبتَ المشاكهة ، وهذا المذهبُ يقوى إذا رُوِىَ « يداها » بالإضافة إلى المؤنث ، فأما فى حال الإضافة إلى ضمير المذكر فلا قوة له » ٣٤١ .

قلت : [ورواية اللسان ، كالغفران : « تواهق رجلاها يداه ورأسه »

وهو يصف حمارَ وحش وأتانًا يسوقها إلى الوجه الذى يريده . والمواهقة أن تسير مثل سير صاحبك . أراد ، تواهق رجلاها يديه ، فحذفِ المفعول وقد علم أن المواهقةَ لا تكون من الرجلين دون اليدين فأضمر ، وأن اليدين مواهَقتان ، كما أنهما مواهِقتان ، فأضمر لليدين فعلا دلَّ عليه الأول ، فكأنه قال : وتواهق يداه رجليها ، ثم حذف المفعول فى هذا كما حذفه فى نَسق الأول ، فصار على ما ترى . « تواهق رجلاها يداه »] .

* * *

وقال على ذكر كتاب (القضيب) لابن الراوندى : « فهو كما قال الأول :

فلـم أر مغلوبَـيـنْ يَفْـرِىء ولا وقعَ ذاك السيفِ وقعَ قضيب

وهذا البيت يُستشهد به – كما عَلِم – لأنه قال : مَغلوبَيْنْ يفرى ، وإنما يجب أن يقال : يفريان ، ولكنه أجرى الاثنين مجرى الجمع ، ومثله قول الراجز :

« مثل الفراخِ نُتِقت حواصلهُ » (٤٧٤)

قلت : [فى (فقه اللغة للثعالبى) فى القسم الثانى ، عن « أسرار العربية » عقد المؤلف فصلا بهذا المعنى عنوانه : فصل فى الجمع بين شيئين اثنين ، ثم ذكر أحدهما دون الآخر ، والمراد به كلاهما ، قال : التوبة من الآية : ٣٤ .

« من سنن العرب أن تقول : رأيت عمرًا وزيدًا وسلمت عليه ، أى عليهما – وقال الله عز وجل : ﴿والذيـن يكنزون الذهـب والفضة ولا ينفقونهـا فى سبيل الله﴾(١) وتقدير الكلام : ولا ينفقونهما فى سبيل الله . وقال تعالى : ﴿وإذا رأوا تجـارة أو لهوًا انفضوا

(١) التوبة من الآية : ٣٤ .

إليها﴾[1] وتقديره ، انفضوا إليهما . وقال جلّ جلاله : ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾[2] والمراد : أن يرضوهما »] .

* * *

وفى جحيم الغفران جيء بامرئ القيس فسأله ابن القارح بتلقين أبى العلاء : « كيف تنشد :

جالَتْ لتصرعنى فقلتُ لها اقصرى   إنى امرؤٌ صرعي عليكِ حرام

أتقول : حرامُ ، فتُقوِى ؟ أم تقول : حرامِ ، فتخرجه مخرج حذامِ وقطامِ ؟ وقد كان بعضُ علماء الدولة الثانية يجعلك لا يجوز الإقواءُ عليك . فيقول امرؤُ القيس : لا نكرة عندنا فى الإقواء ، أما سمعت البيت فى هذه القصيدة :

فكأن بدرًا واصل بِكُتَيفَةٍ   وكأنما من عـاقل إرمامُ ؟

فيقول : لقد صدقت يا أبا هند ، لأن إرمامًا ، ها هنا ليس واقعًا موقع الصفة فيحمل على المجاورة ، لأنه محمول على : كأنما ، وإضافته إلى ياء النفسِ – يعنى ياء المتكلم – تضعف الغرض .

وقد ذهب بعض الناس إلى الإضافة فى قول الفرزدق :

فما تدرى إذا قعدتْ عليه   أسَعْدُ اللّهِ أكثرُ أم جـذامِ

فقالوا : أضاف كما قال جرير :

* تلكُم قريشىَّ والأنصارُ أنصارى *

وكذلك قوله :

وإذا غضبتُ رمّت ورائى مازن   أولاد جَنْدَلَتِى كخير الجنــدل

وبعضُهم يروى :

* أولاد جندلةٍ كخيرِ الجندل *

وجندلةُ هذه ، هى أم مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، وهى من نساء قريش » (٣٢١) .

* * *

وَيلْقَى « الراعى ، النُّمَيرى » فيسلم عليه « ويقول : أرجو أن لا أجدك مثلَ أصحابك صِفرًا من حفظِك وعربيتك ، فيقول : أرجو ذلك فاسألنى ولا تطيلنَ . فيقول : أحقّ ما رَوَى عنك « سيبويهِ » فى قصيدتك اللامية التى تمدحُ بها عبد الملك بنَ مروان ، من أنك تنصب الجماعة فى قولك :

أيامَ قومى والجمـاعةَ كالذى   لزمَ الرحالَةَ أن تَميلَ مميلا ؟

(١) التوبة من الآية : ١١ .

(٢) الجمعة من الآية : ٦٢ .

فيقول : حقٌ ذلك » ٣٦٣ .

[والبيت من شواهد سيبويه ، وروايته فى الخزانة[1] :

* أزمانَ قومى والجماعةَ كالذى *

فالجماعة مفعول معه ، على تقدير إضمار الفعل] .

* * *

وقال يسأل - بلسان ابن القارح - امرأ القيس : « أخبرنى عن قولك :

ألا رب يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

أتنشده : * لك منهن صالح * فتزاحف الكفّ ، أم تنشده على الرواية الأخرى ؟ فأما يوم . فيجوز فيه النصب والخفض والرفع : فأما النصب فعلى ما يجب للمفعول من الظروف ، والعامل فى الظرف ها هنا فعلٌ مضمر . وأما الرفع فعلى أن تجعل « ما » كافة ، و « ما » الكافة عند بعض البصريين نكرة ، وإذا كان الأمرُ كذلك فـ « هو » بعدها مضمرة . وإذا خُفض يوم ، فـ « ما » من الزيادات . « ويشدد سىّ ويخفف ، فأما التشديد فهو اللغة العالية ، وبعض الناس يخفف ، ويقال إن الفرزدق مَرّ وهو سكرانُ على كلابٍ مجتمعة فسلَّم عليها فلما لم يسمع الجواب أنشد يقول :

فَمَا ردّ السلامَ شيوخُ قومٍ مررتُ بهم على سِكَكِ البريدِ

ولا سِيَمَا الذى كانت عليه قطيفةُ أرجوانٍ فى القعود

« فيقول امرؤ القيس : أما أنا فما قلتُ فى الجاهلية إلا بزحاف : * لك منهن صالح * وأما المعلمون فى الإسلام فغيَّروه على حسب ما يريدون ، ولا بأس بالوجه الذى اختاروه . والوجوه فى (يوم) متقاربة . وسىّ ، تشديدها أحسنُ وأعرفُ فيقول : أجل ، إذا خُففت صارت على حرفين أحدهما حرف علة » (ص ٣١٧) .

يلاحظ على « أبى العلاء » هنا ، أنه أنطق « امرأ القيس » بمصطلحات متأخرة ، استحدثت بعد الإسلام . وقد تحدثنا عن ذلك ، فى « أسلوب الغفران » ورددناه إلى قوة اندماج أبى العلاء فى عالمه الآخر واستحضاره شخوصه ومشاهده . ويأتى فيما يلى نظيره فى علم ابن أحمر بمصطلح التصريف على وجه الإلهام .

* * *

وينظر فإذا الحارث - بن حِلِّزة - اليشكرى ، فيقول :

« لقد أتعبت الرواة فى تفسير قولك :

(١) البغدادى - خزانة الأدب - ج ١٣٠/٣ ط السلفية . وانظر أيضًا ص ٨٨ وما بعدها من كتاب (الضرائر للألوسى) .

زعموا أن كل مَن ضرب العيـ ـرَ مُوَالٍ لَنـــا وأنّا الـولاءُ

(٣٣٢)

وما أُحسبك أَرَدْتَ إلا (العير) الحمار . ولقد شنعتَ هذه الكلمة بالأقواء فى ذلك البيت . ويجوز أن تكون لُغتك أن تقف على آخِرِ البيت ساكنًا . وإذا فعلت ذلك اشتبه المطلق بالمقيد ، وصارت هذه القصيدة مضافة إلى قول الراجز :

دار لِظَمْيَا وأيـــن ظميـــا أهلكتْ أم هىَ بين الأحيا ؟

وبعض الناس ينشد قولك :

فَعِشَنْ بخـــيرٍ لا يَضِرْ كَ النُّوكُ ما أُعطيتَ جَدًّا

فيجمع بين تحريك الشين وحذف الياء من : عاش يعيش وذلك قليل ردىء ، ومنه قول الآخر :

متى تَشْئى يا أم عثمان تَصْرِمِى وأوذنك إيذانَ الخليط المزايل

وإنما الكلام : متى تشائى ، لأن هذا الساكن إذا حُرِّك عاد الساكن المحذوف :

ولقد أحسبت فى قولك :

لا تكسع الشَّوْلَ بأُغبارها إنك لا تدرى مَنِ الناتجُ

وقد كانوا فى الجاهلية يعكسون ناقة الميت على قبره ويزعمون أنه إذا نهض لحشره وجدها قد بُعِثت له ليركبها .. وهيهات ، بل حُشِروا عُراة حفاة بُهما ، وتلك الناقة المعكوسة هى البَلِيَّة التى ذكرتها فى قولك :

أُتلهَّى بها الهَـواجِرَ إذ كُلُّ ابْنِ هَمٍّ بَلِيَّةٌ عَمْيَاءُ

... ...

قلت :

[الكسع : علاج للضرع بالمسح ليرتفع اللبن ، وهو أشد لها . قال الجوهرى : كسع الناقة ضرب ضرعها بالماء البارد ليترادّ فى ظهرها .. والشول : النوق على غير قياس ..وأغبارها جمع غبر ، وهو بقية اللبن . ويلتبس قوله يعكسون فى البيت التالى ، بـ يكسعون كما جاء على هامش النسخة التيمورية . وإنما العكس حبس الناقة بشد عكاس ، أى : حبل فى عنقها .

وتلك الناقة المعكوسة هى البلية . وانظر التفصيل على هامش نص رسالة الغفران .]

(٣٣٤)

* * *

أخشى إن أنا تابعت النقل لمثل هذه الشواهد ، لأكثرت وقصرت ، فلأقتصر على هذا القدر نموذجًا ومثالاً ، مع ما يأتى بمشيئة الله وعونه ، من أشباه ونظائر ، فى (قراءتى الجديدة للغفران) .

قضايا النقد والرواية

لعل هذه القضايا أقرب اتصالا بالدراسة النقدية ، ولأبى العلاء هنا نظراتٌ دقيقة فى فقه العربية ، ووزن الروايات ، وذوق الشعر ، ونقد المتن . وهى تشهد بما كان له من دقة الملاحظة وسلامة الذوق الفنى ، وصفاء الحس اللغوى .

وقد تعرض « أبو العلاء » لكثير من القضايا الأدبية التى شغلت النقاد زمانًا ، وما يزال منها ما يشغلهم حتى اليوم : كمذهب أبى تمام ، والرواية ، والاستشهاد ، والانتحال ، وصناعة الأدب ، ولغة أهل الجنة ، كما عرض لمسائل مفردة ، تتصل بالأدب وتاريخه ونقده ، مما نحاول أن نختار نماذج منه :

طريقة أبي تمام :

جاء « أبو العلاء » بعنترة بن شداد العبسى ، ليحكم على طريقة أبى تمام ، ملتفتًا ، فى هذا الاختيار ، إلى التقابل بين قول عنترة :

* هل غادر الشعراءُ من مُتردَّم *

وقول أبى تمام :

فلو كان يَفنَى الشعرُ أفناه ماقَرَتْ ... حياضُكَ منه فى العصور الذواهب

ثم مضى يدافع عن المذهب وصاحبه .

قال يحدث « عنترة » بلسان ابن القارح :

« وإنى إذا ذكرتُ قولك : * هل غادر الشعراءُ من متردَّم * لأقولُ : إنما قيل ذلك وديوانُ الشعر قليل محفوظ ، فأما الآن فقد كثُرت على الصائد الضِبابُ ، وعرَفت مكانَ الجهلِ الربابُ . ولو سمعت ما قيل بعد مبعث النبى ﷺ لعتبت نفسك على ما قلت ، وعلمت أن الأمر كما قال حبيب بن أوس :

فلو كان يفنى الشعر أفناه ما قرتْ ... حياضُك منه فى العصور الذواهب
ولكنه صوبُ العقول إذا انجلت ... سحائب منه أُعقبت بسحائِب

فيقول : وما حبيبكم هذا ؟ فيقول : شاعرٌ ظهر فى الإسلام ، وينشده شيئًا من نظمه ، فيقول : أما الأصل فعربى ، وأما الفرع فنطق به غبى ، وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب . فيقول وهو ضاحك مستبشر : إنما يُنكر عليه المستعار ، وقد جاءت العارية فى أشعار كثير من المتقدمين ، إلا أنها لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب بن أوس » (٣٢٤) .

* * *

وعاد في القسم الثانى من (الغفران) فذكر أبا تمام ، وامتدح (طريقته المبتدعة) وجاء بقصائده فأقمن عليه مأتمًا من أعجب المآتم : لبسن السواد ، وبكين نائحاتٍ ، واجتمعن من كل أوب كما تجتمع النسوة ، وذلك على طريقة التشخيص التى تحدثنا عنها فى أسلوب الغفران . قال :

« فإن قُذِف فى النارِ « حبيبٌ » ، فما يُغنى المدحُ ولا التشبيب ، ولو أن القصائدَ لها علمٌ ، وتأسفُ لما يشكو الخِلْمُ ، لأقامت عليه الممدوتان[1] اللتان فى أول ديوانه ، مأتمًا يُعجَب لأسوانه ، فناحتا عليه كابنتى لبيد : وجُرعتاهما من الثكلِ نظيرُ الهبِيد ، وقالتا ما زعمه الكِلابى فى قوله :

وقولا : هو الميْتُ الذى لا حريمه أضاع ، ولاخان الصديق ولا غدرْ
إلى الحـــولِ ، ثم اسمُ السلام عليكما ومن يبكِ حولاً كامـلا فقـد اعتذر

وكأنى بهما – لو قُضِى ذلك – لاجتمعت إليهما الممدودات[2] كما تجتمع نساء معدودات ، كما تجتمع نساء معدودات ، فيجئن من كل أوب ، ويتواعَدْنَ المَحفِلَ على نَوْب ، ولو فعلن ذلك لبارتْهُنَّ البائيات[3] بمأتم أعظَم رنينًا ، وأشد فى الحندس حَنِينًا .. وما نظَمه على التاء ، فإنه لا يُعْجِز عن الإيتاء . وتجىء الثائيتان وكلتاهما كابنة الجون ، تبتدرُ فى حالِك اللون .. وإن الثاء لقليلةٌ فى شعر العرب ، إلا أنهما تستعينان كلمةَ « كُثَيِّر » :

حبـــالُ سـلامةَ أضحتْ رِثاثًا فسُــقيًا جُـــددًا أو رِمـــــاثا

وبأراجيز رؤبة .. »

فإذا انفض ذلك المأتمُ الذى جمع فيه « أبو العلاء » من القصائد أكثر مما اجتمع فى جنازة أحمد بن حنبل – رضى الله عنه – من النساء والرجال ، قال فى طريقة أبى تمام :

« وإنى لأضنّ بتلك الأوصالِ ، أن يظلَّ جسدُها وهو بالموقَدةِ صالٍ ، لأنه كان صاحبَ طريقة مبتدعة ، ومعان كاللؤلؤ متتبعة ، يستخرجها من غامض بحارٍ ، ويفضُّ عنها المستغلقَ من المحار » (٢٨٢ : ٤٨٨) .

مذهب الشعراء :

ويتحدث « أبو العلاء » فى غير موضع ، عمًّا يذهب إليه الشعراء من الغُلُوِّ فى القول تحسينا للكلام ، أو تلاعبًا به ، دون أن يعتقدوا ما يقولون . يقول « لبيد بن ربيعة » للأعشى :

« سبحان الله يا أبا بصير ! بعدَ إقرارك بما تعلم ، غُفِر لك وحصلتَ فى الجنة ؟ ! فيقول الشيخ متكلما عن الأعشى : كأنك يا أبا عقيل ، تعنى قوله .. وقوله .. وقوله .. ونحو ذلك مما رُوِى فى ديوانه ؟ فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون تحسينًا للكلام على مذهب

(١) ،(٢)، (٣) أشرنا إلى هذه القصائد على هامش النص–ص٤٨٤ وما بعدها. طبعات الذخائر : ١ – ١٠ .

الشعراء ، وإما أن يكون فعلَه فغفِر له » . ويتلو : ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعًا ، إنه هو الغفور الرحيم﴾[1] .

وفى القسم الثانى من الرسالة ، قال عن ذم « المتنبى » للزمان أهليه :

« .. والشعراء مطلق لهم ذلك ، لأن الآية شهدت عليهم بالتخرُّص وقولِ الأباطيل : ﴿ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾[2] (٢١٨ - ٢١٩) .

وقال عن أبى عيسى بن الرشيد :

« وربما كان الجاهلُ أو المتجاهل ، ينطقُ بالكلمة وخلَدُه بضدِّها آهِل ، وإنما أقول ذلك راجيًا أن أبا عيسى ونظراءه لم يتبعوا فى الغىِّ أمراءه ، وأنهم على سِوى ما علنَ يبيتون ، لقد وعظهم الميتون .

« ورأى بعضهم « عبد السلام بنَ رغبان المعروف بديك الجن » فى النوم وهو بحسن حال ، فذكر له الأبيات الفائية التى فيها :

هِىَ الدنيا وقد نعمـــوا بأخرى   وتسـويفُ الظنون من السُّواف

أى الهلاك . فقال : إنما كنت أتلاعبُ بذلك ، ولم أكن أعتقده » (٤٤٥) .

* * *

مهنة الأدب :

ويرى « أبو العلاء » فى (الغفران) أن حرفة الأدبَ صناعةٌ خاسرة مهينة ، فالشاعر « النابغة الجعدى » يعير « الأعشى » بمدح الملوك . ويرى زوجته « الهِزانية » قد وُفِّقَتْ فى تخلية هذا النابح الذى يطوفُ الأحوِيَة على العظام المنتبذة .

و« حميد بن ثور » فى جنة الغفران ، يشكو ما لقى فى الدنيا من هذه الصناعة يقول : « ولقد كان الرجلُ منا يُعمِل فِكرَه السنةَ والأشهرَ فى الرجلِ قد آتاه اللهُ الشرفَ والمالَ ، فربما رجع بالخيبة ، وإن أعطى فعطاءٌ زهيد » .

« وابن القارح » ينصرف عن انتساخ آداب الجن - وكان قد هَمَّ بذاك - ويقول : « لقد شقيتُ فى الدار العاجلة بجمع الأدب ، ولم أحظ منه بطائلٍ . وإنما كنتُ أتقرب به إلى الرؤساء فأحتلب منهم دَرَّ بَكىءٍ ، وأجهَدُ أخلافَ مَصُور ، ولستُ بموفَّق إن تركت لذَّاتِ الجنة وأقبلت أنتسخ آدابَ الجن ومعى من الأدب ما هو كاف » (٣٠٤) .

فإذا كانت الرحلة إلى النار والتقى ابن القارح بإبليس سأله هذا : « من الرجل ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان من أهل حلب . كانت صناعتى الأدب أتقرب به إلى الملوك . فيقول : بئست

(١) سورة الزمر : ٥٣ .

(٢) خواتم سورة الشعراء : الآيتان : ٢٢٥ - ٢٢٦ .

الصناعة ، إنها تهب غُفَّةً من العيش لا تتسع بها العيال ، وإنها لمزلّة القدم ، وكم أهلكت مثلك ، فهنيئًا لك إذ نجوت » (٣٠٩) .

* * *

وفي القسم الثاني من (الرسالة) — يسجل أبو العلاء شهادته على هذه الصنعة ويقول : « ولم يزل أهلُ الأدب يشكونَ الغِيرَ في كل جيل ، ويُخَصُّونَ من العجائبِ بسجل سجيل . وهو — أي ابن القارح — يعرفُ الحكاية أن « مسلمةَ بن عبد الملك » أوصى لأهل الأدب بجزء من ماله وقال : إنهم أهل صناعة مجفوّة . وأحسب أنهم والحرفَةَ خُلِقَا توءمين ، وإنما ينجحُ بعضُهم ذات الزمين ، ثم لا تلبث أن تزِلَّ قدمُه ..

« وإذا كان الأدب على عهد بني أمية ، يُقصَد أهلُه بالجفوة ، فكيف يسلمون من باسٍ عند مملكة بني العباس ؟ وإذا أصابتهم المحنُ في أيامِ الرشيد ، فكيف يُطمع لهم بالحظ المشيد ؟ أليس أبو عبيدة قدم مع الأصمعي وكلاهما يريد النجعة ، ولا يلتمس إلى البصرة رجعة ، فتُشبث بعبدِالملك ورُدَّ معمر ؟ ... ومن بَغَى أن يتكسب بهذا الفن فقد أودَع شرابَه في شن ، غيرِ ثقةٍ على الوديعة ، بل هي منه في صاحب خديعة .. » (٤١٠) .

* * *

الرواية :

نقد السند ونقد المتن :

لأبي العلاء في الغفران عناية خاصة بالرواية واهتمام بنقدها ، وحرص على سلامة المروى عن العرب من العبث والانتحال . فلا تكاد تبدأ الرحلة معه إلى الجنة ، حتى يقدم إليك طريقته المختارة في الرواية والنقل ، ذلك حين يلقن ابنَ القارح — في نزهته بالجنة — أن يتمثل بقول البكري :

ليت شعري متى تخب بنا النا قةُ نحـو العُذَيْب فالصَّيْبونِ
مُحقِبًا زكـرةً وخبزَ رقـاق وحِبـاقًا ، وقطعةً من نـون

« فيهتف هاتف : أتشعر أيها العبد المغفور له لمن هذا الشعر ؟ فيقول الشيخ : نعم ، حدثنا أهل ثقتنا عن أهل ثقتهم ، ويتوارثون ذلك كابرًا عن كابر حتى يصلوه بأبي عمرو بن العلاء ، فيرويه لهم عن أشياخ العرب ، حَرَشَةِ الضباب في البلاد الكلدات ، وجُناة الكمأةِ في مغاني البُداة ، الذين لم يأكلوا شيراز الألبان ولم يجعلوا الثمر في الثِبان ، أن هذا الشعر لميمون بنِ قيس بن جندل أخي بني ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكاية بن صعب ... ابن بكر بن وائل . فيقول الهاتف : أنا ذلك الرجل مَنَّ الله عليّ بعد ما صرت من جهنم على شفير .. » .

ثم يعرض – بأسلوبه الخاص – موكبًا من الشعراء ، يسألهم فى شعر نسب إليهم مختلَفٍ فيه ، فينكرونه .

يقول للنابغة الذبيانى : « فأنشدنا كلمتك التى أولها[1] :

ألِمَّـــا على المطـــورة المتـــأبدة أقـــامتْ بهـــا فى المربعِ المتجـردة

مضمَّخةً بالمسك ، مخضوبة الشَّوى بِـدُرٍّ وياقـــوتٍ لهـــا مُتقلـدة

(الأبيات)

... ...

فيقول « أبو أمامة » ما أذكر أنى سلكتُ هذا القرىّ قط . فيقول مولاى الشيخ – زينَ الله أيامه ببقائه – : إن ذلك لعجَبٌ ، فمن الذى تطوع فنسبها إليك ؟ فيقول : إنها لم تُنسب إلى على سبيلِ التطوُّع ، ولكن على معنى الغَلَطِ والتوهم ، ولعلها لرجل من بنى ثعلبة بن سعد . فيقول نابغة بنى جعدة : صحبنى شاب فى الجاهلية ونحن نريد الحيرة ، فأنشدنى هذه القصيدة لنفسه وذكر أنه من ثعلبة بن عكابة ، وصادف قدومُه شكاةً من النعمان فلم يصلْ بها إليه ، – فلعل أحدًا نسبها إلى النابغة – فيقول نابغةُ بنى ذبيان : ما أجدر ذلك أن يكون ! (٢٠٧) .

« وينثنى إلى أعشى قيس فيقول : يا أبا بصير ، أنشدنا قولك[2] :

دارٌ غيرُ محلولـه أمِـنْ قَتْلـةَ بالأنقاء

(الأبيات)

... ...

« فيقول : « أعشى قيس » : ما هذه مما صدر عنى ، وإنك منذ اليوم لمولَعٌ بالمنحولات » . (٢١١)

وجاء بأبينا آدم عليه السلام ، يسأله – بلسان ابن القـارح – عمَّا نُسب إليــه من شعر قائلا :

« يا أبانا – صلى الله عليك – قد رُوِى لنا عنك شعرٌ ، منه قولك :

نحـــن بنـــو الأرض وسكانها منها خلقنـــا وإليها نعودُ[3]

والسـعد لا يبقــى لأصحــابه والنحس تمحوه ليالى السعودْ

... ...

فيقول : إن هذا القولَ حق ، وما نطقه إلا بعضُ الحكماء ، ولكنى لم أسمع به حتى الساعة . فيقول – وَفَّرَ الله قِسمَه من الثواب : فلعلك يا أبانا قلته ثم نسيت ، فقد علمتُ

(١) لم ترد هذه القصيدة فى ديوان النابغة .

(٢) هذه الأبيات رويت فى الديوان فى (الشعر الذى أنشدوه للأعشى وليس فى ديوانه) انظر ط أوربا ص٢٥٥ .

(٣) الأبيات ، مروية فى (مروج الذهب للمسعودى) ج ١ – ٢٢٦ ، وفى ج ٤ ص ٥٥٦ من (خزانة الأدب للبغدادى) .

أن النسيان متسرع إليك ، وحسبك شهيدًا على ذلك الآية المتلوة : ﴿ولقد عهِدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزمًا﴾[1].

« فيقول آدم صلى الله عليه : أبيتم إلا عقوقًا وأذية ! إنما كنت أتكلم بالعربية وأنا فى الجنة ، فلما هبطتُ إلى الأرض نقِل لسانى إلى السريانية ، فلم أنطق بغيرِها إلى أن هلكت ، فلما رَدَّنِى الله سبحانه وتعالى إلى الجنة عادت علىَّ العربيةُ ، فأىَّ حينٍ نظمت هذا الشعر ؟ فى العاجلة أم الآجلة ؟ والذى قال ذلك ، يجب أن يكون قاله وهو فى الدارِ الماكرة ، ألا ترى قوله : « منها خُلِقنا وإليها نعود » ؟ فكيف أقول هذا المقال ولسانى سريانى ؟ وأما الجنةُ قبل أن أخرج منها ، فلم أكن أدرى بالموت فيها ، وأنه مما حُكم على العباد .. أما بعد رجوعى إليها فلا معنى لقوله : وإليها نعود ، لأنه كذب لا محالة ، ونحن أهلَ الجنة خالدون مخلدون . فيقول – قُضى له بالسعد المؤرب – : إن بعض أهل السِيَر يزعم أن هذا الشعر وجده « يعرب » فى متقدمِ الصحف بالسريانية ، وهذا لا يمتنع أن يكون ..

« وكذلك يروون لك – صلى الله عليكَ – لما قَتل قابيلُ هابيلَ :

تغيرت البلاد ومَن عليها فوجهُ الأرض مغبَرٌّ قبيح

« فيقول آدم ، صلى الله عليه : أعززْ علىَّ بكم معشرَ أبينىّ ، إنكم فى الضلالة مُتَهَوِّكُونَ ، آليتُ ما نطقتُ هذا النظيمَ ولا نُطِق فى عصرى ، وإنما نظمه بعض الفارغين ، فلا حولَ ولا قوة إلا بالله ! كذبتم على خالقكم وربِّكم ، ثم على آدم أبيكم ، ثم على حواء أمكم ، وكذب بعضُكم على بعض ، ومآلكم فى ذلك إلى الأرض » (٣٦٠ : ٣٦٤) .

ومن حديثه مع امرئ القيس :

« وإنا لنروى لك بيتًا ما هو فى كلِ الروايات[2] ، وأظنه مصنوعًا لأن فيه ما لم تجرِ عادتُك بمثله ، وهو قولك :

وعمرو بنُ درماءَ الهمامُ إذا غدا بصارمِهِ يمشى كمِشْيَةِ قَسْوَرا

فيقول : أبعد الله الآخرَ ، لقد اخترصَ فما اترَّص ، وإن نسبةَ مثلِ هذا إلىَّ لأعدُّه إحدى الوَصمات ، فإن كان من فعلَه جاهليا فهو من الذين وجُدوا فى النار صُلِيا ، وإن كان من أهل الإسلام فقد خبط فى ظلام » – وإنما أنكر **حذفَ الهاء من « قسورة »** لأنه ليس بموضع الحذف ، وقلَّ ما يصابُ فى أشعار **العرب مثلُ ذلك** – فأما قول القائل :

إن ابــنَ حــارث إن أشــتقْ أو أمتدحْه ، فإن الناس قد علموا

---

(١) الآية ١١٥ من سورة طه .

(٢) البيت رواه (العقد الثمين) فى غير المنحول من شعر « امرئ القيس » وروايته هكذا :

وعمرو بن درماء الهمام إذا غدا بذى شطب عضب كمشية قسورا

فليس من هذا النحو ، إذ كان التغييرُ إلى الأسماء الموضوعة أسرعَ منه إلى الأسماء التى هى نكرات ، إذ كانت النكرةُ أصلًا فى الباب » ٣٢٢ .

وأنشد أبو العلاء ، فى القسم الثانى من الغفران ، أبياتًا رُويتْ للعلوى البصرى :

قتلــتُ النــاس إشـفاقًا ... عـــلى نفسىَ كـى تبقى

وحُـزتُ المـال بالسـيف ... لكـى أنعـمَ لا أشقى

فمَنْ أبصــر مشــواى ... فَلاَ يظلـمْ إذًا خلْقــا

... ...

ثم قال : « وأنشدنى بعضهم أبياتًا قافيَّةً طويلة الوزن ، وقافيتها مثل هذه القافية ، قد نُسبت إلى « عضُد الدولة » وقيل إنه أفاق فى بعض الأيام فكتبها على جدار الموضع الذى كان فيه . وقد نحا بها نحو أبيات البصرى ، وأُشهدُ أنها متكلَّفة ، وضعها رقيعٌ من القوم ، وأن عضُدَ الدولة ما سمع بها قط » (٤٤٩) .

* * *

وأبو العلاء يحتكم – فى فحص الرواية – إلى القواعد المعتبرة فى نقدِ السند والمتن ، معتمدًا فى السند على ما نقل عن مشهورى الثقات ، وحفظِه النادر لدواوين الشعر ، وراجعًا فى نقدِ المتن ، إلى سلامةِ المروى ، وإلى خبرته الدقيقة بأساليب الشعراء ، وفقهه لأسرار العربية وحِسّه المرهفة لذوقها .

من ذلك قوله لعمرو بن أحمر فى رائعته التى قال فيها : « وجرادتان تغنيانهم » :

« ولقد وجدتُ فى بعض كتبِ الأغانى صوتًا يقال غنّته الجرادتان ، فتفكنتُ لذلك ، والصوت :

أقفرَ من أهلِه المصيفُ ... فبطنُ عردةَ فالغريفُ

– وهذا شعرٌ على قرِىّ : « أقفر مِن أهلِه ملحوبُ » – ومن الذى نقل إلى المغنين فى عصر « هارون » وبعده ، أن هذا الشعر غنته الجرادتان ؟ إن ذلك لبعيد فى المعقول ، وما أجدره أن يكون مكذوبًا ؟ » (٢٤٣) .

وقولك ... . ؟

فيقول ابن أحمر :

أما ذكر « الجرادتين » فلا يدل على أنى خصصتُ به « قيل بن عتر » وإن كان فى الوفد الذى غنته الجرادتان ، لأن العرب صارت تسمى كل قينة جرادة ، حملا على أن قينة فى الدهر الأول كانت تدعى جرادة » .

* * *

« وكنت بمدينة السلام ، فشاهدت بعض الوراقين يسأل عن قافية « عدِىّ بن زيد » التى أولها :

بكَر العـــاذلون فى غلَس الصبح (م) يقولـون لـــى : أمَــا تستفيقُ ؟
ودعا بالصبوح فجرًا ، فجـاءت قينـــــةٌ فى يمينها إبـــريق

وزعم الوراق أن « ابن حاجب النعمان » سأل عن هذه القصيدة وطُلبت فى نسخ من ديوان عدى فلم تُوجد . ثم سمعتُ بعد ذلك رجلاً من أهل أستراباذ يقرأ هذه القافية فى ديوان « العبادى » ولم تكن فى النسخةِ التى فى دار العلم » (١٤٦) .

وقال للمرقش الأكبر : « وبعض الناس يروى هذا الشعر لك :

تخيرتُ من نَعمانَ عودَ أُراكةٍ لهنـــد ، ولكـــنْ منْ يُبلغها هندا
خليلى جوزا بارك الله فيكما وإن لم تكن هند لأرضِكما قَصْدا
وقولا لهــا ليس الضـــلالُ أجازنا ولكننا جـــزنا لنلقـــاكم عمـــدا

ولم أجدها فى ديوانك ، فهل ما حكى صحيح عنك ؟

فيقول : لقد قلت أشياء كثيرة ، منها ما نقل إليكم ومنها ما لم ينقل . وقد يجوز أن أكون قلت هذه الأبيات ولكنى سَرِفتُها لطول الأبد ، ولعلك تنكر أنها فى « هند » وأن صاحبتى « أسماء » ، فلا تنفر من ذلك ، فقد ينتقل المشبّبُ من الاسم إلى الاسم ، ويكون فى بعض عمره مستهترًا بشخص من الناس ثم ينصرف إلى شخص آخر . ألا تسمع إلى قولى :

سَفَهٌ تذكّرُه « خُوَيْلَةَ » بعدما حالت ذُرَا نجران دون لقائها

(٣٥٧)

وأنشد :

هى الخمر تُكنَى الطـــلاءَ كما الذئبُ يُكنَى أبا جعدةِ

وقال : « وهذا البيت[1] يروى ناقصًا كما عَلم ، وهو ينسب إلى عبيدِ بن الأبرص ، وربما وُجد فى النسخةِ من ديوانه وليس فى كل النسخ ، والذى أذهب إليه أن هذا البيتَ قيل فى الإسلام ، بعدما حرمت الخمر » (٥١٣) .

ويقول لمهلهِل بن ربيعة التغلبى :

« فأخبرنى عن هذا البيت الذى يُروى لك :

أرعدوا ساعة الهياج وأبرقـ ـنا كما توعد الفحول الفحولا

فإن الأصمعى كان ينكره ويقول إنه مُوَلّد ، وكان أبو زيد يستشهد به ويثبته . فيقول : طَالَ الأبدُ على لُبَد ، لقد نسيتُ ما قلتُ فى الدار الفانية ، فما الذى أنكر منه ؟ فيقول : زعم

(١) ذكرنا المحاولات لإكمال هذا البيت ، على هامش نسختنا المحققة ص ٥١٣ (ط ثامنة ذخائر) .

الأصمعى أنه لا يقال أرعد وأبرق فى الوعيد ولا فى السحاب ، فيقول : إن ذلك لخطأ من القول ، وإن هذا البيت لم يقله إلا رجلٌ من جِذْمِ الفصاحة : إمَّا أنا وإما سواى ، فخذ به وأعرض عن قول السفهاء » (٣٥٤) .

وذكر شعرًا « لطفيل » ، وترحم عليه : ثم قال : « وإنما أطلقت الترحم على طفيل ، إذ كان بعض الرواة يزعم أنه أدرك الإسلام ، ورُوِىَ له مدحٌ فى النبى ﷺ ، ولم أسمعه فى ديوانه » (٥٤١) .

ويسأل تأبَّطَ شرًّا : « نُقِلت إلينا أبياتٌ تُنسَب إليك :

أنا الذى نَكَحَ الغِيـــلانَ فى بلـــد ... ما طَـلَّ فيها سِماكىٌّ ولا جادا
فى حيثُ لا يَعْمِتُ الغـــادى عمايته ... ولا الظليـــمُ به يبغى تِهبَّـــادا

(الأبيات)

.. فاستدللت على أنها لكَ : لما قلتَ : تِهبّادًا ، مصدرَ تهبَّد الظليم إذا أكل الهبيدَ ، فقلتُ : هذا مثلُ قوله فى القافيَّة :

طيفُ ابنةِ الحرِّ إذ كنَّا نُواصِلُها ... ثُم اجْتُنِنْتُ بهـــا بعدَ التِفِرَّاقِ

مصدر تفرقوا تِفِراقًا ، وهذا مُطَّرِدٌ فى تفعَّل ، وإن كان قليلاً فى الشعر كما قال « أبو زبيد » :

فثار الزاجرون فزاد منهم ... تِقرَّابًا وصادفــه ضَبيسُ

(٣٦٠)

ومن حديثه مع « طرفة » :

« يا ابن أخى يا طرفة ، خفَّف الله عنك ! أتذكر قولَك .. وقولَك :

متى تأتنى أصبحْك كأسًا رويَّةً ... وإن كنتَ عنها غانيًا فاغنَ وازْدَدِ

..وهذا البيت يُتنازع فيه ، فينسبه إليك قوم ، وينسبه آخرون إلى عدى بن زيد ، وهو بكلامك أشبه » (٣٣٤) .

« ويلتفتُ – فى الجنة – فإذا هو بِجِران العود النميرى ، فيحييه ويرحب به ، ويقول لبعض القيان : أسمعينا قولَ هذا المحسن :

حملن جِرانَ العُودِ حتى وَضَعْنَهُ ... بِعلياءَ فى أرجـائها الجنُّ تعزف
... ...
وقلنَ : تمتعْ ليلةَ النـأىِ هذه ... فإنك مرجـــوم غدًا أو مُسيَّفُ

وهذا البيتُ يروَى لسحيم ، فتصيب تلك القينةُ وتجيد ، فإذا عجِبت الجماعة من إحسانها وإصابتها قالت : أتدرون مَن أنا ؟ فيقولون : لا والله المحمود .فتقول : أنا أُمُّ عمرو ، التى يقول فيها القائل[1] :

تصدُّ الكأسَ عنا أمُّ عمرو ... وكان الكأس مجراها اليمينا

وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عمرو ... بصاحبك الذى لا تصبحينا

فيزدادون بها عجبًا ولها إكرامًا ويقولون : لمِن هذا الشعر ؟ ألعمرو بن عدّى اللخمى ، أم لعمرو بن كلثوم التغلبى ؟ فتقول : أنا شهدتُ نَدماني جذيمة ، مالكًا وعقيلاً ، وصبَحتهما الخمر المشعشعة لمَّا وجدا عَمْرَو بنَ عدى ، فكنتُ أصرف الكأس عنه ، فقال هذين البيتين . فلعل عمرو بنَ كلثوم حَسَّن بهما كلامَه واستزادهما فى أبياته » (٢٧٧) .

« ويلفِتُ عنقه يتأمل فإذا هو بأوسٍ بن حجر ، فيقول : يا أوسُ ، إن أصحابك لا يجيبون السائل ، فهل لى عندك من جواب ؟ فإنى أُريد ان أسألك عن هذا البيت :

وقارفَتْ وهى لم تجربْ وباع لها ... من الفصافص ، بالنُّميّ سِفسيرُ

فإنه فى قصيدتك التى أولها :

هل عاجلٌ من مَتاع الحى منظور ... أم بيت دومة بعد الوصل مهجورُ

ويروَى فى قصيدة النابغة التى أولها :

ودِّع أُمامةَ والتوديع تعذيرُ ... وما وَداعُكَ من قفَّتْ به العير ؟

... ...

وكلاكما معدود فى الفحول، فعلى أى شىء يُحمَل ذلك ؟ .. فيقول أوس : قد بلغنى أنَّ نابغة بنى ذبيان فى الجنة ، فاسأله عمَّا بدا لك فلعله يخبرك ، فإنه أجدر بأن يعى هذه الأشياء » (٣٣٩) .

وقريب من هذا ، توقفه فى الحكم بين « القطامى » و « حميدِ بن ثور » ، فى شعر متشابه لهما ، وهما من عصر واحد : (٢٦٣ — ٢٦٥) .

* * *

الاستشهاد :

الحديث عن الرواية ، يتصل به من قرب الحديث عن الاستشهاد . و « أبو العلاء » مرهف الحس لآفاته : أشار مرةً إلى ضعة بعض من يُستشهد بكلامهم ، وأشار أُخرى إلى ما قد يداخل الاستشهادَ من عناصرَ زائفة ليست من العلم ولا من الأدب ، كالخوف والمداراة .

(١) البيتان رواهما « التبريزى » فى معلقة عمرو بن كلثوم (٢١١) ، ورواهما المرزبانى فى (معجمه) منسوبين لعمرو بن عدى على رواية « المفضل » . وبهامشه حاشية من الناشر : البيتان يرويان فى قصيدة لعمرو بن كلثوم — انظر ص ٢٠٥ من معجم الشعراء للمرزبانى .

يمرُّ بابن القارح في جنة الرجّاز .

« ويعرض له رُؤبَةُ ، فيقول : يا أبا الجحّاف ، ما كان أكلفَك بقوافٍ ليست بالمعجبة ! تصنَع رجَزًا على الغين ، ورجزًا على الطاء ، وعلى غير ذلك من الحروف النافرة ! ولم تكن صاحبَ مثلَ مذكور ، ولا لفظ يُستَحسن عذب ! فيغضب رؤبة ويقول : ألى تقول هذا وعنى أخذ « الخليل » وكذلك أبو عمرو بن العلاء ؟ وقد غبرت فى الدار السالفة تفتخرُ باللفظة تقع إليك مما نقله أولئك عنى وعن أشباهي ؟ « فإذا رأى – لا زال خَصْمُه مُغَلَّبًا – ما فى رؤبة من الانتخاء قال : لو سُبِك رجزُكَ ورجز أبيك لم تخرج منه قصيدةٍ مستحسنة . ولقد بلغنى أن « أبا مسلم » كلمك بكلام فيه (ابن تأداء) فلم تعرفها حتى سألتَ عنها بالحيّ . ولقد كنتَ تأخذ جوائز الملوك بغير استحقاق ، وإن غيرَك أولى بالأعطية والصلات . فيقول رؤبةُ : أليس رئيسُكم فى القديم ، والذى ضَهَلَتْ إليه المقاييسُ ، كان يستشهد بقولى ويجعلنى له كالإمام ؟ فيقول – وهو بالقول مُنطَق – : لا فخر لك أن استُشهِد بكلامِك ، فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أمَةٍ وكعاء .. وكم روَى النحاةُ عن طفلٍ ، ما له فى الأدبِ من كفل ، وعن امرأةٍ لم تُعَد يومًا فى الدرأة » (٣٧٤ : ٣٧٧) .

« وذكر مَن نقلَ عن « بشّار » أنه توعَّد « سيبويه » بالهجاء ، وأنه تلافاه واستشهد بشعره ، ويجوز أن يكون استشهاده على نحو ما يتذاكره المتذاكرون فى المجالس ومجامع القوم .

وأصحاب بشار يروون له هذا البيت :

وما كلُّ ذى لُبٍّ بموئيكَ نصحَه ولا كلُّ مـؤتٍ نُصْحَـه بلبيبِ

وفى (كتاب سيبويه) نصفُ هذا البيتِ الآخر ، وهو فى باب الإدغام لم يُسَمِّ قائله . وزعم غيرُه أنه لأبى الأسود الدؤلى » (٤٣١) .

* * *

اجتماع مُؤلِّفَيْنِ على كتاب :

واستغرب « أبو العلا » – فى رسالة الغفران – أن يجتمع اثنان على تأليف كتاب واحد لا ينفرد أحدُهما بشيء دون صاحبه ، وسبب تعرضه لذلك أن « ابن القارح » ذكر له فى (رسالته) إليه ، أن لِلقُطْرُبُّلى وابنِ أبى الأزهر كتابًا فى المتنبى اجتمعا على تأليفه . فكان مما أجاب به أبو العلاء :

« وأما القُطْرُبُّلى وابن أبى الأزهر ، فمن الزّوْلِ اجتماعُهما على تأليف كتاب ، وقلَّ ما يُعرف مثلُ ذلك . ونحوٌ منه قصةُ « الخالدين » اللذين كانا فى الموصل ، وهما شاعران ، وقد كانا عند « سيف الدولة » وانصرفا على حَدِّ مُغَاضَبَةٍ ، ولهما ديوانٌ ينسب إليهما لا ينفرد فيه أحدُهما بشيء دون الآخر إلا فى أشياء قليلة ، وهذا متعذرٌ فى ولد آدمَ ، إذ كانت الجبِلةُ على الخلاف

وقلة الموافقة . فأما أن يعمل الرجل شيئًا من كتاب ثم يتمّه الآخرُ ، فهو أسوغُ فى المعقول من أن يجتمع عليه الرجلان . والبغداديون يحكون أن « أبا سعيد السيرافى » عمل فى كتابه المعروف (بالمقنع أو الإقناع) ، إلى بابِ التصغير ، ثم توفى وأتمَّه بعدَه ولدُه « أبو محمد » . وقد يجوز مثل هذا ، ليس عندهم فيه ريبٌ . وحكى لى الثقةُ أن « أبا عليٍ الفارسى » كان يذكر أن « أبا بكر بن السراج » عمِل من (الموجز) النصفَ الأول لرجل بزّاز ، ثم تقدم إلى « أبى على » بإتمامه . وهذا لا يقال إنه من إنشاء أبى على ، لأن الموضوع من الموجز ، هو منقول من كلام ابن السراجِ – فى (الأصول) وفى (الجمل) – فكأن أبا علىّ جاء به على سبيلِ النسخ ، لا أنه ابتدع شيئًا من عنده » (٤٢٤ – ٤٢٥) .

* * *

النساء والشعر :

لم ينس « أبو العلا » الشاعرة « الخنساء » – رضى الله عنها – فى جنته ، على أنه لم يُظهرها فى مجالس المذاكرة والمنادمة ، ولا فى الوليمة الحافلة الفاخرة التى أقامها بالجنة ، وإنما اختار لها موقفًا أليمًا : يمضى بابن القارح ، « فإذا هو بامرأة فى أقصى الجنة قريبة من المطلع إلى النار ، فيقول : من أنتِ ؟ فتقول : أنا الخنساء السلَميّة ، أحببتُ أن أنظر إلى صخرٍ ، فَاطّلَعْتُ فرأيته كالجبل الشامخ والنارُ تضطرم فى رأسه . فقال لى : لقد صح مزعمك فىَّ ، يعنى قولى :

وإن صخرًا لتأتمُّ الهداةُ به كأنه علَم فى رأسه نار »

على أنه عاد – قبيل انتهاء رده على ابن القارح – فشهد للنساء ، وبخاصة نساء حلب الشواعر ، بأنهن ، غالبًا أجود غرائزَ من رجالهن فى الشعر . قال فى سياق الحديث عن بنت أخت لابن القارح ، ذكر أنها سرقت دنانير له : « .. ويجوز أن يكون قد وشَج إلى هذه المرأة شىءٌ من أدب الخئولة ، فليتقِ معرةَ بيانها ، أكثر من اتقائِه خُلْسة بنانها ، فهو يعلم أن الشعر ورثه « زهيرُ بن أبى سلمى » من خاله « بشامة بن الغدير » ، ولك يكن فى « مزينة » شعرٌ يذكر ، وحضره زهير عند الوفاة فأراد أن يعطيه شيئًا من ماله فقال بشامة : أما يكفيك أنى ورثتك غرائبَ القصيد ؟ وربما كان فى نساء « حلبَ » – حرسها الله – شواعر ، فلا يأمن – ابن الفارح – من أن تكون هذه منهن ، فطالما كن أجودَ غرائزَ من رجالهنَّ . وحدث رجلٌ ضرير من أهل « آمد » يحفظ القرآن ويأنس بأشياء من العلم : أنه كان وهو شاب ، له امرأةٌ مقينة تُزيِّن النساءَ فى الأعراس ، وكانَ يُنَجِّمُ على الطريق .. وكان يعتمد حفظ تلك الأشعار ويدرسها فى بيته ، ولا غريزة له فى معرفة الأوزان ، فيكسر البيت ، فتقول له امرأته الماشطة : ويلى ، ما هذا جيد . فيلاجّها ويزعم أنها مخطئة . فإذا أصبح مضى فسأل مَنْ يعرف ذلك ، فأخبره أن الصواب معها ، وعرفه كيف يجب أن يكون . فإذا لَقِنه عنه ، عاد فى الليلة الثانية

فذكره وقد أُصلِحَ ، فتقول الماشطة : هذا الساعةَ جيدٌ . وكان لى كرىٌّ من أهل البادية يُعرَف بعلوان ، وله امرأة تزعم أنها من طَىٍّ ، فكان لا يعرف موزون الأبيات من غيره . وكانت المرأة تحس بذلك ، وكانت تتأسف على طفل مات لها يقال له رجب ، وكانت تنشد هذا البيت :

إذا كنتَ من جَرًّا حبيبك موجعًا فلابد يومًا من فراق حبيب

فقالت يومًا :

* إذا كنت من جَرًّا رُجَيْبٍ مُوجَعًا *

فعلمتْ أن الوزن مختل ، فقالت :

* إذا كنت من جَرًّا رُجَيْبَنَ موجعًا *

فحركت التنوين ، وأنكرت تحريكه بالطبع ، فقالت :

* إذا كِنت من جرًّا رُجَيْبِكَ موجعًا *

فأضافته إلى الكافِ ، فاستقام الوزنُ واللفظ » (٥٨٠) .

* * *

أحكام أدبية مفردة :

بقيت أحكام أدبية مفردة لأبى العلاء فى الغفران ، نعرض هنا مثلاً منها ، شاهدًا لما تتسم به غالبًا من دقة وَاتِّزَان ، وما تدلّ عليه من فطنة ولطف حِسٍّ وذوق :

قال على لسان « الجعدى » ينافر « الأعشى » :

« أغرك أن عدك بعضُ الجهال رابعَ الشعراء الأربعة ؟ وكذب مفضلُك ! وإنى لأطولُ منك وأكثر تصرفًا . ولقد بلغتُ بعدد البيوت ما لم يبلغه أحد من العرب قبلى ..

فيجيب أبو بصير : أتقول هذا وإن بيتًا مما بنيتُ لَيَعْدَلُ بمائةٍ من بنائك ؟ وإن أسهبتَ فى منطقك فإن المُسْهِبَ كحاطِب الليل » (٢٢٩) .

وقال عن « ابن الرومى » : « وأمّا ابن الرومى فهو أحد من يقال – فيهم – : إن أدبه كان أكثر من عقله » (٤٧٦) .

وقال عن « أبى تمام » : « كان صاحب طريقة مبتدعة » .

وقال عن « المتنبى » حين أنكر « ابن القارح » تحقيره لأهل زمانه – وفيهم سيف الدولة الحمدانى ولىّ نعمته – بذمهم وتصغيرهم :

« فأما ما ذكره من قول أبى الطيب :

* أذم إلى هذا الزمان أهيله *(١)

(١) تمام هذا البيت ، والأبيات بعده على هامش نسختنا من رسالة الغفران ، ذخائر مع التعريف بالقصائد .

فقد كان الرجلُ مولعًا بالتصغير ، لا يقنع من ذلك بخلسة المغير كقوله :

من لى بفهم أُهَيْلِ عصرٍ يدعى   أن يُحسَبَ الهندىّ فيهم باقلُ

وقوله :   « حُبَيِّتا قلبى فُؤَيْدى هيــا جُمْلُ »

وقوله :   « مُقَــالى للأُخَيْمِقِ يــا حليـــمُ »

« ونــــام الخــــويدمُ عــن ليلنــا »

« أفى كلِّ يوم تحت ضِبنى شويعر »[1]

وغير ذلك مما هو موجود فى ديوانه ، ولا ملامة عليه ، إنما هى عادةٌ صارت كالطبع .. ولكنها تُغتفر مع المحاسن » (٤١٥) .

وقال لطرفةَ : « لو لم يكن لك أثرٌ فى العاجلة إلا قصيدتُك التى على الدال .. لكنت قد أبقيت أثرًا حَسنًا » (٣٣٩) .

وقال لأبى كبير الهذلى : « إنك لمن أعلام هذيل ، ولكنى لم أوثر قولك :

« أزُهَيْرُ هــل عن شَيْبَةٍ من معدِلِ »

وقلت فى الأخرى :   « أزهير هل عن شَيْبَةٍ من مصرِف »

وقلت فى الثالثة :   « أزهير هــل عن شَيْبَةٍ من مَعْكَمِ »

فهذا يدلُّ على ضيقِ عَطَنِكَ بالقريض ، فهلا ابتدأتَ كلَّ قصيدة بفن ؟ » .

ويقول للمرقش الأكبر :

« وإن قومًا من أهل الإسلام كانوا يستزرون بقصيدتك الميمية التى أولها :

هل بالديارِ أن تجيب صَمَمْ   لــو كان حيًّا ناطقــًا كلَّمْ

وإنها عندى لمن المفردات . وكان بعضُ الأدباء يرى أنها والميمية التى قالها المرقش الأصغر ناقصتان عن (القصائد المفضليات) ، ولقد وهِم صاحبُ هذه المقالة » (٣٥٦) .

* * *

وقال – بلسان ابن القارح – لعدى بن زيد ، بعد أن أنشد صاديته :

أبلغ خليلى عبدَ هندٍ فلا   زلتَ قريبًا من سوَادِ الخُصُوصْ

« أحسنت أحسنت ، لو كنت الماءَ الراكد لما أُسنت . وقد عمل أديبٌ من أدباء الإسلام قصيدة على هذا الوزن ، وهو المعروف ، بأبى بكر بن دريد ، قال :

يسعدُ ذو الجدِّ ويشقى الحريصْ   ليس لخلقٍ من قضــاءٍ مَحيصْ

....

إلا أنكَ يا أبا سوادة أحرزتَ فضيلة السبق » (١٨٦ – ١٩٠) .

* * *

(١) تمامها على هامش النص : ص ٤١٥ ، ط ذخائر .

وقال للنابغة الذبيانى على لسان ابن القارح : « يا أبا أمامة ، إنك لحصيفُ الرأى لبيب ، فكيف حسَّن لك لُبُّكَ أن تقول للنعمان بن المنذر :

زعـــمَ الهمــــــام بأن فاها باردٌ عذبٌ إذا ما ذقتَه قلتَ ازددِ
زعـــم الهمـــــامُ – ولم أذُقه – بأنه يُشْفَى ببـــردِ لثـاتهـا العَطِشُ الصدِى

« ثم استمر بكَ القولُ حتى أنكره عليك خاصةٌ وعامة ؟ فيقول النابغة بذكاء وفهم : لقد ظلمنى من عاب علىّ ، ولو أنصفَ لعلم أننى احترزتُ أشدّ احتراز ، وذلك أن « النعمان » كان مستهترًا بتلك المرأة ، فأمرنى أن أذكرها فى شعرى ، فأدرتُ ذلك فى خلدى فقلت : إن وصفتُها وصفًا مطلقًا ، جاز أن يكونَ بغيرها معلقًا ، وخشيتُ أن أذكر اسمها فى النظم فلا يكون ذلك موافِقًا للملك ، لأن الملوك يأنفون من تسمية نسائهم ، فرأيتُ أن أُسند الصفة إليه فأقول : زعم الهمام ، إذ كنتُ لو تركتُ ذكره لظنَّ السامع أن صفتى على المشاهدة . والأبيات التى جاءتْ بعدُ ، داخلةٌ فى وصف الهمام ، فمن تأمَّلَ المعنى وجده غير مختل » .

ثم يسأل النابغةُ :

« وكيف يُنشدون : « وإذا نظرت رأيت أقمر » وما بعده ؟ فيقول – أرغم الله أنف شانئه – يُنشَد : وإذا نظرتَ ، وإذا لمستَ ، وإذا طعنت ، وإذا نزعتَ ، على الخطاب . فيقول « النابغة » : قد يسوغ هذا ولكن الأجودَ أن تجعلوه إخبارًا عن المتكلم ، لأن قولى « زعم الهمام » يؤدى معنى قولنا : « قال الهمام » فهذا أسلَم ، إذ كانَ الملك يحكى عن نفسه ، وإذا جعلتموه على الخطاب قبُح : إن نسبتموه إلىّ فهو مُنْدِيَةٌ ، وإن نسبتموه إلى النعمان فهو إزراء وتنقُّص . فيقول – أيد الله الفضل بزيادة مدته – : لله دَرُّك يا كوكبَ بنى مرة . ولقد صحَّف عليك أهلُ العلمِ من الرواة ! فمن لى بأبوى عمرو : المازنى والشيبانى ، وأبى عبيدة وعبد الملك ، وغيرهم من النقلة لأسألهم : كيف يروون ؟ وأنت شاهد ، لتعلَم أنى غيرُ المتخرّص ولا الولاَّغ ؟ فلا يقرّ هذا القول فى خُذُنَّةِ أبى أمامة إلا والرواةُ أجمعون قد أحضرهم الله القادرُ من غير مشقة نالتهم ، ولا كلفة فى ذلك أصابتهم .. فيقول : كيف ترون أيها المرحومون قولَ النابغة فى الدَّالية : وإذا نظرت ، وإذا لمست ، وإذا طعنت ، وإذا نزعت : أبفتح التاء أم بضمها ؟ فيقولون : بفتحها . فيقول : هذا شيخُنا أبو أمامة يختار الضم ، ويخبر أنه حكاه عن النعمان . فيقولون : هو كما جاء فى الكتاب الكريم : ﴿والأمرُ إليكِ فانظرى ماذا تأمرين﴾[1] (٢٠١) . من آية ١٤ : المؤمنون.

وذكر القرآنَ الكريم ، فَسَفَّه من حاول الكلام فى نظمه ، وقال فى إعجازه : « وأجمع ملحدٌ ومهتدٍ ، وناكب عن المحجة ومقتد ، أن هذا (الكتاب) الذى جاء به محمد ﷺ ،

(١) من آية ٣٣ : النمل .

كتاب بهر بالإعجاز ولقى عدوه بالإرجاز . ما حُذِى على مثال ولا أشبه غريب الأمثال ، ما هو من القصيد الموزون ولا الرجز من سهل وحزون . ولا شاكل خطابة العرب ، ولا سجع الكهنة ذوى الأرب.. لو فهمه العَضْبُ الراكد لتصدع، ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾(١) وإن الآية منه أو بعضَ الآية لتعترض فى أفصح كَلِمٍ يقدر عليه المخلوق فتكون فيه كالشهاب المتلألئ فى جُنْح غَسَقٍ.. ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾(٢) .

* * *

ننتهى من هذا العرض السريع للمسائل اللغوية والأدبية وقضايا النقد والرواية فى الغفران ، قدّمتُ « أبا العلاء » : حافظًا واثقًا من حفظه ، عالمًا بأسرار العربية ، مطمئنًا إلى علمه ، فقيهًا بأساليب الشعراء ، حريصًا على سلامة الرواية ، يمتحن المروى فى دقة ، ويعرضه على الضوابط المقررة لنقد السند والمتن ، ساخطًا على تأول المتأولين وتكلف المتكلفين .

وننتهى من هذا العرض ، وفى سمعنا صوتُ « أبى العلاء » يقول فى ثقة واطمئنان :

- هذا ، لم يحكه مشهور من الثقات .
- ولم تأت التلبية بالقصيد .
- تأوّل من أصحابنا وادعاء .
- ما قلت ذلك ولا غيرى من العرب .
- لم يقلْه إلا رجل من جِذم الفصاحة .
- وأشهد أنها متكلفة ، وضعها رقيع من القوم .
- الأمر أيسر مما ظن هذا المتكلف .
- وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب .
- وقلّ ما يصاب فى أشعار العرب مثلُ ذلك .
- إن ذلك لبعيد فى المعقول ، وما أجدره أن يكون مكذوبًا :
- ولم يأتِ مثل هذا فى شعر فصيح .
- وأصحاب العربية مجمعون على كراهة ذلك .
- هذا الوجه الذى ذكره أبو سعيد ، شر من إقواءٍ عشر مرات فى القصيدة الواحدة .

وفيما نقلنا من نص الغفران ، ما يكفى لمعرفة أسلوبه فى العرض ، وطريقته فى الأداء ، وآن لنا أن نوسع أفق البحث ، فنتجاوز حدود (رسالة الغفران) إلى الميدان الأدبى العام ، لننظر أين مكانُها فيه ؟

* * *

---

(١) من آية ٢١ : الحشر.

(٢) من آية ١٤ : المؤمنون.